مجلة
كلية الآداب

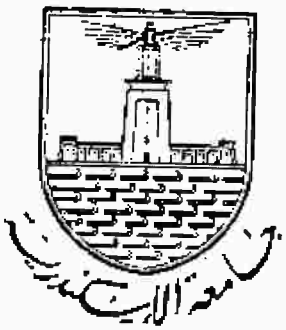

المجلد السابع عشر

١٩٦٣

تطلب هذه المجلة من مكتبة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية
بالشاطبي ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية إلى
هيئة تحرير المجلة

مطبعة جامعة الأسكندرية
١٩٦٤

فهـــرس

صفحة

الأعياد الفارسية فى العالم الاسلامى
للدكتور طه ندا ١

من تاريخ العراق فى العصر البويهى
للدكتور حسين أمين ٤٥

كليومينيس وسياسته المالية فى مصر فى عهد الاسكندر الأكبر
للدكتور مصطفى العبادى ٦٥

التخطيط العمرانى فى مصر القديمة
للدكتور محمد أبو المحاسن عصفور ٨٧

الأعياد الفارسية فى العالم الاسلامى

للدكتور طه ندا

أشهر الأعياد الفارسية القديمة التى عرفها المسلمون فى المجتمع الاسلامى : النوروز والمهرجان ، السذق .

وفى سبب إتخاذ كل عيد من هذه الأعياد أساطير كثيرة . ولما كانت هذه الأعياد قد عرفت عند الإيرانيين فى عهود سحيقة فقد أصبح من المتعذر على الباحث أن يهتدى إلى قول فصل فى سبب احتفالهم بها ، ومتى كان ذلك ، يضاف إلى هذا أن العهود الفارسية القديمة كالعهد البيشدادى ، والعهد الكيانى عهود اسطورية .

ولكن الباحث حين يعز عليه أن يصل إلى الحقيقة فى سبب اتخاذ الايرانيين هذه الأعياد لاينبغى له أن يهمل الأساطير لأن أساطير أى شعب من الشعوب مرآة للمجتمع الذى كان يعيش فيه ذلك الشعب ، وهى تصور عاداته وتقاليده وآماله وأمانيه ومثله العليا فى الحياة . وحين نظم الفردوسى ، شاعر الفرس الأكبر ، ملحمته التاريخية الكبرى « الشاهنامه » كان يعرف ان جانباً كبيرا منها يقوم على الأسطورة . ومع ذلك قضى من عمره ثلاثين عاما ينظم فيها تاريخ إيران بما حواه من أساطير وحقائق . وحين فرغ أهدى هذه الملحمة الى الشعب الايرانى على عهده ليجلو بها مفاخر الايرانيين القدماء أمام أنظار معاصريه على أن يكون بعث الماضى بعثاً للهمم التى تراخت ، وتجديداً للحيوية التى أوشكت على النضوب .

وعلى هذا فلا بأس هنا فى أن نعرض على القارىء بعض ماروى فى أسباب اتخاذهم هذه الأعياد ، ومتى كان ذلك ، فى بداية الحديث عن كل عيد من هذه الأعياد .

١ — النوروز

أصل النوروز :

أما النوروز (١) فتروى الشاهنامة أن مبدأ هذا العيد كان فى عهد الملك جمشيد أحد ملوك الدولة البيشدادية (٢) ، فانه لما استقرت له الأمور وهدأت فى مملكته الأحوال صنع لنفسه عرشاً مرصعاً بالجواهر تحمله له الجن أينما حل أو ارتحل . وكان إذا حل فى مكان أقامه على مرتفع من الأرض مواجها للشمس ، فاذا أشرقت عليه تلألأت جواهره وخطف بريقها الأبصار ، وعم ضياؤها الكون . وعندما ارتقى جمشيد هذا العرش لأول مرة صادف هذا اليوم الأول من شهر فروردين فاتخذوه مبدأ للسنة الفارسية عندهم وسموه « نوروز » أى اليوم الجديد . واحتفلوا بتلك المناسبة ، مناسبة ارتقاء جمشيد عرشه العجيب ، احتفالا عظيما ، وجعلوا ذلك اليوم عيداً عندهم من ذلك التاريخ (٣) .

وتروى «نوروزنامه» (٤) ، سببا آخر فتقول إنه اتخذ عيداً على عهد افريدون (٥) ، حينما انتصر على الضحاك . وتذكر أن افريدون قسم مملكته بين أولاده فخص «تور» بمنطقة تركستان من نهر جيحون حتى الصين ، ومنح ابنه الثانى « سلم » بلاد الروم ، وجعل بلاد ايران من نصيب «ايرج» ، ومن هنا ترى « نوروزنامه » ان جميع ملوك الترك والعجم والروم

---

(١) يرد فى المؤلفات العربية نوروز ، فيروز والأولى هى الصحيحة .

(٢) الدولة البيشدادية أولى الدول الأسطورية فى تاريخ الفرس . والقطة مكونه من بيش ، داد أى أهل العدل ، وملوك هذه الأسرة هم جيومرث ، هوشنك ، طهمورث ، جمشيد ، ازدهاك (الضحاك) ، فريدون ، منوچهر ، نوذر ، زو ، كشتاسب .

(٣) شاهنامه : ج ١ ص ٢٥ ط بروخيم طهران .

(٤) راجع الاشارة إلى هذه الرسالة ص من هذا البحث .

(٥) الملك السادس من ملوك الدولة البيشدادية . مدة ملكه فى الشاهنامة خمسمائة سنة . وهو من ملوك العهد الأسطورى . واشتهر عنه الايرانيين بالعدل واستطاع أن يخلصهم من الضحاك وظلمه . وله ذكر كثير فى الأدب والمؤلفات العربية .

من أصل واحد لأنهم جميعاً من أبناء افريدون . ومن واجب أعقابهم أن يحتفظوا بهذا العيد الذى احتفل به جدهم افريدون مادامو جميعاً من نسله (١) .

ويعرف عيد النوروزهذا باسم « نوروز جمشيدى » نسبة إلى الملك جمشيد الذى اتخذ هذا العيد فى عهده حسب الرواية الأولى . ويستمر هذا العيد ستة أيام يسمى أولها «النوروز الصغير » أو «نوروز العامة» لأن الملوك كانوا يبرزون للعامة فى هذا اليوم . وكانوا يقضون حوائج الناس ويسمعون شكاواهم فى الأيام الأربعة التى تليه . أما اليوم السادس والأخير من أيام الاحتفالات بهذا العيد فيسمونه النوروز الكبير أو « نوروز الخاصة » لأن الملك يجتمع فيه بخاصة أتباعه يأنس بهم ويلهو معهم (٢) ، أو يجتمع مع وزرائه ليحثهم على فعل الخير ويأمرهم بالاحسان إلى الناس وإقامة العدل بينهم (٣) .

عاداتهم فى النوروز :

ولهم فى هذا العيد رسوم وتقاليد فكان من رسم ملوكهم من أيام كيخسرو (٤) حتى أيام الملك يزدجرد (٥) ، أن أول من يمثل أمام الملك فى يوم النوروز هو الموبد موبدان (٦) ومعه كأس ذهبية امتلأت خمراً ، وخاتم ، ودرهم ودينار خسروانى ، وسيف ، وسهم ، قوس ، ودواة ، وقلم ، وحصان ، ولعبة ، وغلام مليح . ثم يبدأ الموبد موبدان فى الدعاء للملك

---

(١) الخيام : نوروزنامه ص ١٠ تصحيح مجتبى مينوى .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٠٨ ط الأميرية ١٩١٣

(٣) برهان قاطع .

(٤) من ملوك الدولة الكيانية وهى دولة أسطورية أيضاً وأن لم يخل أمرها من حقائق. وملوك هذه الدولة : كيقباد ، كيكاوس ، كيخسرو ، لهراسب ، كشتاسب ، بهمن ، اسفنديار هماى ، داراب بن بهمن بن اسفنديار ، داراب بن داراب .

(٥) هو يزدجرد بن شهريار بن كسرى پرويز آخر ملوك الدولة الساسانية أعظم دول الفرس شأناً قبل الاسلام . قضى عليها الفتح العربى .

(٦) هو كبير رجال الدين . وفى يده تتركز السلطة الدينية . وله نفوذ وتأثير كبير على الملوك . والموبد هو رجل الدين عند المجوس .

أن يرفقه الله لحفظ الدين ، وأن يبقيه على العرش ليفتح بلاداً جديدة ويحيي سنن الاقدمين فى علو الهمة ، وفعل الخير ، ونشر العدل ، واتباع الصراط المستقيم ، وأن يظل رأسه مرفوعاً ، وشبابه ناضراً ، وفرسه مظفراً ، وسيفه فى رقاب الاعداء قاطعا ، وبازيه فى الصيد غانما ، وقصره عامراً ، وعمره طويلا حافلا (١) ، وإذا فرغ الموبد من مدح الملك والدعاء له أقبل بعد ذلك عظماء الدولة يقدمون ولاءهم (٢) .

ومن عادة ملوك الفرس فى هذا العيد أن يتلقوا هدايا غيرهم من الملوك ويتقبلوا هدايا رعيتهم لا فرق فى ذلك بين الخاصة والعامة .

وكانت هدايا ملوك الأمم إلى ملك الفرس تضم طرائف وعجائب تلك الأمم . فمن الهند كانوا يهدونه الفيلة والسيوف والمسك والجلود . ومن بلاد التبت والصين كان يتلقى هدايا المسك والحرير والأوانى . ومن الروم الديباج والبسط (٣) .

ومن الهدايا التى سجلت فى التاريخ هدية ملك الروم إلى ملك الفرس كسرى پرويز فى عيد النوروز . وكانت تلك الهدية فارسا من ذهب على شهرى من فضة ، وقد صنعت عينا الشهرى من جزع ابيض محدق بالسواد ، وجعلت ناصيته وعرفه وذنبه من شعر أسود . وفى يد هذا الفارس صولجان من ذهب وإلى جانبه ميدان من فضة توسطته كرة عقيق أحمر . ويحمل الميدان ثوران من فضة ، والشهرى يبول الماء وكلما مال انحط الصولجان على الكرة فمر بها إلى أقصى الميدان فتحرك بحركاتها الثوران والميدان ، ويركض الفارس على عجل تحت حوافر الشهرى (٤) .

---

(١) الخيام : نوروزنامه ص ١٩

(٢) نفس المصدر .

(٣) الجاحظ : المحاسن والاضداد ص ٢٨١ ط لبنان .

(٤) المحاسن والاضداد : ص ٢٨٣ .

وكان أفراد الشعب يهدون ملكهم مما يملكون مهما يكن قدره . وجرت عادة القواد والمرازبة والاساورة أن يهدوا النشاب والاعمدة المصمتة (١) من الذهب والفضة . وجرت عادة الوزراء والكتاب والاشراف أن يهدوا جامات الذهب والفضة المرصعة بالجوهر والبزاة والعقبان والفهود . وكان الحكماء يهدون الحكمة ، والشعراء الشعر ، واصحاب الجوهر الجوهر ، وأصحاب نتاج الدواب الفرس الفاره والشهرى النادر والحمار المصرى والبغال الهماليج . هكذا كان كل فرد يهدى مما عنده ولو كان دينارا أو درهماً من ضرب سنته أو اترجة أو سفرجلة أو تفاحة (٢) .

وكل هدية تقدم إلى الملك فى هذا العيد تقيد لصاحبها فى الديوان مهما يكن قدرها . وترد هذه الهدية إلى صاحبها أضعافا مضاعفة إذا أصابه ضيق واحتاج إلى المال . وعلى كل من قدم هدية أن يأتى ديوان الملك إذا نابته نائبه ويعرض أمره على القائم بإثبات هذه الهدايا فى الديوان فيقدم له الاعانة المطلوبة بأمر الملك (٣) .

وكانت نساء الملك وجواريه يتسابقن فى تقديم الهدايا اليه . ومن واجب نسائه إذا علمت إحداهن ميله إلى جاريه من جواريها أن تسارع فتهديها اليه فى هذه المناسبة فى أبهج حلة وأكمل زينة . وهذا من شأنه أن يزيد قدرها عند الملك ويرفع مكانها لأنها فضلته على نفسها وقدمت له مالا تقدمه امرأة لزوجها وجادت بما لا تستطيع النساء أن تجود به (٤) .

---

(١) العمود من آلات القتال عند الفرس القدماء ويسمى أيضاً الجرز (جكرز) والدبوس . وينسب إلى افريدون أنه أول من صنع هذا السلاح فى حربه مع الضحاك ويعلق العمود فى حلقة السرج .

(٢) المحاسن والاضداد : ص ٢٨٢ .

(٣) الجاحظ : التاج ١٤٩ ط الأميرية ١٩١٤

(٤) نفس المصدر ص ١٤٨ .

وكان من عادة ملوك العجم الا يحتفظوا فى خزائنهم بالكسوة من فصل إلى فصل كما يفعل عامة الناس فكانوا إذا جاء النوروز فرقوا ما عندهم من كسوة الشتاء وإذا أقبل المهرجان وزعوا مالديهم من كسوة الصيف (١) .

وينعقد مجلس الملك فى أحد أيام النوروز للنظر فى شكاوى الناس ويؤذن للشعب فى شهود هذا المجلس . ولايجرؤ أحد من أتباع الملك أو رجال حاشيته أن يمنع فردا من الشعب من حضور هذا المجلس . ومن فعل ذلك فقد أثم إثما عظيما . ولكى يطمئن الملك إلى أنه لم يبق فى البلاد شاك ولامتظلم كان يعلن للناس جميعاً عن موعد انعقاد هذا المجلس قبله بأيام لتتاح لهم الفرصة لإعداد شكاواهم .

وإذا انعقد المجلس بدىء بفحص الشكاوى الموجهة ضد الملك نفسه : وعند ذاك ينهض الملك من مجلسه ويتقدم مع خصمه حتى يقفا أمام الموبد الكبير الذى يستمع إلى الشكوى ويفحصها بدقة ويحكم فيها بالعدل . أما إذا ظهر بطلان الشكوى فالويل للشاكى لأنه أراد أن يسىء إلى الملك ويطعن فى المملكة (٢) ، وإذا فرغ الملك من مظالمه فى نفسه انتقل إلى مجلسه فوق العرش وأخذ ينظر فى بقية المظالم التى تقدم اليه من الشعب . وكان الملك فى سبيل رد المظالم لايجامل أحداً من خاصته أو كبار رجال دولته حتى لايطمع طامع منهم فى ظلم الناس أو الاستبداد بهم خصوصا وقد بدأ بنفسه وضرب لهم المثل . وظلت الحال على هذا المنوال فيما يتعلق برد المظالم ودفع الأذى عن الناس من عهد أرشير بن بابك (٣) ، إلى أن تولى الملك يزدجرد الأثيم (٤) ، الذى أهمل هذه السنة الحميدة

---

(١) الجاحظ : التاج ص ١٥٠

(٢) التاج ص ١٦١

(٣) اردشير بن بابك مؤسس الدولة الساسانية (٢٢٦ – ٢٤١ م) .

(٤) هو يزدجرد بن سابور بن سابور ذى الأكتاف وهو الملك الثالث عشر من ملوك الأسرة الساسانية ويعرف بيزدجرد الأثيم لظلمه وكثرة آثامه (٣٩٩ – ٤٢٠ م) .

وطغى فى الأرض وتجبر وعز عليه أن تنتصف الرعية من الراعى ، وأن تنظلم السوقة من الملوك ، وأن يتساوى الوضيع والرفيع (١) .

وكان الملك إذا زار عظيما من عظماء مملكته فى بيته عدت هذه الزيارة حدثا تاريخياً ، وأضفت على المزور شرفاً رفيعاً يؤدى إلى جملة من المزايا والمنافع فلا يحبس أحد من أهله أو أتباعه لأمر ارتكبه أو جناية جناها ، ولايطالب بما عليه من خراج أرضه إذا لم يتقدم هو بدفعه ، وتعرض هداياه على الملك يوم عيد النوروز والمهرجان قبل غيرها من الهدايا (٢) .

وكانوا قبل النوروز يبنون فى صحن دار الملك اثنتى عشرة اسطوانه من لبن تزرع أنواعا مختلفة من البقول أو الحبوب كالبر والشعير والعدس والذرة ، فاذا وافى عيد النوروز حصدوها فى اليوم السادس منه وهم يغنون وينشدون . وكانوا يزرعون هذه الحبوب تفاؤلا بها . وكانوا أشد تفاؤلا بالشعير (٣) .

والخروج إلى البساتين والحدائق أمر شائع عند الملوك والشعب فى هذا العيد فكان كسرى پرويز مثلا (٤) ، يخرج إلى بستانه كل نوروز ليقضى هناك أسبوعين فى قصف ولهو . وفى هذا البستان اكتشف پرويز مغنيه المشهور فى تاريخ الغناء والموسيقى الايرانية «باربد» على نحو ماترويه الشاهنامة (٥) .

وكان وجوه الناس يدعون إلى الموائد الملكية التى تقام فى عيد النوروز أو غيره ويدخلون الايوان على طبقاتهم ثم يتخذ كل منهم مكانه على المائدة

---

(١) التاج : ص ١٦٣

(٢) نفس المصدر : ص ١٥٨

(٣) يتفاءل الفرس بالشعير لبركته ومنافعه وفى سبب تفاؤلهم بالشعير أنظر الفصة ٣٣ من نوروز نامه

(٤) من ملوك الدولة الساسانية المشهورين (٥٩٠ – ٦٢٨) ويكتب فى المصادر العربية پرويز وكسرى أبرويز .

(٥) شاهنامه : ج ٩ : ص ٢٨٨٣ داستان باربد واشكر .

حسب درجته . ويقف الخدم من ورائهم لخدمتهم . ويتصدر الملك الايوان بحيث يرى جميع المدعوين . وإذا انتهوا من طعامهم داروا عليهم بأقداح الشراب من فضة أو ذهب . وكانت الاقداح الذهبية تقدم للطبقة العليا ولمن دونهم تقدم أقداح الفضة . وكانت هذه الاقداح والكئوس من الروعة بحيث أغرت بعض المدعوين على سرقتها في الوليمة التي أقامها أنو شيروان (١) .

وكان للغناء دوره الأساسي في احتفالات الملوك بهذه الأعياد . وتناولت الاغاني موضوعات شتى كان أهمها بطبيعة الحال مدح الملك ، والترنم ببطولته والتحدث بنعمته ، فاذا فرغ هذا الجزء المهم من موضوعات الأغنية انتقلت بعد ذلك إلى موضوعات أخرى كوصف الطبيعة والتغني بجمالها . وكان أبرز المغنين في العهد الساساني «باربد»(٢) ، وكان لبربد هذا في كل يوم شعر جديد ولحن جديد (٣) ونال بربد مكانة كبيرة في بلاط كسرى برويز واصبح من أعظم رجال القصر شأناً . وكان رجال الحاشية إذا خافوا أن يبلغوا الملك خبراً من الأخبار المزعجة توسلوا إلى باربد ليقوم

(١) التاج : ص ١٠١

(٢) ويقال له في المصادر العربية باربد ، بربد ، بهلبد ، بهلبذ ، فهربد ، فهربذ ، نهلبد ، فهلبد ، وكان آية زمانه في الغناء والموسيقى . كما كان يقرض الشعر أيضاً ينظمه ويلحنه ويغنيه وغلبت عليه صناعة الغناء والموسيقى وكان أساتذة الموسيقى يتخذون آراءه في هذا الفن حجة ، ويغترفون من فيض ألحانه . وكان له في كل يوم من أيام الأسبوع لحن . وقد جمعت هذه الألحان السبعة وعرفت في كتب الموسيقى والمؤلفات الاسلامية بالطرق الملوكية . وكذلك جعل لكل يوم من أيام الشهر لحنا . وقد عرفت هذه الألحان بألحان بربد الثلاثين ، وأشارت اليها المؤلفات الاسلامية في الموسيقى أو التاريخ أو الأدب . وقد جمعها نظامي الشاعر الفارسي المشهور في منظومته «خسرو وشيرين» . ولم يكتف بربد بهذا إذ لحن لكل يوم من أيام السنة لحنا ومن ألحانه المعروفة خلق الله «يزدان آفريد» ، انتقام ايرج «كين ايرج» ، حديقة شيرين «باغ شيرين» ، النوروز الكبير «نوروز بزرك» وحديقة السرو «سروستان» والليلة السعيدة «شب فرخ» واليوم السعيد «فرخ روز» .. الخ . وإلى بربد هذا يشير البحتري في قصيدته التي مطلعها «صنت نفسي عما يدنس نفسي» بقوله : وتوهمت أن كسرى ابرويز معاطي والبلبذ أنسي .

(٣) المحاسن والاضداد : ص ٢٧٨

عنهم بهذه المهمة الثقيلة . وكانت طريقة باربد فى مثل هذه الأحوال أن ينظم أغنية جديدة يضمنها هذا الخبر ثم يلحنها ويغنيها أمام الملك . وكان الملك يفهم المقصود ولكنه لايغضب أو يحزن لأن جمال الصوت وحلاوة اللحن كانا يسيطران عليه فلا يدعان للغضب أو الحزن سبيلا إلى نفسه .

ويذكر المؤرخون أنه فى سنة ١٦هـ (١٣٧) م وقعت المدائن التى كانت مقر الملوك الساسانيين فى يد العرب . وكان من بين ماغنمه العرب مما وجدوه فى قصور الاكاسرة بساط نفيس جداً نسج أصلا لخسرو پرويز . يسميه العرب القطيف أو بساط الشتاء لأنهم عثروا عليه وقت الشتاء بينما يسميه الايرانيون « بهار كسرى » أى ربيع كسرى . وانما سموه كذلك لأن نقوشه كانت تمثل الربيع بكل مافيه من ورود وأشجار وأنهار . وكان هذا البساط لوحة فنية تحاكى الطبيعة وقت النوروز وما فيها من ضروب الحسن والجمال أصدق محاكاه .

وقد صنع كل مافيه من صور الأنهار والأزهار والأشجار وفق ألوانها الطبيعية بالأحجار الكريمة والمعادن النفيسة وكان كسرى برويز ومن بعده من الاكاسرة يفرشون هذا البساط فى احتفالاتهم التى تقام زمن الشتاء ليتصوروا أنهم فى احدى الرياض الغناء إبان النوروز . وقد تحير العرب فيما يفعلونه بهذا البساط وأمر عمر أن يقسم على المهاجرين والأنصار على السواء وخص عليا رضى الله عنه قطعة صغيرة منه فى مثل حجم الكف باعها بعشرين الف درهم .

وكان الملك إذا ارتقى العرش فى أى يوم من أيام السنة قبل ٢١ مارس الذى يوافق يوم النوروز اعتبر هذا اليوم الأخير بداية السنة الثانية من حكمه ، فاذا فرضنا أنه تولى الملك فى اليوم الأول من يناير فان ٢١ مارس الذى يتلوه يعتبر عندهم أول السنة الثانية من حكمه وقد حدث مثلا أن

الملك الساسانى يزدجرد (١) ، ارتقى العرش فى يوم ١٦ يونيو سنة ٦٣٢ م ولما جاء يوم ٢١ مارس التالى سنة ٦٣٣ م اعتبر هذا اليوم بداية السنة الثانية من سنوات حكمه (٢) .

واليوم السادس من النوروز (النوروز الكبير) منزلة عند الفرس . ففيه ، على حسب اعتقادهم ، توزع الحظوظ على الناس . ولهذا يكثرون فيه من الابتهال إلى الله والدعاء ولذا سمى هذا اليوم عندهم يوم الرجاء . ومما كانوا يتيمنون به فى هذا اليوم أن يذوق المرء فى صباحه السكر قبل الكلام ، وأن يتدهن بالزيت حتى يدفع عن نفسه ماقد يصيبه فى سنته من البلايا (٣) .

والتهادى بالسكر عادة من عاداتهم فى النوروز . ويقال فى سبب هذا أنهم اكتشفوا السكر فى ايران يوم نوروز على عهد الملك جمشيد الذى رأى هذا القصب أول مرة خلال أيام النوروز ولاحظ مايحتويه من عصير حلو ، فأمر أن يستخرجوا من القصب هذا العصير ويتخذوا منه السكر . ومن أجل هذا يتهادى الناس السكر فى هذا العيد ويتبركون به .

ومن عادة الناس فى هذا العيد على ما يروى البيرونى (٤) ، أن يقصدوا الحياض والأنهار فيرش بعضهم بعضاً بالماء تطهرا مما علق بأجسامهم من الادران فى العام المنقضى وتنظيفاً لأبدانهم من دخان النيران التى أوقدوها فى ليلته . وترجع عادة التراش بالماء عندهم إلى أيام الملك فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور(٥) ، ففى أيامه شح المطر وجف الزرع وأجدبت الأرض وعمت المجاعة . وطال الأمر بالناس على هذه الحال من الجدب والجوع سبع سنين فخرجوا

---

(١) هو يزدجرد بن شهريار بن كسرى برويز آخر ملوك الدولة الساسانية .

(٢) Karaka : History of the Parsis p. 106 vol. 1

(٣) البيرونى : الآثار الباقية : ص ٢١٧

(٤) البيرونى : الآثار الباقية : ص ٢١٨

(٥) من ملوك الدولة الساسانية : (٤٥٩ – ٤٨٣) .

إلى الصحراء يبتهلون إلى الله ويضرعون اليه أن يغيثهم فلما دخل النوروز من السنة الثامنة تقبل الله دعاءهم وفتح عليهم أبواب السماء بماء منهمر فكانوا لفرحتهم بالمياه يصبونها على رؤوسهم ويتراشون بها . وبقيت هذه العادة عند الفرس يحيونها من ذلك الوقت كل عام (١) .

وعيد النوروز من أهم أعياد الزردشت ، يحتفلون به احتفالا عظيما اينما كانوا . ويسميه الزردشتيون المقيمون بالهند في الوقت الحاضر Pateti وهو يوم أهورامزدا من شهر فروردين (٢) .

وهذه اللفظة مأخوذة من الكلمة الافستية (٣) Patita ومعناها يوم التوبة . وعلى هذا ففي هذا اليوم يصلي المرء ليغفر الله له ما اقترف من ذنوب طيلة العام المنقضي . وفي هذا اليوم يصحو الزردشتي مبكرا عن عادته كل يوم فيغتسل ويتطهر وكثيراً مايشترك في الحفلات التي تقام للتطهر ويسمونها «نهانه» ويرتدي ملابسه الجديدة ويؤدي الصلوات ملتمسا الرحمة من أهورامزدا له ولأهله . وهو بعد أصلاته يتمجيد الله ثم يلتمس منه المغفرة لذنوبه التي اقترفها في العام الماضي ، ثم يذهب إلى معبد النار مهديا اليه خشب الصندل . وهناك يعود إلى الصلاة ليستعيد حب الإله ورحمته . وإذا انتهت صلواته وزع الصدقات على الفقراء من رجال الدين والمحتاجين من الناس . ويقضي بقية اليوم بعد ذلك في مرح وسرور

---

(١) شاهنامه : ص ٢٢٦٨ – ٦٩ ج ٨ ط بروخيم تهران .

(٢) لكل يوم من أيام الشهر اسم خاص عند الفرس . فاليوم الأول من الشهر يسمى أهورامزدا والأيام التي بعده تسمى بأسماء اتباعه وكذا اليوم السادس عشر يسمى باسم مهر والأيام التي بعده تسمى بأسماء أتباعه . ولكل يوم من هذه الأيام أعمال يستحب أداؤها فيه . ولم يكن الفرس قديماً يعرفون تقسيم الشهر إلى أسابيع . ولهذا جعلوا لكل يوم اسماً خاصاً . وعلى هذا فيوم أهورامزدا من شهر فروردين هو اليوم الأول من الشهر الأول من السنة الفارسية وهو يوم عيد النوروز .

(٣) الأفستية لغة إيالة من إيالات ايران . كانت تكتب بها المتون المقدسة لكتاب الزردشتيين الذين الأفستا ومن هنا جاءت نسبتها . واستمرت كتابة النصوص الدينية بها في عصر الأشكانيين والساسانيين .

مع بقية أفراد الأسرة . وفى هذا اليوم يتزاور الناس ويتبادلون التهانى بالسنة الجديدة (١) .

وعادة إيقاد النار من العادات التى يهتم بها الايرانيون ليلة النوروز ، فالنار عند الايرانى القديم من العناصر الموقرة (٢) ، وهى عنده تمثل النقاء والصفاء كما أن إيقاد النيران يمد ، فى عرفهم ، ما فى الجو من وخم الشتاء .

النوروز فى العهود الاسلامية :

لما جاء الاسلام تغير الموقف فى صدر الاسلام بالنسبة للنوروز ولغيره من الأعياد الفارسية .

ولا شك فى أن الدولة الاسلامية على عهد النبى عليه الصلاة والسلام ، والخلفاء الراشدين كانت ترى أن الاحتفال بمثل هذه الاعياد يفتح مجالا تنفذ منه العادات والتقاليد المجوسية القديمة وتهيىء الفرصة أمام النزعات الوثنية للانتشار فى المجتمع الاسلامى الجديد ولهذا لم يكن لهذه الاعياد أى ذكر فى العهد الاسلامى الأول .

وعندما قدم النبى عليه الصلاة والسلام المدينة وجدهم لايزالون — كما كانوا فى الجاهلية — يحتفلون بيومين من أيام السنة تذكر بعض المصادر أنهما كانا يوم النوروز ويوم المهرجان (٣) ، فنهاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الاحتفال بهما ودعاهم إلى الاحتفال بعيد الفطر وعيد الأضحى لأنه خشى أن يكون فى الاحتفال بهذين العيدين الفارسيين إحياء وترويج لشعائر الجاهلية . ورمى من وراء دعوتهم إلى الاحتفال

---

(١) Karaka : History of the Parsis p. 144 vol . I

(٢) تعتبر الزردشتية ، دين الايرانيين القدماء ، الله مصدر الجلال والاشراق والضياء . والزردشتيون يتخذون من النار رمزاً للاله لما فيها من الاشراق والضياء ، ثم هى إلى جانب هذا طاهرة غير قابلة للفساد ومفيدة للانسان ولجميع ما فى الكون من الكائنات . ومن هنا وقرها الايرانيون الزردشتيون .

(٣) الألوسى : بلوغ الأرب جـ ١ ص ٣٦٤

بالعيدين الاسلاميين ، الفطر والأضحى إلى التنويه بشعائر الدين الجديد ، وليجعل من هذه الاحتفالات الاسلامية فرصة لذكر الله وعبادته وإظهار الطاعة له ، وليجمع لهم كذلك إلى متعة الاحتفال الدنيوية متعة العظة الروحية . ففى عيد الفطر يفرح المسلمون بما قدموه خلال شهر الصوم من ألوان الطاعة والعبادة ويحتفلون بانتهاء الصوم واستقبال الفطر احتفالا يجمع بين متعة الروح ومتعة البدن . وفى عيد الأضحى يتمثل المسلمون أيضا معانى الطاعة لله سبحانه ، والخضوع لمشيئته ، كما يتمثلون أيضا نعمة رضاء الله على من أطاعه من عباده حين يذكرون قصة ابراهيم عليه السلام يوم هم بذبح ولده اسماعيل وكيف أنعم الله عليهما بأن فداه بذبح عظيم . وإلى جانب هذه المعانى الدينية السامية التى يتمثلها المسلمون فى احتفالهم بعيد الاضحى ينعمون أيضا بما فى العيد من متع دنيوية . وهكذا ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام لم يشأ أن تمضى احتفالاتهم فى ظل دينهم الجديد دون أن تجمع العظة الدينية إلى جانب البهجة الدنيوية ، وأراد أن يتخذوا من أيام بهجتهم ومرحهم فرصة للافادة من دينهم وتمكين أمره بينهم حتى لاينفصل دينهم عن دنياهم وليذكروا دينهم عندما يحتفلون بشئون دنياهم وليذكروا دنياهم عندما يقبلون على أمور دينهم .

ومر عهد صدر الاسلام ولم يكن لهذا العيد ولا لغيره من أعياد الفرس القديمة شأن عند العرب فى المجتمع الاسلامى . وعندما احتفل بعض الدهاقين فى خلافة على بن أبى طالب بهذا العيد وقدموا اليه هدية مما صنعوه من الحلوى لم يكن رضى الله عنه يعرف شيئا عن مناسبة هذه الهدية فلما سأل قيل له إنه يوم نوروز . فقال مازحا متفكها نوروزنا كل يوم (١) .

وفى عهد الدولة الأموية بدأ الخليفة معاوية يهتم بهذا العيد لبعض العوامل الاقتصادية المرتبطة به . فقد مر بنا أنه كان من عادة الفرس القدماء

---

(١) القاموس المحيط : مادة نرز

أن يقدموا الهدايا إلى ملوكهم فى هذه المناسبة (١) وكانت هذه الهدايا تمثل جانبا مهما من مصادر دخل الملوك . ويظهر أن معاوية أراد أن يفيد من هذا العيد كما كان يفيد منه ملوك الفرس القدماء . وتروى المصادر التاريخية أن ما كان يحمل اليه من هدايا النوروز والمهرجان بلغ عشرة آلاف درهم (٢) .

أما عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه فقد رفض أن يقبل من المسلمين هذه الهدايا وكان يكتفى فى خراج النوروز بجمع الخراج وحده ويرفض ماعدا ذلك من الهدايا . ولاشك فى أنه كره أن ينال من مال المسلمين شيئا قد يكرهون على أدائه أو يحرجون بسببه .

إلا أن الخلفاء قد عادوا فقبلوا هذه الهدايا . وكانت هدية حسان النبطى إلى هشام بن عبد الملك من الكثرة والضخامة حتى أن هشاما نفسه استكثرها لنفسه وأمر أن تضم لبيت المال . وكان حسان قد أهدى إلى هشام وإلى أمهات أولاده هدايا كثيرة من الكساء والجوهر والعطر . وقد ذكر الجاحظ أن هذه الهدية لم يسمع بمثلها فى الاسلام (٣) .

وفى عهد الدولة العباسية زاد اهتمام الدولة والشعب بهذه الاحتفالات . ولم يكن الاحتفال به قاصراً على الخلفاء وحدهم بل إن الناس أيضاً تسابقوا إلى الاحتفال به ، وأحيوا فيه ماكان معروفا عند الفرس القدماء من عادات كعادة ايقاد النيران وعادة التهادى .

فكان الخليفة العباسى مثلا يتبادل الهدايا مع الشعب فى عيد النوروز . وكان يفرق عليهم هدايا مختلفة من صور مصنوعة من عنبر أو ورد أحمر أو غير ذلك من الهدايا (٤) .

---

(١) راجع ص ٤ من هذا البحث .
(٢) اليعقوبى : جـ ٢ ص ٢٥٩
(٣) الجاحظ والاضداد ص ٢٨٣
(٤) آدم متز : الحضارة الاسلامية : ص ٢١٤ جـ ٢ الترجمة العربية .

وكان الخليفة المتوكل يخرج فى احتفاله بالنوروز عن الحد الذى ينبغى لخليفة مثله أن يلزمه . فقد روى أنه كان يدعو اليه فى هذا اليوم أصحاب السماجات ويدنيهم من مجلسه ولا يتوقر معهم . وفى يوم نوروز دخل عليه إسحق فرآهم وقد جذبوا رداءه فعاد غاضباً ، ولاحظ المتوكل ذلك فأمر باستدعائه وسأله فى ذلك فقال له : « أتجلس فى مجلس يبتذلك فيه هؤلاء الكلاب حتى يجذبوا ذيلك ، وكل واحد منهم متنكر بصورة منكرة فما يؤمن أن يكون فيهم عدو فيثبت بك . فلئن كان يستقال هذا ولو أخليت الأرض منهم » فقال المتوكل : « ياأبا الحسين والله لا ترانى على مثلها أبدا » (١) .

ويذكر الطبرى فى حوادث سنة ٢٨٤ أن الخليفة المعتضد كان قد منع الناس فى أول الأمر من إيقاد النيران ليلة النوروز ، ومن صب الماء فى يومه ، وكلف المنادين ليعلنوا ذلك فى الأسواق ثم عاد ورجع عن رأيه وأطلق الحرية للناس فى صب الماء وإيقاد النيران ففعلت العامة من ذلك ماجاوز الحد وخرج على المألوف .

ولم يكن الاحتفال بعيد النوروز قاصراً على بغداد عاصمة العالم الاسلامى وحدها وإنما امتد إلى كل بقعة من بقاع العالم الاسلامى . ففى بخارى مثلا كان السامانيون (٢) يحيون هذا العيد بما عرفوه عن أسلافهم الفرس .

وفى سنة ٣٢٣ هـ احتفل مرداويج (٣) احتفالا عظيما بهذا العيد فأوقد

---

(١) آدم متز : الحضارة الاسلامية ص ٢١٤ جـ ٢

(٢) الدولة السامانية وهى من الدول الاسلامية الفارسية الأصل التى حكمت فى المشرق وكانت عاصمتها بخارى . (٢٦١ – ٣٨٩هـ / ٨٧٤ – ٩٩٩ م) .

(٣) مرداويج بن زيار مؤسس الدولة الزيارية فى طبرستان وجرجان . استولى أيضاً على اصفهان وهمذان . وكانت آماله كبيرة فى إحياء مجد الفرس وتحطيم الخلافة العباسية . وعندما ثار النزاع بينه وبين البريديين رأى أن يتخلص منهم أولا ثم يتجه بعد ذلك إلى بغداد للاستيلاء عليها . ولكنه قتل فى اصفهان سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م وهو يستعد للقاء آل بويه . استمرت دولته من ٣١٦ – ٤٣٤ هـ / ٩٢٨ – ١٠٤٢ م .

النيران ليلة النوروز على قمم الجبال وأطلق الطيور فى الجو وقد علق بأرجلها النفط وكان النفط يشتعل وهى تطير . وامتلأت السماء ليلتها بالنار المتطايرة فى كل مكان حتى بدد ضوء النيران ظلمة الليل . وفى يوم النوروز أقام وليمة ضخمة فى الصحراء . ويذكر ابن الاثير أن من جملة ماقدم فى تلك الوليمة مائتين من البقر مشوية صحاحا . وأما الغنم فبلغ ماشوى منها ثلاثة آلاف رأس . هذا عدا المطبوخ . وقد زاد عدد الدجاج وغيره من أنواع الطير التى قدمت فى تلك الوليمة على عشرة آلاف . أما ألوان الحلوى فقد جاوزت العد والحصر (١) .

وكان عبد الله بن طاهر (٢) ، يوزع ثيابه على الناس فى عيدى النوروز والمهرجان أسوة بما كان يفعله ملوك الفرس القدماء (٣) .

ويقدم لنا المافروخى الأصفهانى من علماء القرن الخامس للهجرة (٤) وصفا لعيد النوروز فى مدينة جى من نواحى أصفهان ، فيذكر أن أهالى أصفهان كانوا يخرجون كل سنة فى وقت النوروز إلى سوق تلك المدينة التى تسمى سوق جرين للتجارة واللهو واللعب لا فرق فى ذلك بين كبيرهم وصغيرهم حتى كانت تخص بجموعهم المدينة . وكان فناخسرو عضد الدولة(٥) ،

---

(١) ابن الأثير : حوادث سنة ٣٢٣

(٢) عبد الله بن طاهر ذى اليمينين قائد المأمون المشهور . من أصل فارسى ولاه المأمون على خراسان فى ٢٠٥ هـ/٨٢٠ م واستطاع بعد ذلك أن يستقل بحكم خراسان ويؤسس الدولة الطاهرية التى حكمت من ٢٠٥ هـ / ٢٥٩ هـ ، ٨٢٠ — ٨٧٢ م .

(٣) التاج : ص ١٥٠

(٤) هو مفضل بن سعد بن الحسين المافروخى الاصفهانى ينتهى نسبه إلى مافروخ بن بختيار جده وكان من الموالى العجم . ومافروخ مركبة من ماه فرخ أى القمر المبارك . ألف المافروخى كتابه محاسن اصفهان بين سنوات خمس وستين وخمس وثمانين وأربعمائة . وهو من معاصرى ألب أرسلان وملكشاه من سلاطين السلاجقة . وقد ترجم الكتاب إلى الفارسية محمد بن عبد الرضا الحسينى العلوى فى حدود سنة ثلاثين وستمائة بأمر الوزير غياث الدين محمد بن الوزير رشيد الدين فضل الله مؤلف كتاب جامع التواريخ .

(٥) من أمراء البويهيين فى فارس ٣٣٨ — ٣٧٢ /٩٤٩م — ٩٨٢ م .

يعجب فى صغره بتلك السوق وما يجرى فيها من الوان اللهو والمرح . فلما تولى الملك واستولى على فارس أمر أن يتخلوا خارج شيراز سوقا على نمط سوق جرين عرفت باسم سوق الأمير . وقد جذبت هذه السوق أهل شيراز وما حولها من البلدان واجتمع فيها خلق كثير من أهل اللهو والمجون . وكان الناس يقدمون اليها للبيع واللهو . وكان الأمير لرغبته فى الاستمتاع بما يجرى فى تلك السوق قد اتخذ لنفسه قصرا يشرف عليها فكان يجلس فى قصره مع ندمائه يشربون ويطربون ويستمتعون بما يشاهدونه من أحوال الناس فى تلك السوق (١) .

أما البيهقى (٢) ، فيقدم لنا صورة أخرى من الاحتفالات التى كانت تقام فى العالم الاسلامى احتفالا بيوم النوروز عام ٤٣١ هـ ، فيقول عن السلطان مسعود الغزنى (٣) ، انه فى يوم الخميس الثامن عشر من شهر جمادى الآخرة احتفل بعيد النوروز . وكان الناس قد قدموا اليه كثيرا من الهدايا . واحتفى السلطان بهذا العيد احتفالا عظيما ، وتقدم اليه الشعراء بقصائد المديح . وكانت السعادة تبدو على محياه إذ مر عليه الشتاء هادئا لم تقع فيه حوادث تشغل قلبه . وأمر للمطربين وللناس بالصلات . وانتهز

---

(١) محاسن أصفهان ، ص ٩٢ ط طهران .

(٢) هو أبو الفضل محمد بن حسين البيهقى . ولد فى سنة ٣٨٥ هـ/٩٩٥ م فى قرية حارث آباد من نواحى بيهق ، قضى صدر حياته فى تحصيل العلم بمدينة نيسابور ثم اتجه إلى بلاط السلطان محمود الغزنى حيث اشتغل بالكتابة فى ديوان الرسائل . وكتابه فى التاريخ معروف باسم تاريخ بيهقى ويتحدث فيها أساساً عن سلطنة السلطان مسعود الغزنى ، ولهذا يقال للكتاب أيضاً تاريخ مسعودى . ومات فى سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م .

(٣) السلطان مسعود الغزنى بن السلطان محمود الغزنى وخليفته . كان من الملوك الأكفاء والمقاتلين الشجعان الا أنه انهزم أمام طغرل زعيم السلاجقة فى المرقعة التى دارت بينهما فى فندانقان بين مرو وسرخس سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م ، وكان من أثر هذه الهزيمة التى أصابت مسعوداً انتزع منه السلاجقة خراسان وجميع الأقاليم الغربية التابعة للدولة الغزنوية . وقضت هذه الهزيمة على جميع آمال مسعود بل وعليه نفسه إذ قتل بعد ذلك سنة ٤٣٣ هـ ١٠٤١ م .

الناس هذه الفرصة وتشفعوا للشاعر مسعود (١) ، فقبل شفاعتهم ووصله بثلاثمائة دينار نقدا وألف دينار يتقاضاها كل شهر (٢).

ويذكر المقريزى أن المعز لدين الله منع الناس فى مصر سنة ثلاث وستين وثلاثمائة من وقود النيران ليلة النوروز ومن صب الماء فى يومه . والظاهر أن هذا المنع ضاعف من شوق الناس إلى هذا العبث لأنهم فى السنة التالية تمادوا فى ايقاد النيران وصب المياه وأتوا من السخافات ماجعل المعز يعود إلى تحذيرهم واستعمال الشدة معهم (٣) .

وكان للنوروز عند العامة فى مصر أمير يخرج فى هذا اليوم فى ملابس المهرجين بألوانها الفاقعة المتنافرة وقد طلى وجهه بالمساحيق والاصباغ وأحاط به جمع كبير من العوام . وكانوا يقطعون الطريق على المارة ويأخذون منهم الهبات فمن دفع لهم أخلوا سبيله ومن رفض ناله منهم مايكره من رش ملابسه بالماء القذر ، وافساد ثيابه والاستخفاف بقدره . وكانت الاسواق تعطل فى هذا اليوم إذ كان الناس ينطلقون على سجيتهم دون حياء أو قيود . وقلما انقضى هذا اليوم دون أن تقع حوادث يذهب ضحيتها بعض الناس .

---

(١) هو الشاعر مسعود سعد (٤٤٠ — ٥١٥ هـ) من مشاهير شعراء الفرس فى العصر الغزنى غضب عليه وسجن أكثر من مرة . وفى سنة ٥٠٠ هـ أطلق سراحه من السجن للمرة الثانية بعد أن قضى فى السجن ثمانى عشرة سنة . وقد أخطأ البيهقى حين قرن اسم السلطان مسعود بن محمود الغزنى باسم الشاعر مسعود سعد لأنه بينما توفى السلطان مسعود بن محمود الغزنى سنة ٤٣٣ هـ . ولد الشاعر مسعود سعد حوالى سنة ٤٤٠ هـ . هذا بالاضافة إلى أن البيهقى يتحدث عن حوادث سنة ٤٣١ هـ أى قبل مولد الشاعر فكيف اذن يعفو السلطان مسعود فى سنة ٤٣١ هـ عن شاعر لم يكن قد ولد بعد ؟ انما تتفق حياة الشاعر مسعود سعد مع حياة السلطان مسعود الثالث المعروف بعلاء الدولة والذى حكم من سنة ٤٩٢ — ٥٠٨ هـ / ١٠٩٩ — ١١٠٤ م ، فهذا التاريخ يتفق فى فترة منه مع حياة الشاعر (٤٤٠ — ٥١٥ هـ) .

(٢) تاريخ بيهقى : ص ٦١١ ط غنى وفياض ، تهران . والترجمة العربية للخشاب ونشأت ص ٦٧٣

(٣) المقريزى : الخطط : ص ٢٦٧ جـ ١ .

ويصف المقريزى ماكان يجرى بمصر فى هذه الاحتفالات خلال عيد النوروز فيذكر انهم فى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة استحدثوا عادة التراجم بالبيض والتصافع بالانطاع إلى جانب ماعرف من التراش بالماء .

فلما آل أمر الدولة فى مصر إلى الأمير برقوق (١) منع الناس من هذا العبث وهدد من خالف بالعقوبة فاضطر الناس إلى التزام الجادة فى القاهرة ، ومن أراد منهم أن يعبث خرج إلى البرك والمتنزهات . ولم تعد الاسواق تتعطل كما كان الأمر من قبل ، ولم تتوقف حركة البيع والشراء ، وأمن الناس على أنفسهم من الحوادث بعد أن كان يوم النوروز لايخلو من قتيل أو أكثر(٢) .

وفى ايران ظل الاحتفال بهذا العيد قائماً إلى أن شرع المغول يزحفون نحو ايران (٦١٨هـ/١٢٢١م) وقد قضى هؤلاء المغول على كل مظهر من مظاهر الحضارة . وعندما جاء العهد الصفوى (٣) ، وأصبح التشيع مذهب الدولة الرسمى بدأت الاحتفالات بإحياء الاعياد الفارسية القديمة .

---

(١) مؤسس دولة المماليك البرجية أو الشراكسة (٧٨٤ – ٨٠١ هـ/ ١٣٨٢ – ١٣٩٩ م)

(٢) الخطط : ص ٢٦٨ ج ١

(٣) تنسب الدولة الصفوية إلى الشيخ صفى الدين أحد علماء أردبيل وأتقيائها . ومن سلالة الشيخ صفى الدين ظهر اسماعيل الأول الذى يعتبر المؤسس الأول للدولة . واستطاع أن يقضى على أعدائه ويبسط رقعة دولته حتى امتدت من نهر جيحون الى الخليج الفارسى ومن أفغانستان حتى الفرات . واتخذ من تبريز عاصمة لدولته وجعل من التشيع مذهبا رسمياً لها . وكان التنافس بينه وبين جيرانه الأتراك العثمانيين ، واختلاف المذهب الذين بينهما سبباً للصراع الذى دار بينهما وانتهى بانتصار السلطان سليم فى موقعة جالدران . ولم تنقطع المناوشات بين الفريقين على الحدود التركية الايرانية وظلت أقاليم جورجيا وأرمينيا تنتقل فى أيدى المتنازعين . ويعد الشاه عباس (٩٨٥ هـ ١٥٧٧ م) (١٠٣٨ – ١٦٢٩ م) أعظم ملوك هذه الدولة . ويمتاز عهده بالانتصارات الحربية على الأتراك وبازدهار الفنون والآداب وبزيادة المشروعات العامة وبالتسامح مع الأجانب . وبعد أن استرد شاه عباس من الأتراك الأراضى الايرانية التى استولوا عليها فيما سبق اختار اصفهان عاصمة لبلاده . ومات شاه عباس بعد أن حكم البلاد ٤٣ سنة ولم يستطع خلفاؤه أن يحفظوا المملكة التى خلفها لهم شاه عباس . وكانت نهاية الدولة الصفوية على يد الأفغان الذين ثاروا عليها وأخذوا يستولون على المدن المهمة كهراة ، ومشهد حتى سقطت فى أيديهم العاصمة أصفهان نفسها وقد حكمت الدولة الصفوية من ٩٠٧ – ١١٤٨ هـ/ ١٥٠٢ – ١٧٣٦ م .

وفى العدد الخامس من نشرة وزارة الخارجية الايرانية الصادر فى فروردين ١٣٣٦ مقال مفصل للسيد / حميد نيرنورى عن احتفال الدولة الصفوية والقاجارية بعيد النوروز .

وكانت مراسم الاحتفال بالنوروز تبدأ فى القصر الملكى قبل حلول السنة الجديدة ببضع ساعات . وقبل أن يبدأ الاحتفال يصل الملك إلى قصر السلطنة بأصفهان . ويحضر قبله عدد من نسائه المقربات غارقات فى الحلى والجواهر . فاذا وصل الشاه كن فى استقباله وجلسن معه إلى المائدة الكبيرة فى قاعة الاحتفال . ولا توضع على المائدة أطعمة كثيرة . كل ما هنالك أقداح كبيرة ملئت ماء ، وقدر من الفاكهة المختلفة والخضر والحلوى المصنوعة من العسل (سوهان عسلى). ويقضى الشاه بين نسائه وقتا لطيفاً فى الحديث والضحك ثم يأمر فيدخل المطربون الخصوصيون وراقصات الحريم إلى القاعة ويأخذن فى الرقص على غناء المغنين .

وفى نفس هذا الوقت يكون كبير المنجمين فى السلطنة مع عدد من رجاله ينتظرون حلول السنة الجديدة فى احدى الحجرات بفناء القصر وقد حملوا آلاتهم واستعدوا لتعيين لحظة بدء السنة الجديدة ، فاذا حلت هذه اللحظة كلفوا بعض حجاب الملك أن يحملوا له البشرى بحلول السنة الجديدة ، وعند ذاك يعم الخبر القصر كله فتنطلق الجوارى مزغردات وترتفع إلى عنان السماء الألعاب النارية إعلانا بحلول السنة الجديدة ، وتنطلق المدافع المنصوبة على اسوار مدينة اصفهان ، وتأخذ فرقة الفنارة فى قرع طبولها فى ميدان المدينة ، وترتفع من كل ناحية فى المدينة الزغاريد وتفوح فى كل مكان رائحة البخور .

وفى اللحظة التى يعلن فيها بدء السنة الجديدة وتحول الشمس إلى برج الحمل يركز الشاه نظره على قدح الماء الكبير الذى وضع أمامه . ويفعل جميع الايرانيين هذا فى نفس اللحظة لانهم يعتقدون أن النظر إلى الماء لحظة بدء السنة يجلب السعادة وحسن الحظ فى السنة الجديدة (١) .

---

(١) لا يزال الايرانيون إلى اليوم يتفاءلون إذا سكب الماء عفوا على المائدة .

وكانت موائد العيد تمتد فى جميع بيوت الايرانيين مثقلة بألوان الخضر والفاكهة وأصناف الحلوى المختلفة . وكانت هذه الالوان من الخضر والفاكهة والحلوى مما تبدأ أسماؤها بحرف السين .

وبعد أن يدعو أفراد الأسرة الملكية بعض الدعوات يشربون قليلا من ذلك الماء ويتناولون قليلا مما وضع على المائدة من الخضراوات والفواكه . ثم ترفع هذه المائدة لتمد بعدها مائدة أخرى حافلة بألوان الشراب وصنوف المأكولات الفاخرة . ويقوم المطربون والراقصات بدورهم فى نشر البهجة والمرح فى هذا المجلس .

وبعد أن تبدأ السنة ينتقل الملك من مجلسه هذا إلى القاعة الكبرى التى هيئت خاصة للتشريفات الخاصة بهذا العيد . ويؤذن لرجال الدولة عند ذاك فى القدوم لتحية الملك ويبدأ الصدر الأعظم مع الأمراء والأهل المقربين للملك فى الدخول وتقديم التحية . ثم يدخل رئيس الحرس الملكى (قورجى باشى) وكبير الياوران (ايشيك أغاسى) وسائر أصحاب المناصب الرفيعة فى الدولة للتشرف بتهنئة الملك . وفى تلك القاعة تمد مائدة كبيرة يجلس عليها أولئك الذين ينالون شرف الحضور فى هذا الوقت . وعلى رأس هذه المائدة يوضع الشراب والكباب أحيانا وفى بعض الأوقات يوضع الشربات . ويشرب الحاضرون نخب الملك . وبعد هذا يقدم رئيس الخزانة الملكية (صندوقدار باشى) إلى الملك صحنا عليه أكياس ملونه مقفله ، ويرفع الملك من الصحن هذه الأكياس التى تحتوى على نقود فضية أو ذهبية سكت حديثاً ليقسمها بين الحاضرين . وعندما يتلقى الحاضرون هذه العيدية من الملك يُقبلونها ثم يدسونها فى جيوبهم . وبعد تفريق هذه العيدية على الحاضرين تعرض على الملك فى وجودهم الهدايا التى قدمت له فى العيد من رئيس الوزراء (صدر أعظم) ومن العظماء ومن جميع طبقات الناس . وهذه الهدايا تكون فى الغالب من المال أو من الحيوان كالخيل . فاذا كان من بين هذه الهدايا جوار فإنهم يدخلونهن من باب فيمرون فى صف أمام الحاضرين ويخرجن من باب آخر من أبواب القاعة . و الجوارى اللاتى يلقن بمقام

الملك يسلمن لكبير الخصيان (خواجه باشى) الذى يسير بهن إلى الحرم . وأما غيرهن فكان الملك يبهن لحضار مجلسه . وبعد أن ينتهى الحاضرون من مشاهدة الهدايا تسلم إلى رئيس الخزانة للاحتفاظ بها . وعند ذلك يعلو صوت الحاضرين بحمد الله الذى عمت بركته ونعمته .

وفى نفس هذا الوقت يأمر الشاه بذبح الماشية والأغنام فى الميدان المواجه للقصر الملكى وتوزيع لحومها على الفقراء والمحتاجين .

وفى هذا اليوم كان الناس يرتدون ملابسهم الجديدة ويتزاورون فى الصباح ويخرجون للنزهة فى المساء جماعات جماعات . ويعزف من يجيد منهم العزف على آلات الموسيقى التى يحملونها معهم . وهكذا تتردد فى جنبات الطرق فى ذلك اليوم الألحان الجميلة والأغانى العذبة وتبدوا المدينة كلها فى مرح وبهجة .

وفى اليوم التالى ، إذا كان الجو مناسباً والهواء جميلا ، يخرج الملك مع عدد من نسائه إلى الصيد . وكان متصيد الملك يمتد امتداد واسعاً على أطراف الغابات . وهناك يواصل احتفالاته بعيد النوروز .

ومن الهدايا التى تقدم للملك فى عيد النوروز نذكر الهدايا التى قدمها خان شيروان وفق الرسوم التى كان يعمل بها فى البلاط . وكانت هداياه فى احدى السنين قد فاقت ماجرت به العادة لأن خان شيروان كان مغضوبا عليه من أخيه الشاه بتهمة الخيانة فاراد أن يسترضيه بتلك الهدايا وكانت الهدايا فى تلك السنة تتألف من خيل مطهمة ، وابل محملة بأكياس الذهب والفضة ، وعلاوة على هذا ضمت الهدية مجموعة من الغلمان والجوارى الكرجيات الجميلات اللآتى اشتراهن الخان (خان شيروان) بعد بحث وتنقيب طويل فى مدينة شيروان . وقد خرجت قافلة الهدايا هذه من بوابة

المدينة مع التشريفات الزائدة وقام الخان بنفسه ، إعلانا لاحترامه وولائه للشاه ، بمصاحبة القافلة مسافة طويلة خارج مدينة شيروان .

وكان من عادة « فتحعليشاه » (١) . أن يخرج من المدينة فى عيد النوروز ويخرج فى ركابه الوزراء والاعيان والجند . وكان سرادق الملك الذى يوضع فيه عرشه يقام فى متسع من الأرض . وفيه تقدم اليه هدايا حكام البلاد والولايات . وكانوا يمضون أياما فى قصف ولهو . ومن جملة مظاهر اللهو والبهجة فى تلك الأيام سباق الخيل . وكانت خيل الملك هى الفائزة فى هذا السباق بطبيعة الحال . وكثيراً ماكان يمتد الاحتفال بهذا العيد أسبوعا ولكن المهم هو اليوم الأول . وفى هذا اليوم الأول يلبس الناس الملابس الجديدة ويتبادلون التهانى بالعيد ويتزاورون فى البيوت حيث تقدم لهم الحلوى التى صنعت خصيصا لهذا العيد .

وكان الايرانيون أيام الصفويين يعتبرون يوم « چهار شنبه سورى » من أشد أيام السنة نحساً ولهذا فهم يحاولون فى هذا اليوم الا يزاولوا عملا من الأعمال فهم يغلقون متاجرهم ولا يشغلون بقدر الامكان فى أى شأن من

---

(١) ثانى ملوك الأسرة القاجارية تولى الملك سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧م . وفى عهده ثارت المنازعات والحروب بين الايرانيين والروس مما فتح المجال لازدياد النفوذ الأوربى الانجليزى والفرنسى فى ايران بدعوى مساعدة الشاه فتحعليشاه ضد اعدائه الروس . وانتهى النزاع الايرانى الروسى بمعاهدة الصلح التى عقدت فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٢٨ م وعرفت باسم تركمان چائ . وقد تخلى الايرانيون بموجب هذه المعاهدة عن بعض أراضيهم كما دفعوا غرامة للروس قدرها ثمانية ملايين روبل .

كذلك ثارت الحروب بين الايرانيين والعثمانيين فى أيام فتحعليشاه . وانتصر الايرانيون فى وقائع عديدة إلى أن عقدت بين الطرفين معاهدة الصلح المعروفة باسم معاهدة أرضروم فى ١٩ من ذى القعدة سنة ١٢٣٨ هـ /١٨٢٢ م .

وكان ولى العهد عباس ميرزا هو الساعد الأيمن لأبيه فى كل تنرحاته وقائد جيوشه فى أغلب وقائعه . وكانت وفاته سنة ١٢٤٨ هـ/١٨٣٢ م صدمة كبرى على أبيه فتحعليشاه عجلت بنهايته فتوفى بعده بسنتين فى ١٢٥٠ هـ/١٨٣٤ م .

شئون المال . وبعضهم يذهب إلى النهر فيحمل معه من مائه ليرش أثاث البيت ليعيش فى أمان خلال السنة القادمة . وكانوا يتراشون بالماء لأنهم يعتقدون أن الانسان إذا ابتل تماما فى هذا اليوم عاش فى سعادة بقية العام .

وفى أيام « محمد شاه » (١) ، كان الناس يفدون إلى القصر لتحية والتهنئة بهذا العيد وكان الملك يأذن لهم إذنا عاما فيتدافعون ليشاهدوا الملك ، وكان القواد ورجال البلاط وحكام الولايات ، ليثبتوا اخلاصهم للملك ، يقدمون له أنفس الهدايا مما يمتلكون من الخيل والشيلان الكشميرية والملابس الثمينة وكل مايليق بمقام الملك . وفى هذا الاحتفال كان أقرب الناس إلى الملك الأمراء ثم كبار رجال المملكة ثم كبار الضباط ورجال البلاط . وموظفو الدولة والشعراء . وفى النهاية يأتى ممثلو العمال . ويبرز الملك على الناس متحليا بالجواهر الكريمة من الياقوت والماس واللؤلؤ وغيرها وتتحنى الهامات بمجرد ظهور الملك وتنثنى القامات للتحية أكثر من مرة ويتردد فى القاعة تحية الناس : السلام عليكم ... السلام عليكم ... وفى كل هذه الاثناء يبقى الملك صامتا ساكتاً ، فاذا انتهت مراسم التحية والتعظيمات تقدم الشعراء لانشاد الأشعار . وكان الناس يبالغون فى مدح الملك ويستخدمون من الاستعارات والأوصاف مايفوق التصور . وفى خلال هذا يصيحون من حين الى حين : عاش الملك ... عاش الملك .

وبعد أن يفرغ الشعراء من مدائحهم يتقدم رئيس الوزراء (صدر أعظم) فيحدث الملك عن حالة البلاد فى السنة التى انقضت حديثا قائما على المبالغة . وفى هذا الحديث يصور رئيس الوزراء للملك الحالة فى البلاد بصورة لايعتريها عيب ولا يشوبها أى نقص . ويتلخص حديث رئيس الوزراء

---

(١) هو محمد ميرزا بن عباس ميرزا بن فتحعليشاه . تولى الملك فى ١٢٥٠ هـ / ١٨٣٤ م بعد وفاة جده فتحعليشاه اذ كان أبوه عباس ميرزا قد توفى قبل ذلك فى حياة الجد كما مر فيما سبق . وعندما استتب له الأمر لقب « محمد شاه » . ومن أشهر الحوادث فى عهده ظهور الباب سنة ١٢٦٠ هـ / ١٨٤٤ م ، وانتشار البابية فى المجتمع وقد اعدم الباب بعد ذلك فى تبريز . وتوفى محمد شاه سنة ١٢٦٤ هـ/١٨٤٨ م .

فى أنه لم يكن فى الامكان أبدع مما كان . وفى نهاية الاحتفال ينثر الملك النقود على الموجودين وينعم على بعضهم انعامات مختلفة . وفى الليل تزدان الشوارع والبيوت بالمصابيح . ويتجمع المصارعون وأصحاب الألعاب المختلفة ليعرضوا ألعابهم فى ميدان القصر . وكان الملك يطل عليهم من شرفته من حين إلى حين وينثر بين الناس مبالغ من المال .

وفى عهد ناصر الدين شاه القاجارى (١) ، زادت الاحتفالات بهذا العيد أهمية وعظمة فكانت تقام ثلاثة احتفالات : الأول يعرف باحتفال التحويل . والثانى يعرف بالاحتفال العام والثالث يسمى احتفال سردر .

احتفال التحويل (سلام تحويل) : كانت الدعوات لحضور هذا الاحتفال يرسلها رئيس تشريفات البلاط إلى من لهم حق الحضور قبل الموعد بيوم واحد . وكان على المدعوين أن يحضروا قبل الموعد المحدد بساعة كاملة . وكان هذا الاحتفال يجرى فى القاعة الرسمية للاحتفالات (قاعة المتحف حاليا) . وكانت مائدة « هفت سين » الكبرى تمد فى هذه القاعة . وكانت هذه المائدة من الطول بحيث تصل جانبي القاعة وتبلغ عرش الملك المرصع فى صدر القاعة . وكان يشترك فى احتفال التحويل هذا خواص الدولة ورجال البلاط والأمراء والمستوفون ورؤساء القبائل القاجارية كما كان يشترك فيه أيضا علماء طهران الكبار . وكان يقف على أحد جانبي المائدة رؤساء الجيش فى ملابسهم المجللة وعلى رأسهم نائب السلطنة .

---

(١) ناصر الدين شاه بن محمد شاه تولى الملك بعد أبيه فى ١٢٦٤ هـ / ١٨٤٨ م فى حوالى الثامنة عشرة . وطالت مدة حكمه حتى قاربت ثمانيا وأربعين سنة . وكان واسع العلم والثقافة وقد أجاد إلى جانب اللغة الفارسية اللغة العربية والفرنسية وزار أوروبا أكثر من مرة . وله مذكرات سجل فيها مشاهداته فى تلك الزيارات . وقد حتى بارسال البعوث العلمية إلى فرنسا كما استقدم العلماء الفرنسيين لنشر الثقافة وترجمة روائع المؤلفات إلى اللغة الفارسية واصلاحاته الداخلية شملت كل ميدان كالتعليم بمختلف أنواعه ، والعمران بانشاء الطرق وتيسير المواصلات وتنظيم شئون البرق والبريد ، وبدأ فى تكوين أسطول بحرى وانشاء مصانع الذخيرة . وقد قتل هذا الملك فى أول مايو سنة ١٨٩٦ م .

وفى الجانب الآخر يصطف المستوفون فى ملابسهم التى كانت تتكون عادة من الشال والعمامة والجبة المقصبة والحذاء الطويل . وعلى رأسهم يتخذ مستوفى الممالك مكانه (١) .

وعلى طرفى العرش يصطف الأمراء القاجاريون وفى يد كل منهم نفائس الأسرة المالكة من سيف أو درع أو عمود رصع كل منها بأغلى الجواهر . وبالقرب من عرش الطاووس رئيس الوزراء فى جبته وعصاه ويقف الوزراء والأعيان بعده . أما العلماء والروحانيون فيقف كل منهم على جانب العرش وفق مكانته . ويتخذ كبير المنجمين مع اسطرلابه وآلاته مكانا مواجها للعرش . وبالقرب منه يقف خطيب الممالك . فاذا بقى على موعد التحويل (بدء السنة) ربع ساعة رفع الستارة الحاجب الموكل بها وأعلن فى صوت جهورى قدوم الملك إلى القاعة . وعند ذاك يسود الصمت ويؤدى كل واحد من الحاضرين مراسم الاحترام ويتقدم الملك إلى العرش وهو غارق فى الجواهر والأوسمة الملكية ثم يستقر على حافة العرش فوق وسادة نسجت من الذهب واللؤلؤ . وعند ذلك يخطب خطيب الممالك خطبة فى نعت النبى عليه الصلاة والسلام وعلى رضى الله عنه . وفى نهاية السنة يعلن بصوت جهورى رئيس المنجمين الذى لم تفارق عينه عقارب الساعة تحول الشمس إلى برج الحمل . ويرتفع عند ذلك النفير عالياً ويصل إلى أسماع رجال المدفعية الذين يطلقون مدافعهم ايذانا بالتحويل .

وعقب اعلان التحويل يهنىء رجال الدين أولا الملك ناصر الدين شاه ثم يهنئه بقية الحاضرين . ويتلى بعض القرآن الكريم تيمنا وتبركا . ثم يشرب الملك ماء خلطوه من قبل بتراب قبر الحسين ويوزع على الحاضرين العيدية أكياسا حمراء من النقود . وفى هذه الأكياس قطع قليلة من النقود الفضية والذهب تقدم لهم باعتبارها عيدية رمزية . وكان يبدأ بالعلماء فى توزيع هذه العيدية . وإذا خرج العلماء والروحانيون أخذت الموسيقى فى العزف (٢) .

---

(١) المستوفى فى الوقت الحاضر أشبه بالمحافظ .

(٢) يتأخر عزف الموسيقى بعد خروج العلماء ورجال الدين توقيراً لهم .

وفى هذا الوقت يقدم الملك العيدية لبقية الموجودين وكانت هذه العيدية تختلف باختلاف مرتبة الحاضرين ويستمر هذا المجلس أربع ساعات ثم يتجه الملك بعد ذلك من قاعة العرش إلى الجزء الخاص من القصر فى الداخل.

الاحتفال العام : وبعد يوم من اعلان التحويل يقام الاحتفال العام فى عرش المرمر . وفى هذا اليوم بعد أن يعود الملك من الحريم يجلس فى حجرة صغيرة بجانب القاعة الماسية . ويعلن رئيس التشريفات حضور السفراء الأجانب إلى القاعة للتشرف بمقابلة الملك . وعندما يدخل الملك يواجه السفير العثمانى ويسأله عن أحوال السلطان وعن حاله أيضا . ثم يجيء السفراء واحدا واحدا ويقدم لهم العيدية التى يتقبلونها بنهاية الأدب . وفى هذا اليوم من أيام الاحتفال كان الأمراء يحملون نفائس السلطنة . وكان مستوفى الممالك يقف على الجانب الأيسر من العرش ومن ورائه يصطف سائر المستوفين . وعلى يمين العرش يقف نائب السلطنة ووزير الحرب وقادة الجيش بترتيب درجاتهم .

وعندما يستقر الجميع فى أماكنهم يعلن كبير الياوران دخول الملك . ويدخل الملك من باب الديوان يحف به الجلال والعظمة ويجلس على الكرسى المرصع الذى وضع على سطح هذا التخت المرمرى . ويعلن كبير الياوران بداية الاحتفال فيعزف الموسيقى وتنطلق أصوات المدفع وطبول النقارة . وعندما تنتهى الموسيقى يتقدم شمس الشعراء لينشد قصيدة فى التهنئة بالنوروز ومدح الملك ويعقبه خطيب الممالك بخطبة فى هذه المعانى . وبعد ذلك تنتهى مراسم الاحتفال .

احتفال سردر : والغرض من هذا الاحتفال هو الفرح والبهجة وكان يسمح للجمهور بحضور هذا الاحتفال الذى يقام فى الميدان الذى يقع فيه باب «سردر» الباب الرئيسى للقصر وفى هذا الاحتفال لايحضر المستوفون ورجال الجيش . ويقتصر حضوره على الملك مع عدد من خواصه ونسائه . وفى هذا اليوم كانوا يحضرون مصارعى الكباش والمهرجين والمغنين

وأصحاب القرود (القرداتية) ، ولاعبي السرك (بندباز) الذين كانوا يعلنون أنفسهم طول العام ليعرضوا ألعابهم البهلوانية فى هذا اليوم أمام الملك . وكانوا يتجمعون فى الميدان المقابل لباب (سردر) ويعرضون ألعابهم وينالون العطايا . ومن المهرجين الذين عرفوا فى البلاط كريم شيره أى واسماعيل بزاز ؛ وكان هؤلاء المهرجون يضحكون الملك والناس . وبعد ذلك كانت تجرى مصارعة الكباش والديوك . وكان الناس يتراهنون على الفائز فى هذه المباريات من من الكباش والديوك كما يتراهنون اليوم فى سباق الخيل . ويعرض لاعبو السرك ألعابهم الأكروباتية . ومن العادات الأخرى فى هذا اليوم انتخاب مصارع الملك . وكانت المصارعات تجرى فى حضرة الملك ويعطى الفائز شارة خاصة يضعها على عضده (بازوبند) (١) ؛ وصاحب البطولة (مهر بهلوانى) .

ولايزال أغلب هذه العادات مما يعمل به فى الوقت الحاضر وإن كان قد نالها بعض التغير الذى يتناسب مع تطور الزمن .

وفى الوقت الحاضر تعطل الدوائر الحكومية رسمياً خمسة أيام وإن كانت الاحتفالات الشعبية بهذا العيد تمتد إلى اليوم الثالث عشر . وفى اليوم الأول من شهر فروردين يحضر جميع الأمراء والوزراء والسفراء ورجال الدولة والدين ورؤساء النقابات والضباط الكبار منذ الثامنة صباحاً ليقدموا تهانئهم للملك بالعيد السعيد فى قاعة المتحف (تالار موزه) بقصر كلستان .

وفى وقتنا الحاضر يبدأ الاستعداد لعيد النوروز من ليلة الأربعاء السابق على العيد وتنتهى الاحتفالات فى اليوم الثالث عشر .

وتبدأ هذه الاحتفالات فى ليلة الأربعاء السابق على العيد باقامة وليمة تعرف عندهم باسم «چهار شنبه سورى» . وقد ترك الايرانيون فى الوقت الحاضر عادة رش الماء كما تركوا عادة ايقاد النيران ليلة النوروز

---

(١) يربط الملك على عضد المصارع الأيمن هذا القيد من الذهب (بازوبند) مكافأة له .

اكتفاء بإيقادها ليلة الاربعاء الأخير قبل العيد . ويقفز أهل البيت فوق هذه النيران وهم يهللون فرحين لاعتقادهم أن هذه النيران تزيل السقم وتذهب العلل وتكسب البشرة اللون الأحمر وهم في خلال هذا يخاطبون النار ويطلبون منها أن تعطيهم حمرتها وتأخذ صفرتهم .

ولايزال أهالى بعض نواحى كردستان يتبعون إلى اليوم العادة القديمة باشعال النار ليلة عيد النوروز .

وفى ليلة العيد يقف الناس على رأس الطرق ويتفاءلون بأول مايسمعونه من عابرى الطريق . وللفتيات اهتمام شديد بهذه العادة ، عادة التسمع لمعرفة الفأل (فال كوش) . وطريقتهن فى هذا أن يتخفين وراء باب المنزل عقب الغروب ويرهفن اسماعهن لما يقوله أول عابر فى الطريق .

وتقوم الأسرة الايرانية بجملة استعدادات لاستقبال عيد النوروز ، فهى أولا تبدأ بتنظيف البيت والأثاث وتهيئته على أحسن وجه .

وتهتم الأسرة الايرانية اهتماما شديداً بصنع الحلوى لهذا العيد ، وتتفنن محال الحلوى فى صناعتها وعرضها . وتزدحم هذه المحال ازدحاما شديداً كلما اقترب موعد النوروز . وتشتهر كل مدينة من مدن ايران بنوع معين من الحلوى . ومن أشهر المدن الايرانية التى عرفت بصناعة الحلوى مدينة يزد واصفهان وكرمانشاه . وحدثنى صديقى الأستاذ محمد غفرانى أنهم فى مدن خراسان وقراها يصنعون فى النوروز نوعاً من الحلوى يسمى «كلوجه نوروزى» وهو يشبه كعك عيد الفطر عند المصريين ويصنع من العجين والسكر ويسوى فى الفرن .

وقبل حلول النوروز بخمسة عشر يوماً تهتم الأسرة بإنبات العدس أو القمح أو الشعير (١) وترش ربة البيت هذه الحبوب بالماء وتضعها

---

(١) راجع هذه العادة عند الايرانيين القدماء ص ٧ من البحث .

فى صحن أو صينية وتعرضها لحرارة الشمس حتى تنبت . وتحتل أوعية هذه النباتات مكانا هاما فى مائدة « هفت سين » التى سيرد الحديث عنها .

وتكتمل بهجة هذا العيد بما يشتريه رب الأسرة لأفرادها من الملابس . ويتعلق الأطفال بهذه الملابس تعلقاً شديداً . وإذا لم تقدم لهم فقد العيد بهجته فى نظرهم وأخذوا يرددون فى مثل هذه الحالة :

عيــد آمد وما قبــا نداريم

با كهنــــه قبا صفــا نداريم

أى أن العيد أقبل وليس لدينا ملبس جديد فكيف نبتهج بالعيد فى هذا الرداء القديم . وكذلك ينال أفراد الأسرة عيديتهم فى هذه المناسبة . وكانت هذه العيدية تقدم فيما مضى فى صورة نقود من ذهب أو فضة سكت فى نفس العام [1] ، واليوم تستخدم أوراق البنكنوت الجديدة التى يصدرها البنك فى هذه المناسبة . وهناك بعض الناس يقدمون لأطفالهم بدل العيدية الهدايا واللعب والعرائس .

وقد جد بين الايرانيين فى الوقت الحاضر عادة ارسال بطاقات التهنئة ، وأخذ هذا التقليد ينتشر فى جميع طبقات المجتمع الايرانى .

أما مائدة «هفت سين» أو السينات السبعة التى أشرنا اليها فيما سبق فهى تقليد رئيسى من تقاليد هذا العيد . وتتضمن هذه المائدة ألوانا من الأطعمة تبدأ أسماء سبعة منها بحرف السين . ويوضع على المائدة عدد من الشموع بعدد أطفال الأسرة . ويجب أن تكون هذه الشموع مضيئة ساعة التحويل . ويجب عند حلول التحويل وبدء السنة الجديدة أن يفتتح المجلس بتلاوة سبع من آى القرآن المجيد . ويستحسن بعض الناس أن يقبض فى يده

---

(١) راجع ص ٥ من البحث .

ساعة التحويل على قدر من الأرز أو الشعير أو الذهب أو الفضة مردداً الدعاء المعروف « يامقلب القلوب والابصار ... »

ومما يراعى فى مائدة « هفت سين » أن يكون فيها بعض أنواع الورود والبيض الملون . وتقوم الأم بسلق البيض وتلوينه وتقدم منه بقدر عدد أولادها .

وعادة تلوين البيض فى مائده «هفت سين» عادة قديمة معروفة عند الايرانيين . وكان الناس أيام الأسرة الصفوية يتهادون البيض الملون . وكان الملك يبعث إلى حريمه بهذا البيض . وكانوا يتخذون من قشرة البيضة ميدانا لفن النقش والزخرفة وصناعة المنمنمات . وقد عرف عن الإيرانيين منذ القدم أنهم كانوا يتهادون بالبيض لاعتقادهم أن البيضة منشأ كل الموجودات .

وعلاوة على البيض كانت هناك الحلوى على المائدة . وكان من عادتهم أن يضعوا أناء مملوءا بالماء أسقطت فيه بعض أنواع النارنج الخضراء وبعض ماء الورد وسمكة حية أو ميتة . وكانوا يفعلون هذا على أمل أن تظل مائدة هذه الأسرة ممدودة طول العام عامرة بما لذ وطاب من أنواع الطعام . ومن صنوف الطعام التى انتقلت إلى الايرانيين من الزمن القديم أن يكون على المائدة الحليب أو الجبن الطازج .

ومما تحفل به مائدتهم فى الليلة الأولى للسنة الجديدة طبق الأرز بالشعرية . وفى الليلة الأولى والثانية يتخذ طبق الأرز المخلوط بالسمك والخضروات (سبزى پلوماهى) مكانه على الموائد لأن السمك فى عرفهم أصل من أصول الخير والبركة .

وفى الأيام الأولى من العيد يأكلون من اللحوم السمك ولحم الطير .

ولاينبغى أن ينطفىء شمع المائدة بل يجب أن تظل الشمعات متقدة حتى تحترق عن آخرها .

ويعتقد بعض الايرانيين أنه إذا تصادف حلول يوم السبت فى فترة عيد النوروز كانت السنة خيراً وبركة على الجميع . وإذا مر عام بخير على الايرانيين قالوا أن السبت وقع فى أيام النوروز .

وفى نهاية التحويل تنطلق المدافع ويزف الراديو البشرى للجميع . ويتبادل أفراد الأسرة التهانى فيما بينهم ويقبل الكبار منهم الصغار الذين يتوددون فى هذه اللحظة للكبار بتقبيل الأيدى تمهيداً لطلب العيدية . ومن عادتهم فى هذا المقام أن يذيبوا قدراً من تراب قبر الحسين فى بعض الماء ويرشفون منه رشفة تيمنا وتبركا . ثم توزع الحلوى على أفراد الأسرة وتعم الفرحة الجميع .

أما اليوم الثالث عشر من أيام العيد المعروف عندهم باسم (سيزده بدر) فيعتبرونه يوم نحس . والواجب فى رأيهم أن يخرجوا فى هذا اليوم إلى الصحارى وضفاف الأنهار والمروج ليقضوا اليوم خارج البيت فى لهو وحبور . ومن الشرأن يلزم المرء بيته فى هذا اليوم . وفى اعتقادهم أن كل طفل يولد فى هذا اليوم يلازمه فى حياته سوء الحظ وأن كل امرأة يعقد عقدها فى هذا اليوم لاتسعد فى حياتها الزوجية (١) .

ولايبدى أهل السنة من الايرانيين فى الوقت الحاضر اهتماماً بالغاً بعيد النوروز على عكس الشيعة الذين لايكتفون باعتباره عيداً قومياً بل يحاولون أن يصبغوه بالصبغة الدينية ويروون احاديث فى هذا الصدد عن جعفر بن محمد الصادق وغيره من أئمة الشيعة .

---

(١) ذكر لى الأستاذ محمد غفرانى أغنية شعبية ترددها الفتيات عندما ينتهى اليوم الثالث من النوروز . تقول الأغنية :

سيزده بسدر جهارده بـــو ماكه كو ماكه كو
سال دكر خانه شوهره بغـــل ماكه كو ماكه كو

ومعناها أن اليوم الثالث عشر قد انقضى وأقبل الرابع عشر وفى العام القادم أحتضن طفلى فى بيت زوجى .

النوروز والتوقيت :

كانت المحاصيل تنضج فى بلاد الفرس والنوروز ، ولهذا كان من عادة ملوكهم القدماء أن يجمعوا الخراج فى يوم النوروز . وكانت السنة عندهم ٣٦٥ يوماً . وكان كل شهر ثلاثين يوماً . وتبدأ شهورها بشهر فروردين وتنتهى بشهر سپندارمذ . وفى نهاية كل ٣٦٠ يوما كانوا يضيفون خمسة أيام يسمونها الخمسة المسترقة فيصبح بذلك عدد أيام السنة ٣٦٥ يوماً . هذا التوقيت يقل عن السنة الشمسية الواقعية بما يقرب من ست ساعات . وكانوا يعالجون هذا الأمر بكبس السنة شهراً كاملا فى كل مائة وعشرين سنة (١) . وكان من الممكن أن يضيفوا يوماً واحداً كل أربع سنوات كما يفعل الأوربيون فى تقويمهم ولكنهم لم يفعلوا ذلك لأن اضافة يوم كل أربع سنوات يخل بترتيب أيام الشهر ومواقعها لأنهم — كما ذكرنا فيما سبق — لم يعرفوا تقسيم الشهر إلى أسابيع . ولهذا كانوا يسمون كل يوم من أيام الشهر باسم خاص لايتكرر فى الشهر الواحد . وتوجه الديانة الزردشتية اتباعها إلى الأعمال التى ينبغى أن يؤدوها فى كل يوم من هذه الأيام (٢) . فاذا أضيف يوم إلى السنة كل أربع سنوات

---

(١) ست ساعات فى كل سنة إذا ضربت فى مائة وعشرين بلغت ثلاثين يوماً .

(٢) اليوم الأول من الشهر هو يوم «أهورامزدا» وأنسب ما يؤديه فيه المرء عبادة الخالق ودراسة الدين ومزاولة الأعمال التى لها صلة بالدين كالزواج ، وفعل الخير ، ويحسن فى هذا اليوم الانتقال إلى المساكن الجديدة ، أو انشاء البساتين ، والاحتفال بالمناسبات السعيدة .

واليوم الثانى من الشهر وهو «بهمن» أنسب الأيام لبحث المسائل المهمة وعقد مجالس الملوك ومشاورة القواد والحكماء .

واليوم الثالث من الشهر هو (اردى بهشت) وفيه ينبغى توثيق صلات المودة مع الناس وعقد الصلح ، وتحضير العقاقير وتناولها ، ومسالمة السادة والحكام والملوك .

واليوم الرابع (شهر يور) أنسب يوم عند الملوك إذا أرادوا تعيين كبار الموظفين والرؤساء والوزراء وغيرهم . وهذه التعيينات يصاحبها التوفيق إذا تمت فى هذا اليوم . والاحسان إلى الناس واجب فى هذا اليوم .

واليوم الخامس «سپندارمذ» تحسن فيه خطبة النساء والدخول بهن ، وسكنى المنازل الجديدة والقيام بالمشروعات الزراعية .

اثار أمامهم مشاكل ، أين يضعونه فى الشهر ؟ وبماذا يسمونه ؟ وأى عمل من الأعمال يحسن أن يؤدوه فيه ؟ ولهذا كانوا يؤجلون الكبس حتى

واليوم السادس « خورداد » يناسب كل عمل من شأنه اصلاح الجسد أو تزيينه . ويحسن فى هذا اليوم بناء الفانوراك أو حفر الآبار وتمهيد الطرق ، وجمع المحصولات . وتظهر بركة هذا اليوم فى كل عمل يراد به مساعدة ذوى القربى .

اليوم السابع : « امرداد » وهو آخر أيام الأسبوع الأول . ويتخذ راحة البدن والروح .

اليوم الثامن : « ديادار » وفيه يجب على الناس أن يتفقهوا فى شئون دينهم ، وأن يوزعوا الهبات .

اليوم التاسع : « آذر » وفيه يكون الاحسان إلى الضعفاء والعجزة وايقام الصلاة ، وتقديم الهدايا لمعابد النار .

اليوم العاشر : « آبان » هو اليوم الرئيسى فى الشهر للقيام بالأعمال النافعة للزراعة .

اليوم الحادى عشر : « خور » وفيه ينبغى أن يؤدى كل أمر جميد .

اليوم الثانى عشر : « ماه » يوم الصلوات وترتيل الدعوات ، ويكره فيه الاشتغال بشئون الدنيا .

اليوم الثالث عشر : « تير » ويحسن فيه أن ينضم الانسان إلى أحد المعاهد ليتعلم فروع العلم المختلفة .

اليوم الرابع عشر : « گوش » آخر أيام الأسبوع الثانى من الشهر وفيه يستعرض الايرانى ما عمله خلال الأسبوع ليحاول أن يكثر من الخير . وفى هذا اليوم يجب أن يريح الانسان الماشية من العمل وألا يقرب لحمها وإن جاز له أن ينتفع بلبنها .

اليوم الخامس عشر : « دبمهر » للاعمال المتصلة بشئون الدين .

اليوم السادس عشر : « مهر » وفيه يقوى الانسان أواصر المحبة مع غيره من الناس ، يرعى المذنبين ليسير لهم حياة كريمة فى المستقبل ، ويعفو عن المجرمين ، ويشتغل بأعمال الخير والبر .

اليوم السابع عشر : « سروش » ويحتم على الزردشتى فى هذا اليوم أن يتطهر من الآثام ويبتعد عن الخطيئة . ونظافة البدن مستحبة فى هذا اليوم .

اليوم الثامن عشر : « شن » يطلب فيه من الزردشتى أن يتوخى الصدق والحق والعدل وأن يجتنب الزيف فى القول ، والكذب فى الوعد ، والحنث فى القسم .

اليوم التاسع عشر : « فروردين » وتغلب الناحية الدينية على الأعمال التى تؤدى فيه .

اليوم العشرون : « بهرام » ويحسن فى هذا اليوم القتال أو الصيد .

اليوم الحادى والعشرون : « ارام » وهو يوم فرح وسرور وارتداء الجديد من الثياب .

يبلغ التكبيس شهراً كاملا كل مائة وعشرين سنة ينطبق عليه كل ما ينطبق على بقية الأشهر من حيث أسماء أيامه وترتيبها والأعمال التي تزاول في كل يوم منها .

وظل الفرس القدماء يعملون بهذا النظام يكبسون كل مائة وعشرين سنة . وفي نهاية عهد الدولة الساسانية حل موعد الكبس أيام كسرى پرويز (٥٩٠ — ٦٢٨م) ولكنهم أهملوه لسبب غير مفهوم . ولم يتدارك من جاء بعد ذلك هذا الأهمال . وقضى على الدولة الساسانية وانتشر الاسلام ولم ينتبه أحد إلى تصحيح الوضع . وكان النوروز خلال هذه المدة يتقدم عن موعده سنة بعد سنة حتى إذا جاءت خلافة المتوكل حل النوروز متقدماً عن موعده فترة طويلة وكان الزرع لايزال أخضر والنباتات لم تثمر . وأثار هذا مشكلة أمام الدولة العباسية نذكرها فيما بعد إذ كيف تجمع الدولة الخراج من الناس الذين لم يجنوا ثمراً ولم يجمعوا محصولا بعد.

اليوم الثاني والعشرون : « وانا » يخصص للراحة ، وصحبة أهل الخير والتقى ، والاقتداء بهم .

اليوم الثالث والعشرون : « دبدين » من واجب الزردشتي في هذا اليوم نشر الدين بين الناس وتشجيعهم على فعل الخير وتنفيرهم من ارتكاب الشر .

اليوم الرابع والعشرون : « دين » مما يجمل بالمرء أن يفعله في هذا اليوم نشر الثقافة الدينية ، ويصلح فيه اعداد معدات الزواج ، وخطبة النساء .

اليوم الخامس والعشرون : « أرد » هو يوم رعاية الفقراء .

اليوم السادس والعشرون : « أستاد » وفيه يثاب المحسن ويعاقب المسيء . والامتناع عن القتال والشجار . والبيع والتجارة مما ينصح به الزردشتية في هذا اليوم .

اليوم السابع والعشرون : « أسمان » يحسن فيه القيام بكافة الأعمال النافعة كالعبادة والتجارة

اليوم الثامن والعشرون : « زامياد » ويقبض فيه البذر والغرس والحرث .

اليوم التاسع والعشرون : « مهر سپند » ويصلح فيه التعلم والعلاج وكل عمل يؤدي إلى صفاء الروح وسلامة الجسد .

اليوم الثلاثون : « انران » هو آخر أيام الشهر وفيه يستعرض المرء أعماله خلال الشهر . ويبدأ الايرانى هذا اليوم باعطاء الفقراء وتقديم النذور للآلهة . وفيه يتطهر الناس ويتجملون بخير ما لديهم من الثياب ، ويفطرون كل ما فيه متعة ومسرة للبدن والروح .

وكان الفرس يقيمون للحصاد عيداً يوافق عندهم أول أيام سنتهم الشمسية وهو يوم النوروز الذى كان يقع وقتذاك فى الحادى والعشرين من شهر يونيو أى فى بداية الصيف . ولكنه بعد ذلك قدم فجعل فى الحادى والعشرين من شهر مارس أى فى الاعتدال الربيعى عندما يتعادل الليل والنهار. وكان الموعد الجديد يحتفل به فى بعض المناطق من الامبراطورية الفارسية بينما بقى الاحتفال باليوم القديم قائما فى مناطق أخرى . وكما كان يحتفل بكلا الموعدين كذلك كان يعد كل منهما موعداً مناسباً لدفع الخراج (١) .

وكان كثير من ملوك الفرس يرفقون بالزراع عند جمع الخراج إذا أصابهم خسارة فى زرعهم أوثمرهم . وكان قضاة المناطق يبلغون الحكومة المركزية عن الاراضى التى أصيب زرعها أو تلف ثمرها ، وتقوم الحكومة بابلاغ المحصلين ليعفوا أصحابها من أداء المال المقرر (٢).

وكان من عادة كثير من الملوك إذا ولوا الملك أن يعفوا رعاياهم مما يكون متأخراً عليهم من الأموال تأليفاً لقلوبهم ، كما كان بعضهم يخفف الخراج على الناس وخاصة فى سنى القحط . وعندما طالت المجاعة على الناس فى زمن فيروز بن يزد جرد بن بهرام جور أسقط الملك عن الناس خراج الأرض (٣) .

ولم يكن الخراج وحده هو الذى يؤدى فى عيد النوروز فهناك الهدايا التى كانت تؤخذ من الناس جبراً (٤) .

---

(١) Legacy of Persia p. 65

(٢) كريستنسن : ايران فى عهد الساسانيين . الترجمة الفارسية لرشيد ياسمى ص ٢٥٨ والعربية للخشاب ص ٣٥٢

(٣) شاهنامه : ٨ — ٢٢٦٨

(٤) كريستنسن : الترجمة الفارسية ص ٧٦ والعربية ص ١١٣

وقد عرف عن الساسانيين نظام التفتيش . وكان المفتشون ينتشرون فى انحاء المملكة ليتفقدوا حال الزرع فاذا وجدوا الماء قد شح فى مكان أو الزرع قد جف أعفوا الزراع من الخراج وقدموا اليهم المساعدات اللازمة (١) .

وفى العهود الاسلامية كان العمل فى الدواوين يسير وفق الأنظمة التى نقلها العرب عن الفرس . وكان الطابع الفارسى غالباً على الشئون المالية فى المجتمع الاسلامى ، فكانت النقود الفارسية هى المتداولة حتى أيام عبد الملك بن مروان الذى غيرها بدنانير اسلامية . وبدأ عبد الملك بضرب لدراهم سنة ست وسبعين ثم أمر بعد ذلك بضرب الدنانير (٢) .

وعندما دون عمر بن الخطاب رضى الله عنه الدواوين احتذى حذو الفرس بناء على نصيحة بعض مرازبة الفرس له (٣) . وظلت الفارسية لغة الدواوين فى المشرق حتى عربت فى أيام الحجاج . والذى نقل الديوان من الفارسية إلى العربية صالح بن عبد الرحمن مولى بنى تميم ، وقد تتلمذ صالح فى الديوان على استاذه الفارسى زادا نفروخ . وعندما ترامى إلى الفرس خبر نقل الديوان إلى العربية سعوا إلى صالح وأغروه بمائة الف درهم ليتظاهر بالعجز عن نقله إلى العربية وينصرف عن هذا العمل ، ولكنه لم يضعف أمام إغرائهم وقام بنقله فعلا (٤) .

وإذا كانت لغة الديوان قد نقلت إلى العربية فان أسلوب العمل فيه استمر فارسيا وبقيت فى اللغة إلى فترة طويلة تلك الاصطلاحات الفارسية دليلا على هذا (٥) .

---

(١) شاهنامه : ٧ — ١٩٨٧

(٢) الأخبار الطوال : ٣٠٦

(٣) ابن طباطبا : الفخرى : ٧٥ ط المعارف .

(٤) ابن النديم : الفهرست ٣٣٨ ط مصر .

(٥) من هذه الاصطلاحات مثلا كلمة ديوان بمعنى شياطين أو مجانين جمع ديو . وفى سبب هذه التسمية يقال أن أحد ملوك الفرس دخل على موظفى الحسابات فوجدهم يحركون شفاههم

وظل العمل بموعد جمع الخراج فى العهود الاسلامية كما كان فى عهد الفرس أى فى أيام النوروز إلا أن المسلمين أهملوا الكبس الذى كان يعمل به الفرس . والحقيقة ان هذا الاهمال بدأ من الفرس أنفسهم فى أواخر عهد الدولة الساسانية أيام كسرى برويز كما أشرنا من قبل ثم انقضت أيام الساسانيين وأتى العهد الاسلامى دون أن يهتم أحد بتدارك هذا الاهمال الذى وقع منذ أيام كسرى برويز مما أدى إلى تقدم النوروز عن موعده فترة طويلة . وعندما استأذن عبيد الله بن يحيى الخليفة المتوكل فى فتح الخراج كان الزرع لايزال أخضر ولايصلح للحصاد ومن ثم فان الزراع لايستطيعون أن يدفعوا الخراج . وكثرت شكاياتهم من فتح الخراج فى غير موسم الحصاد فاضطر الخليفة المتوكل إلى أن يتقصى الأمر فأحضر الموبد وسأله عن سر اختلال الأمر عما كان عليه أيام الفرس وطلب منه أن يشرح له كيف كان الفرس يفتتحون الخراج على الرعية فى مثل هذا الوقت الذى لم تنضج فيه المحاصيل ، فأخذ الموبد يشرح له الأمر ويبين الأسباب التى أدت إلى اختلال موعد الحصاد زمن المتوكل وينبهه إلى ما كانت الفرس تفعله من الكبس ، وكيف كان يتم هذا الكبس ثم ماجرى بعد ذلك من تعطيل الكبس فى الاسلام حتى أضر تعطيله بمصالح الناس مما دعا الدهاقين إلى أن يجتمعوا عند خالد القسرى على عهد هشام بن عبد الملك ويطلبوا منه أن يؤخر النوروز شهراً فأبى ورفع الأمر بعد ذلك إلى هشام الذى أبى بدوره أن يجيبهم إلى طلبهم خوفا من أن يكون هذا

عند امراء السليات الحسانية فأطلق عليهم هذا اللفظ (ديوان) ثم أطلق بعد ذلك على مكان اجتماع الموظفين .

ومنها أيضاً كلمة طسوج معرب تسو وهو ربع الدانق والطسوج أيضاً الناحية معرب تاسو .

ومنها كلمة سفتجة بفتح السين وضمها وهى الحوالة المالية ، وكلمة دانق معرب دانك وهو ربع الدرهم ، كلمة كستبزود من كاست وتزود بمعنى النقص والزيادة .

التأخير مما ينطبق عليه قوله تعالى « انما النسيء زيادة فى الكفر » (١) وعاد الدهاقين يكررون مساعيهم زمن الرشيد وطلبوا من يحيي بن خالد بن برمك أن يؤخر النوروز شهرين حتى يعود الأمر كما كان أيام الفرس . وهم

---

(١) لم يكن مفهوم النسيء عند جميع العرب واحداً . وكان مفهومه عند بعضهم التأخير والتأجيل فاذا أقبل شهر المحرم ولم ينتهوا بعد من إغاراتهم ولم يفرغوا من ثاراتهم أجلوه إلى صفر لحرمة القتال فى المحرم ، فإن لم يتحقق لهم ما أرادوا أجلوا المحرم مرة ثانية أو ثالثة وهكذا حتى كانت السنة تصل عند بعضهم إلى ثلاثة أو أربعة عشر شهراً .

وكان مفهوم النسيء عند البعض الآخر ما نسميه الكبس وهو اضافة الفرق بين السنة الشمسية والقمرية لتصبح القمرية موازية للشمسية فتثبت بذلك مواقع الشهور القمرية فلا تتغير من سنة إلى سنة بحيث تقع مرة فى الصيف ومرة فى الشتاء . ويؤيد هذا ما يلاحظ فى أسماء الشهور العربية واشتقاقاتها من الظواهر الجوية الطبيعية الحادثة فيها ، فالربيع مثلا سمى بهذا الاسم لخصوبة الأرض فيه فى فترة معينة من السنة ، والجماديان انما سميا بذلك لجمود الماء فى فترتهما ، وسمى رمضان مثلا بهذا الاسم لوقوعه فى فترة الرمضاء واشتداد الحرارة ، وسمى شوال شوالا لأن الحرارة تخف فيه وهكذا . ويفهم من هذا أن الشهور القمرية كانت على هذا الاعتبار ثابتة فى مواعيد لا تتغير . ومرد هذا الثبوت إلى تلك الاضافة التى كانوا يضيفونها وهى المعروفة بعملية الكبس ومن كانوا يقومون بعملية النسيء على هذا النحو قوم من بنى كنانة يعرفون بالقلامسة أوتوا حظاً من العلم فى شئون التوقيت .

وقد أبطل الاسلام هذا النسيء بمختلف مفاهيمه فى السنة التاسعة للهجرة وجعل عدة الشهور عند الله اثنى عشر شهراً منها أربعة حرم (إن عدة الشهور عند الله أثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) ، وبعد ذلك أبطل المسلمون كل ما عرفوه من قبل من أنواع النسيء سواء كانت تأخيراً للاشهر لتحليل ما حرم منها وتحريم ما حلل أو كانت كبساً واضافة لتثبيت الأشهر القمرية فى مواعيد محددة لاتتجاوزها مع دوران السنين وعاد المسلمون بذلك إلى تقويمهم القمرى المعروف بينهم الآن (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) وصارت العبادات كالحج والصيام تؤدى كما ترى الآن ، فى أشهر بعينها من كل عام إلا أن هذه الأشهر لم تعد ثابتة فى وقت بعينه من السنة فأحيانا تقع فى الصيف ثم تدور مع الزمان حتى تقع بعد وقت فى الشتاء . ولكن لماذا فضل الاسلام أن يأخذ المسلمون بتقويمهم القمرى المعروف ؟ واضح أن أسلوب العرب فى موضوع التقويم لم يكن موحداً بدليل الخلاف الذى أشرنا اليه فى مفهوم النسيء عندهم . ومن أمثلة هذا الخلاف أيضاً أن مضر كانت تعظم شهر رجب بينما كانت ربيعة تعظم مكانه شهر رمضان ، وكان فى العرب من يحلون رجباً ويحرمون =

يجي أن يجيبهم إلى طلبهم ولكنه عدل بعد ذلك عندما بلغه أن أعداءه يتهامسون بميله للمجوسية ويتهمونه بالتعصب لها . وظل أمر الكبس مهملا حتى جاء المتوكل الذى اقتنع بفكرة الكبس بعد أن شرحها له الموبذ وكلف ابراهيم بن العباس الصولى أن يراجع الأمر مع الموبذ وأن يجعلا للنوروز موعداً ثابتاً لايتغير فوقع موعده الجديد فى السابع عشر من حزيران (يونيو) وأمر بتوجيه الكتب إلى الآفاق ليعملوا بهذا الموعد الجديد ويفتحوا الخراج فيه . وكان ذلك سنة ثلاث واربعين ومائتين . وقد قوبل قرار المتوكل بالترحيب والاستحسان لأنه أخر جمع الخراج من الناس حتى ينضج المحصول ، ووفر لهم أيضا بهذا التأخير ما يقرب من خمس الخراج المطلوب . وفى قصيدة البحترى التى يمدح فيها المتوكل ومطلعها :

لك فى المجـــد أول وأخـــير ومســـاع صغيرهن كبير

يقول مشيراً إلى التعديل الذى أدخله المتوكل على النوروز :

إن هذا النوروز عاد إلى العهد الذى كان سنه أردشير
أنت حولته إلى الحالة الأولى وقـــد كان حائراً يستدير
وافتتحت الخراج فيه فـــللأمة فى ذاك مرفق مذكور
منهم الحمد والثناء ومنك العدل فيهم والنائل المشكور

غير أن المتوكل قتل بعد ذلك ولم يتم الأمر على ما أراد . فلما جاء الخليفة المعتضد بحث الأمر من جديد وأجرى بعض التعديلات حتى استقر الرأى على أن يكون موعد النوروز فى الحادى عشر من حزيران .

= شعبان ، ومنهم من كان يخلط بين المحرم وصفر يحل أحدهما مكان الآخر على الدوام ، ومنهم من كان يتركهما فى موقعهما الصحيح سنة ثم يغير موقعهما سنة أخرى ، ومنهم من كان يبدلهما كل سنتين وهكذا . وكان من العرب من لم يعترف بحرمة الأشهر الحرم ولا يمنعه حلولها من الإغارة والمقاتلة . وهكذا نرى أن الأمر بينهم كان فوضى لا وحدة فيه ولا نظام يسود بين الجميع على السواء .

ولما كان انتظام أمر الأمة لا يتم مالم ينتظم توقيتها رأى الاسلام أن يلغى كل ما كان بينهم من خلاف وأن يجمعهم على نظام موحد فى التوقيت فتتوحد بذلك أمور دينهم ودنياهم .

وكانت أهم التعديلات التى أدخلت أنهم أضافوا يوما إلى الخمسة المسترقة كل أربع سنوات على النحو الذى يجرى العمل به فى التقويم الأوربى . وعرف النوروز الجديد فى العالم الاسلامى بالنوروز المعتضدى نسبة إلى الخليفة المعتضد . وجرى العمل بهذا التقويم المعتضدى فى الدواوين فى جميع الشئون المالية والزراعية . وتلقى الناس النوروز المعتضدى بالفرحة والابتهاج . وأكثر الشعراء من القول فيه . ومن ذلك قول يحيى بن على المنجم :

ياعجى الشــرف اللبــاب	وبحدد الملك الخــــراب
ومعيــد ركن الدين فــينا	ثابتـــا بعــد اضـطراب
فت المـــلوك مـــبرزا	فوت المبرز فى الحـلاب
اسعــــد بنيروز جمعـت	الشكر فيـــه إلى الثـــواب
قـــدمت فى تأخـــير ما	قـد قـدموه إلى الصـــواب

وقوله :

يـــوم نيروزك يـــوم	واحـــــد لا يتأخــــر
من حـــــزيران يـــوافى	أبـــدا فى أحـــد عشر (١)

ومع أن النوروز المعتضدى ثبت فى موعد محدد من كل سنة يناسب جمع الخراج إلا أنه لم يسلم من العيوب . لهذا ألف السلطان ملكشاه السلجوقى فى سنة ٤٧٦ هـ لجنة من العلماء لاصلاح هذه العيوب . وكان من بين أعضاء تلك اللجنة الفلكى المشهور عمر الخيام . وانتهت هذه اللجنة إلى تعيين رأس السنة الشمسية «النوروز» فى أول نقطة من دخول الشمس برج الحمل بعد أن كان يقع عند توسط الشمس برج الحوت (٣) . ، ولا يزال إلى اليوم

(١) المسعودى : مروج الذهب ٤ – ٢٧١ ط ثالثة السعادة بمصر .

(٢) جلال الدين أبو الفتح ملكشاه من سلاطين السلاجقة العظام ٤٦٥ – ٤٨٥ هـ / ١٠٧٢ – ١٠٩٢ م .

(٣) ابن الأثير : حوادث سنة ٤٦٧

فى نفس الموعد عند الايرانيين . ويعترف العلماء الأوربيون أنفسهم بأن هذا التقويم الذى توصل اليه العلماء فى عهد السلطان ملكشاه يفوق فى دقته التقويم الجريجورى . ويسمى هذا التقويم بالتقويم الجلالى نسبة إلى السلطان جلال الدين ملكشاه كما سمى يوم النوروز فيه بالنوروز السلطانى نسبة اليه كذلك .

النوروز فى مصر :

والنوروز عند الأقباط فى مصر يقع فى أول يوم من توت ، وهو بداية السنة القبطية . وفى هذا اليوم يبلغ فيضان النيل ذروته ، ولهذا اتخذوه مبدأ لسنتهم .

وبين الفرس والقبط شبه كبير فيما يتصل بتوقيتهم ونوروزهم . وعدة الشهور فى السنة القبطية اثنا عشر شهراً كل شهر منها ثلاثون يوما ثم يضيفون بعد ذلك خمسة أيام يسمون كل واحد منها باسم أحد آلهتهم . وكانوا يجعلون هذه الأيام أعيادا تعرف عندهم بأعياد موالد الآلهة الكبرى .

وكانت السنة القبطية تنقسم إلى ثلاثة فصول تدور كلها مع مواسم الزراعة ، وهى فصل الفيضان أو الغمر ، وفصل البذر ، وفصل الحصاد . ولم يكن عند قدماء المصريين فى أول الأمر أسماء للشهور فكانوا يقولون مثلا الشهر الرابع من الفصل الثالث ثم سموا شهورهم بعد ذلك بأسماء آلهتهم . وكانت السنة تبدأ عند قدماء المصريين بوصول مياه الفيضان الحمراء إلى مدينة منف أى فى حوالى ١٩ يوليو ولكنهم عدلوها بعد ذلك وجعلوا بدايتها عندما تبلغ مياه الفيضان ذروة ارتفاعها فى ١١ سبتمبر وهو أول توت ، عيد النوروز عندهم .

وتتفق الأشهر القبطية كذلك مع الأشهر الفارسية فى تسمية كل يوم منها باسم خاص إذ كان المصريون القدماء ، كالفرس ، لم يعرفوا بعد تقسيم الشهر إلى أسابيع .

وخطبة العيد التى كانت تلقى بين يدى ملوك مصر القدماء صبيحة يوم عيد النوروز والتى اثبتها أحمد بن أياس فى تاريخه (١) ، نراها بنصها تقريباً فى صبح الأعشى للقلقشندى الذى يوردها فى كتابه نقلا عن ابن المقفع الذى حكى أنها تلقى بين ملوك الفرس . يقول القلقشندى : «وحكى ابن المقفع أنه كان من عادتهم (أى ملوك الفرس) فيه (أى يوم النوروز) أن يأتى الملك رجل من الليل قد أرصد لما يفعله مليح الوجه فيقف على الباب حتى يصبح فاذا أصبح دخل على الملك من غير استئذان ويقف حيث يراه فيقول له من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ وما اسمك ؟ ولأى شيء وردت ؟ ومامعك ؟ فيقول : أنا المنصور ، واسمى المبارك ومن قبل الله أقبلت ، والملك السعيد أردت ، وبالهناء والسلامة وردت ، ومعى السنة الجديدة ثم يجلس ويدخل بعده رجل معه طبق من فضة وفيه حنطة وشعير وجلبان وحمص وسمسم وأرز : من كل واحد سبع سنبلات وسبع حبات وقطعة سكر ودينار ودرهم جديدان فيضع الطبق بين يدى الملك ثم تدخل عليه الهدايا . ويكون أول من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخراج ، ثم صاحب المعونة ، ثم الناس على طبقاتهم ، ثم يقدم للملك رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب فى سلة فيأكل منه ويطعم من حضر ثم يقول هذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد يحتاج أن يجدد فيه ماأخلق من الزمان . واحق الناس بالفضل والاحسان الرأس لفضله على سائر الأعضاء ثم يخلع على وجوه دولته ويصلهم ويفرق عليهم ماوصل اليه من الهدايا (٢) ، وهذا النص يكاد

---

(١) بدائع الزهور فى وقائع الدهور : ج ١ ص ١٩

(٢) صبح الأعشى : ج ٢ ص ٤٠٨ ط الأميرية .

يتطابق تماما مع النص الذى ذكره ابن أياس ، وهذا التطابق التام بين النصين إن دل على شبه وتماثل شديد فى التقاليد التى كانت تتبع عند ملوك الفرس والمصريين القدماء صبيحة يوم النوروز إلا أنه يثير الشبهة ويدعو إلى الشك فى خلط ابن أياس لأن اتحاد العبارات والجمل والأفكار فى الخطبتين إلى هذا الحد ليس مما يقبل بسهولة مهما يبلغ التأثير المتبادل بين المصريين القدماء والفرس .

ويرجع بعض الكتاب أن التوقيت الفارسى تأثر بما وجده الفرس عند المصريين القدماء . وقد غزا الفرس مصر أكثر من مرة ، وطردوا منها أكثر من مرة (١) ، وكان الملك الفارسى « دارا الأول » يحترم ديانة المصريين وقد عبر عن احترامه لدينهم بالهيكل العظيم الذى أقامه لمعبودهم آمون بواحة سيوة ، كما كان يشجع التجارة والاتصال بين الشعبين . وقد تردد كثير من الكهنة المصريين إلى ايران كما تردد رجال الدين الزردشتيون إلى مصر ، ومنها اقتبسوا نظام التوقيت (٢) .

---

(١) استولى الفرس فى عهد قمبيز على مصر سنة ٥٢٥ ق. م. وطردهم منها المصريون سنة ٤٨٦ ق. م . وشجعهم على ذلك انهزام دارا أمام الأغريق فى واقعة ماراثون .

ثم عاد الفرس مرة أخرى إلى مصر فى عهد أجوزميس بن دارا وطردوا منها سنة ٤٠٥ ق. م. ويعرف عهد حكام الفرس هؤلاء فى تاريخ مصر بالأسرة السابعة والعشرين .

وعاد الفرس إلى مصر مرة ثالثة سنة ٣٤٠ ق. م. بعد أن غابوا عنها خمسة وستين عاماً وبعودتهم فى هذه المرة ينتهى عهد الفراعنة فى تاريخ مصر بعد أن حكموا وادى النيل قرابة أربعة آلاف عام .

وظل حكم الفرس فى مصر إلى أن قضى عليه الاسكندر الأكبر سنة ٣٣٢ ق. م. وبهذا خضعت البلاد لحكم الأغريق ثم الرومان . وبعد ذلك جاء العهد الاسلامى .

(٢) مجلة ياد كار العدد السابع من السنة الرابعة مقالة تقى زاده .

من تاريخ العراق فى العصر البويهى

للدكتور حسين أمين

مدرس التاريخ الاسلامى — جامعة بغداد

قامت الدولة العباسية فى العراق سنة ١٣٢ هـ ٧٤٩م فتية قوية ، وكان جل اعتمادها على العنصر العربى الذى أمدها بالحيوية والنشاط (١) إلى جانب اعتمادهم على العنصر الفارسى فى المشرق خاصة ، وبلغت حدا كبيراً من التقدم السياسى والاجتماعى والثقافى والعمرانى ، وأصبحت بغداد قبلة العالم الاسلامى ومحط أنظار السياسيين والعلماء والفقهاء وبلغت درجة كبيرة من الرقى والاتساع . الا أن المعتصم العباسى اعتمد فى حكمه على عنصر غريب ، هو العنصر التركى الذى أخذ بمرور الزمن يترقى فى المناصب ويتولى المراكز الحساسة فى الدولة ، صار هذا العنصر يتدخل فى شؤون الخلافة مستغلا ضعف الخلفاء فى العصر الثانى العباسى ، وفقدت الخلافة فى هذا العصر هيبتها وعناصر قوتها كما فقدت الدولة العباسية الكثير من ممتلكاتها ، حيث استقل المتغلبون والطامعون ، فقامت الدولة الصفارية ٢٥٤ — ٢٩٠هـ ٧٦٨ — ٩٠٢م ، والدولة السامانية ٢٦٦ — ٣٨٩ هـ ٨٧٤ — ٩٩٩ م فى ايران ، كما قامت الدولة الطولونية ٢٥٤ — ٢٩٢ هـ

---

(١) حاول الكثير من المؤرخين أن يصبغوا الدعوة العباسية وقيامها بالصبغة الفارسية ولكن من الثابت تاريخياً أن العباسيين كان جل اعتمادهم على العنصر العربى . فقد جعل العباسيون اثنى عشر نقيباً من أجل الدعوة لهم ، ثمانية من العرب وأربعة من الفرس ، وكان معظم القواد الذين اعتمدت عليهم الثورة والدولة العباسية فى أول تكوينها من العرب ، مثل قحطبة بن شبيب الطائى وولده الحسن وعبد الله بن علي وغيرهم من القواد العرب كما نلحظ فى سياسة ابن العباس والمنصور وهم من المؤسسين الأوائل لهذه الدولة ، اعتمادهم على العنصر العربى واسنادهم له ومقاومتهم للتنفذ الفارسى .

راجع : الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ص ١٣٥٨

مجهول : الدولة العباسية مخطوط بمكتبة الأوقاف ببغداد .

الدورى : بحث قيم فى موضوع « أضواء على الدعوة العباسية » فى مجلة كلية الآداب — جامعة بغداد لسنة ١٩٥٨

٨٦٨ – ٩٠٥م والدولة الأخشيدية ٣٢٣ – ٣٥٨ هـ ٩٣٤ – ٩٦٨ م فى مصر ، والدولة الحمدانية فى الموصل وحلب ٣١٧ – ٣٩٤هـ – ٩٢٩ – ١٠٠٣م.

فى هذا العصر أصبح الخليفة لعبة بيد الأتراك وساءت أحوال الدولة وتولى فى هذه الفترة خلفاء ضعفاء لاقوة لهم وانصرف معظمهم إلى اللهو والتبذير ؛ فقد بدد المقتدر مثلا كل ماجمعه أبوه وأخوه (١) ؛ كما كان كثير الانهماك فى الشرب (٢) ، واضطربت أمور الدولة فى عهد المقتدر خاصة بعد استقالة الوزير على بن عيسى ، إذ أصاب الخزانة عجز كبير ولم تعد قابلة لأى اصلاح فاضطر الوزير سليمان بن الحسن سنة ٣١٨ هـ ٩٣٠م إلى بيع الضياع السلطانية التى هى المورد الأول لسد النفقات ولكن هذا المورد لم يكفى لسد العجز (٣) . واستمرت الأحوال مضطربة فى عهد المقتدر وضاعت هيبة الثغور على حدود الدولة ، وأخذ البيزنطيون يشنون الغارات المتصلة على الحدود المتاخمة لهم بعد أن ضعف الدفاع عنها (٤) . وقد قتل هذا الخليفة سنة ٣٢٠ هـ ٩٣٢ م واستبد بالأمور مؤنس الخادم الملقب بالمظفر أمير الجيوش ، وأجلس القاهر خليفة (٥) ، وهذا هو الآخر قبض عليه الوزير مقلة وسجنه (٦) ، وولى الخلافة ، الراضى ، سنة ٣٢٢هـ ٩٣٣م وفى عهده لم يبق للخليفة غير بغداد وأعمالها والحكم فى جميعها لابن

---

(١) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٢
مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٣٨ ؛ أن المقتدر أتلف لهفاً وسبعين ألف الف دينار .

(٢) التنوخى : نشوار المحاضرة جـ ١ ص ١٤٤

(٣) Bowen : The life and times of Ali b. Isa p. 299

(٤) Muir : The Caliphate, p. 567

(٥) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٢٢٧ – ٢٤٢
أبو الفداء – تاريخ أبى الفدا جـ ٢ ص ٧٨
عريب بن سعد : صلة تاريخ الطبرى ١٧٤ – ١٨٠

(٦) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٠٥ – Bowen, p. 329

رائق وليس للخليفة حكم (١) ، وفى هذه الفترة ظهر على المسرح السياسى بنو بوية والذين سيلعبون دوراً مهما فى حياة الدولة العباسية .

والبويهيون أصلهم من الديلم ، وبلاد الديلم الأصلية هى المنطقة الواقعة بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر ، ومن جهة الغرب شىء فى أذربيجان وبلدان الران(٢) . وقد اختلف الباحثون فى نسبهم فمنهم من يرى أن نسبهم يرتفع إلى واحد من ملوك الفرس (٣) ومنهم من يرى أنهم من العرب ويرجعون إلى بنى ضبة (٤) ويرجح أن البويهيين من الديلم ولاصلة لهم بالعرب . واشتهر من بنى بويه الأخوة على وأحمد والحسن ، وأبوهم بويه ، كان صيادا فقيراً على بحر قزوين (٥) . واشتغل هؤلاء الأخوة فى خدمة مرداويج بن زيار ، الذى أسس الدولة الزيارية ، وقد أظهر على بن بويه كفاية ومقدرة ، وصار يترقى فى مناصب الدولة حتى ولاه مرداويج ولاية الكرج ويبدوا أنه أصاب نجاحاً فى حكمه وصار أهل الولاية يظهرون له الحب ، الأمر الذى أثار شكوك مرداويج وأحس بخطره فى المستقبل ، وبدأت المنافسة بين بنى بويه ومرداويج ، ولكن البويهيين تنفسوا الصعداء بعد مقتل مرداويج سنة ٣٢٣هـ ٩٣٤م. ، فاغتنم الأخوة الفرصة فاستولى الحسن على أصفهان والرى وهمذان (٦) وشيراز ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٢٣
ابن الطقطقى : الفخرى ، بنفس المعنى ص ٢٠٨

(٢) الاصطخرى : المسالك والممالك ص ١٢١ طبع سنة ١٩٦١
المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٣٥٣

(٣) ابن الطقطقى : الفخرى ص ٢١٥
ابن حسول : تفضيل الأتراك ص ٣٥
Bowen, p. 329 / - Ency. of Islam, vol 1, p.801

(٤) ابن حسول : تفضيل الأتراك ص ٣٤ — ٣٥

(٥) ابن الجوزى جـ ٦ ص ٢٦٩

(٦) مسكويه : تجارب الأمم جـ ١ ص ٣٠٢ — E. I. vol. I, p. 807

كما نازع أحمد بن بويه ، على بن العباس على ولاية كرمان وانتصر عليه (١) كما أخذ البويهيون يهاجمون أملاك الخليفة العباسي فى العراق ، ففى سنة ٣٣٢هـ — ٩٤٣ م هاجم أحمد بن بويه مدينة واسط ولكن توزون الذى كان أمير الأمراء صد هجوم أحمد بن بويه وتمكن من ايقاع الهزيمة بجيشه (٢) .

وفى سنة ٣٣٣هـ — ٩٤٤م توفى أمير الأمراء توزون وأصبح شيرزاد أمير الأمراء (٣) ، وكان معز الدولة (أحمد بن بويه) فى الأهواز ، وكان شيرزاد قد استعمل على واسط «ينال كوشه» الذى كاتب معزالدولة بن بويه واستقدمه (٤) ، ويبدو أن ينال كوشة كان قد أحس بقوة البويهيين واتساع نفوذهم فى وقت كانت الخلافة العباسية قد دب فيها الضعف والانهيار وسادت الفوضى مختلف مدن العراق خاصة بغداد حيث انتشر اللصوص الذين نشروا الرعب وتسلطوا على أموال الناس إلى حد ، فيه تهارب التجار من بغداد وعاد هذا الفعل بالخراب وفساد الأمر (٥) كما أرجح أن « ينال كوشه » حاكم واسط كان يحس بمطامع أحمد بنى بويه ويعلم أنه هاجم العراق قبل هذا عدة مرات بقصد الاستيلاء عليه ، فرأى من مصلحته مداراة القوة الجديدة ضمانا لمستقبله فتقرب إلى البويهيين وكاتبهم وأظهر الاخلاص والمعاونة لهم .

تحرك أحمد بن بويه من الأهواز ودخل العراق فاضطرب الناس ببغداد ، فلما وصل إلى باجسرى زاد اضطراب الناس واختفى الخليفة المستكفى بالله وابن شيرزاد (أمير الأمراء) فلما علم الأتراك باختفاء الخليفة وابن شيرزاد عبروا إلى الجانب الغربى وساروا إلى الموصل . فلما سار الأتراك

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٦٤

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١١ ص ٢٠٧ — ٢٠٨

(٣) أبو الفدا : تاريخ ابن الفدا جـ ٢ ص ٩٩

(٤) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨٤
ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٧٦

(٥) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨٣

ظهر المستكفى بالله وعاد إلى دار الخلافة (١) ، واجتمع ابن محمد المهلبى صاحب معز الدولة بالخليفة المستكفى وابن شيرزاد ، وأظهر الخليفة السرور بقدوم أحمد بن بويه وأعلمه أنه انما استتر خوفا من الأتراك فلما ساروا عن بغداد ظهر (٢) .

وفى الحادى عشر من جمادى الآخرة نزل أحمد بن بويه فى معسكره بباب الشماسية ووصل إلى الخليفة المستكفى بالله ووقف بين يديه طويلا ، وأخذت عليه البيعة للمستكفى بالله واستحلف له بأغلظ الايمان ، وأقسم الأمير البويهى اليمين ، وخلع الخليفة عليه الخلع ولقبه معز الدولة ولقب أخاه عليا بعماد الدولة كما لقب أخاه الحسن بركن الدولة وأمر أن تضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم (٣) .

ولم تمض إلا أيام معدودات وانقلب الأمير البويهى معز الدولة على الخليفة المستكفى بالله ، فأهانه اهانة كبيرة حيث سحب من مكانه واقتيد إلى دار معز الدولة واعتقل فيها ، ونهبت دار الخلافة (٤) ، أما سبب ذلك أن علما قهرمانة الخليفة دعت دعوة عظيمة حضرها جماعة من قواد الديلم فاتهمها الأمير معز الدولة أنها فعلت ذلك لتأخذ عليهم البيعة للمستكفى بالله وأن ينقضوا رياسة معز الدولة عليهم ويطيعوه دونه فساء ظنه لذلك .

---

(١) مسكويه : جـ ٢ ص ٨٤
ابن الأثير – الكامل جـ ٨ ص ١٧٦

(٢) مسكويه : جـ ٢ ص ٨٤ – ٨٥
ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٧٦
أبو الفدا : جـ ٢ ص ٩٩
ابن كثير البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢١٢

(٣) مسكويه : جـ ٢ ص ٨٥
ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٧٦
Ency. of Islam, vol. I, p. 807

(٤) مسكويه : جـ ٢ ص ٨٦

وكان المستكفى بالله قد قبض على الشافعى رئيس الشيعة ، فشفع فيه اصفهدوست فلم يشفعه فأحفظه ذلك وذهب إلى معز الدولة وقال : قد راسلنى الخليفة فى أن القاه منكرا فى خف وازار (١) ، وأرى أن هناك سببا آخر قد يضاف إلى هذين السابقين ، أن الأمير البويهى انما دخل بغداد بقصد السيطرة والاحتلال ولتثبيت الفكرة الشيعية التى هويؤمن بها ، فالأساس فى الخلاف هو الصراع المذهبى بين السنة والشيعة ، وكان الأمير البويهى يقصد إضعاف الخلافة واذلالها بل وبالاطاحة بها ، كما سندلل على هذا بالمحاولة التى حاولها معز الدولة ، حيث حاول القضاء على الخلافة العباسية واقامة خلافة علوية ، وأنه أشخص فى نواحى فارس أحد كبار العلويين مشهرا بالديانة وحسن السير والصيانة(٢) ، واقترح معز الدولة عليه أن يسلمه الملك والخلافة اعتقادا منه بأحقية آل بيت الرسول صلى الله عليه وسلم بتولية أمور المسلمين ، ولكن هذا العلوى شكر الأمير واعتذر عن قبول ذلك العرض ونصحه بالعدول عن هذه الفكرة لأن عامة الناس فى الأقطار والأمصار قد اعتادوا الدعوة العباسية ودانوا بدولتهم وأطاعوهم كطاعة الله ورسوله وراؤهم أولى الأمر (٣) ، وقيل أن الصيمرى (٤) منع الأمير البويهى من تنفيذ تلك الفكرة وقال له : إذا بايعته استنفر عليك أهل خراسان وعوام البلدان وأطاعه الديلم ورفضوك وقبلوا أمره فيك وبنو العباس قوم منصورون تعتل دولتهم مرة وتصح مرارا وتمرض تارة وتستقل أطواراً لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ (٥) فاستبعد معز الدولة الفكرة وعدل عن تنفيذها .

---

(١) مسكويه : جـ ٢ ص ٨٦
ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٧٦ – ١٧٧

(٢) البيرونى – الجماهر فى معرفة الجواهر ص ٢٢ – ٢٣
مسكويه : جـ ٢ ص ٨٧ فى الحاشية : أن العلوى اسمه أبوالحسن محمد بن يحيى الزيدى .

(٣) البيرونى : الجماهر فى معرفة الجواهر ص ٢٣ .

(٤) الصيمرى : أبو جعفر محمد بن أحمد الصيمرى وزير معز الدولة البويهى توفى سنة ٣٣٩ هـ

(٥) مسكويه : جـ ٢ ص ٨٧ فى الحاشية .

ونصب معز الدولة البويهى ، أبا القاسم الفضل بن المعتز خليفة ولقب المطيع لله سنة ٣٣٤هـ — ٩٣٢م (١) ، ولم يكن الخليفة المستكفى بالله هو الوحيد من الخلفاء العباسيين الذى تعرض للاعتداء فى هذا العصر ، ففى سنة ٣٨١هـ ٩٩١م اعتدى البويهيون على الخليفة الطائع لله وسبب الاعتداء أن الأمير البويهى قلت عنده الأموال ، فكثر شغب الجند فتبض على وزيره سابور (٢) . فلم يغن ذلك عنه شيئا ، وكان أبو الحسن بن المعلم قد غلب على بهاء الدولة وحكم فى مملكته فحسن له القبض على الطائع واطمعه فى أمواله وذخائره وهون عليه ذلك وسهله (٣) ، فتقدم أصحاب الأمير البويهى ، وجذبوا الخليفة بحمائل سيفه عن سريره فلف بكساء وحمل إلى بعض الزبازب وخلع من الخلافة (٤) .

وهكذا ساءت حال الخلافة — واصبح الخليفة لعبة بيد البويهيين ، ينصبونه ويعزلونه ، ويلحقون به الأذى والاعتداء وأصبح الخليفة العباسى أشبه مايكون بالموظف يخصص له الأمير البويهى راتبا ، وكانوا يتصرفون حسب مشيئتهم فى تخصيص تلك الرواتب ، فقد جعل معز الدولة للخليفة المستكفى خمسة آلاف درهم فى اليوم (٥) ، ثم خفض ذلك المرتب إلى ألفى درهم يوميا عندما عين المطيع (٦) . وكان للخليفة العباسى وزير وللأمير

---

(١) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٨٧
ابن الجوزى : المنتظم جـ ٦ ص ٣٤٣
ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٧٧

(٢) سابور : أبو نصر سابور بن اردشير وزير بنى بويه فى عهد شرف الدولة بن عضد الدولة توفى سنة ٤١٦ هـ (المنتظم جـ ٨ ص ٢٢)

(٣) مسكويه : جـ ٢ ص ٢٠١
ابن الأثير : جـ ٩ ص ٢٧

(٤) مسكويه : جـ ٢ ص ٢٠٣ الهامش
ابن الأثير : جـ ٩ ص ٢٠٧
ابن كثير : جـ ١١ ص ٣٠٨ — ٣٠٩

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٧٦
السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٢٦٣

(٦) مسكويه : جـ ٢ ٨٧

كاتب ولكن الأمر انعكس فى العهد البويهى (١) ، وتلقب الحكام البويهيون بلقب أمير ، وأنهم استخلفوا وظيفة أمير الأمراء ، وتلقبو بألقاب مختلفة فقد منح عضد الدولة لقب تاج الملة (٢) ، وفى سنة ٣٨١ هـ لقب القادر الأمير البويهى بهاء الدولة بلقب غياث الأمة (٣) ، وفى سنة ٤٢٩ زيد فى القاب جلال الدولة (شاهنشاه الأعظم أى ملك الملوك) وخطب له بذلك (٤) وفى سنة ٤٣٠ هـ منح جلال الدولة لقب الملك الوزير (٥) .

والحقيقة أن سلطات الأمير البويهى كانت واسعة جداً وأنهم لم يكتفوا بتلك السلطات ، بل عملوا على سلب امتيازات الخليفة ومشاركته فى اختصاصاته ، فقد كانت الخطبة فى المساجد رمز سيادة الخليفة ، وفى سنة ٣٦٩ هـ أمر عضد الدولة البويهى أن يذكر اسمه مع اسم الخليفة الطائع فى خطبة الجمعة (٦)، والأعجب من هذا أن عضد الدولة اختلف مع الخليفة الطائع فأمر الأمير البويهى بحذف اسم الخليفة من الخطبة لمدة شهرين (٧) كما شارك البويهيون الخليفة العباسى فى نقش اسمهم على النقود ، بل تجرأوا على حذف لقب أمير المؤمنين من الخليفة العباسى وذكروا اسمه فقط ، بينما ذكر الأمير البويهى مع لقبه وكنيته (٨) ، فيذكر مثلا لقب الأمير عضد الدولة (تاج الملة) وكنيته (أبوشجاع) ، وكانت الطبول تضرب على أبواب الخلافة فى أوقات الصلوات الخمس ، وصارت الطبول

---

(١) ابن الأثير : جـ ٨ ص ١٧٦
(٢) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٧ ص ٧٨
(٣) المرجع السابق جـ ٧ ص ١٦٣
(٤) المرجع السابق جـ ٨ ص ٩٧
ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٥٨
(٥) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٨ ص ٩٩
(٦) مسكويه : تجارب الأمم جـ ٢ ص ٣٦٩
(٧) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٧ ص ٧٥
(٨) مسكويه جـ ٢ ص ٥٨

تضرب على أبواب الأمير عضد الدولة ثلاث مرات فى اليوم (الغداء والمغرب والعشاء) (١) ، ثم أخذت الطبول تضرب على أبواب الأمراء أبى شجاع سلطان الدولة ، وابى كاليجار صمصام الدولة ، وابى طاهر جلال الدولة خمس مرات يوميا (٢) .

وبدا الضعف ظاهرا فى خلفاء بنى العباس أيام البويهيين ، كما أن العداء المستمر بين الخلفاء العباسيين والأمراء البويهيين يرجع سببه كما قلنا سابقاً إلى كون البويهيين من الشيعة الزيدية ويعتقدون أن الخلفاء العباسيين انما هم فى الحقيقة مغتصبون للخلافة ، وقد أبقى البويهيون الخلفاء العباسيين تمويها على الرعية وتيسيراً للأمور ، ولم يبق للخليفة العباسى من الحكم الا تعيين القضاء وأصحاب الصلاة والخطباء وقوام المساجد ، وهذا هو الذى حفظ للخليفة نفوذه الدينى ، فصار يؤكده ويسعى إلى تثبيت مركزه به ، ساعده ذلك على استرجاع سلطته فى دور ضعفهم كما حافظ الخليفة أيضا على احترام الرأى العام وتأييده ، وهو ما جعل البويهيين يحسبون للخلافة حسابها حتى فى دور قوتهم ، وفعلا انتعشت الخلافة العباسية فى أواخر حكم البويهيين ، ففى عهد القادر ، زاد وقار الدولة العباسية ونما رونقها وأخذت أمورها فى القوة (٣) .

وكان الأمراء البويهيون يترضون الخلفاء ويظهرون لهم الطاعة ارضاء للجمهور وطمعاً فى أن يمنح الخليفة لهم الألقاب التى كان يهواها أمراء بنى بويه ، وقد شعر البويهيون بنفوذ الخليفة الدينى فى الأوساط الشعبية ، فكانوا يتظاهرون فى المناسبات باظهار الشعور الكريم والطاعة الكلية لمقام الخليفة ، ففى عهد حفلة العهد إلى عضد الدولة سنة ٣٦٩ هـ — ٩٧٩م جلس الطائع على السرير وحوله ماثة بالسيوف والزينة وبين يديه مصحف عثمان

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٩٦
ابن الجوزى : المنتظم جـ ٧ ص ٩٢
(٢) بن الجوزى : المنتظم جـ ٨ ص ٣٠
(٣) ابن الطقطقى : الفخرى ص ٢١٤

وعلى كتفه البردة وبيده القضيب وهو متقلد سيف النبي صلى الله عليه وسلم . وضربت ستارة بعثها عضد الدولة وسأل أن تكون حجابا للطائع حتى لا تقع عليه عين أحد الجند قبله ، ودخل الأتراك الديالمة وليس على أحد منهم حديد ، ووقف الأشراف وأصحاب المراتب من الجانبين ، ثم أذن لعضد الدولة فلدخل ، ثم رفعت الستارة ، فقبل عضد الدولة الأرض ، فارتاع زياد القائد لذلك وقال : ماهذا أيها الملك أهذا هو الله عزوجل ؟ فالتفت إلى عبد العزيز بن يوسف وقال له : فهمه فقل له : هذا خليفة الله فى الأرض ، ثم استمر يمشى ويقبل الأرض سبع مرات ، فالتفت الطائع إلى خالص الخادم ، فقال : استدنه — فصعد عضد الدولة فقبل الأرض دفعتين فقال له : أدن إلى أدن إلى ، فدنا ، وقبل رجله وثنى الطائع يمينه عليه وأمره فجلس على كرسى بعد أن كرر عليه : اجلس . وهو يستعفى فقال له : أقسمت لتجلس . فقبل الكرسى وجلس (١) هذه صورة جلية للتناقض الكبير فى معاملة الخلفاء ، فالأمراء البويهيون ، يتظاهرون بالولاء والخضوع للخليفة العباسى أمام الناس وفى المناسبات ليكسبوا رضا الجمهور العام ولكى يقال أن الأمير البويهى يحترم الخليفة فبذلك يبعدوا عنهم سخط العامة ومعارضتهم ، بينما كانوا فى خصوصياتهم يثقلون على الخليفة العباسى فى مطالبهم ويسعون إلى تجريد الخلافة من مظاهرها وخصائصها وعوامل قوتها .

ومما لاشك فيه أن بعض الأمراء البويهيين قاموا باصلاحات فى العراق من ناحية اصلاح نظام الرى وتحسين شؤون الزراعة خاصة فى عهدى معز الدولة وعضد الدولة وكانت لتلك الاصلاحات آثار طيبة فى تقدم الزراعة ورفاهية السكان ، ولكن الدولة كانت فى حاجة بشكل عام إلى الأموال وخزانتها كانت لاتسد ولاتكفى العمران الزراعى والتنظيم العسكرى . فقد كان الجيش فى حاجة كبيرة إلى الأموال ، ويبدو أن

---

(١) مسكويه : جـ ٢ ص ٤١٧

ابن الجوزى المنتظم جـ ٧ ص ٩٨

البويهيين لم يكونوا من ذوى الخبرة فى التنظيم الاقتصادى ، لذا نراهم يتبعون سياسة زراعية عادت على البلاد بخسائر فادحة كما أدت إلى خراب أراضى السواد ، فان معز الدولة أعطى الإقطاعات لجنده دون حساب(١) كما تطرف عضد الدولة وصار يمنح الجند اقطاعات فى أراضى الوقف (٢) وأن هؤلاء الجند تحكموا فى أراضيهم الزراعية التى اقطعوا إياها كما تحكموا بزراعها حسبما شاؤا (٣) ، وان هؤلاء الجند لم يكونوا ليدفعوا شيئا يذكر لخزانة الدولة (٤) .

إن الاقطاعات التى أقطعها معز الدولة للقواد وكبار الموظفين والجند ، انه انما أراد بذلك ربط هؤلاء خاصة الجند بالأرض ، ولاسترضائهم وتقوية جانبهم ، ولكنه من جهة أخرى أدى إلى فعل معاكس ، أدى ذلك إلى أن يحرص القواد على جمع الأموال وحيازة الأرباح والتماس الحظائط (٥) ، وبذلك فشلت محاولات معز الدولة فى اصلاح نظام الرى والزراعة ، فقد أدت إلى إرهاق الخزانة بالأموال لتضاؤل مواردها كما كان معز الدولة كثير النفقة على جنده مما أدى إلى افلاس الخزانة وإلى ذلك أشار مسكويه : فتعذر عليه أن يدخر ذخيرة لنوائبه أو أن يستفضل شيئا من ارتفاع ولم تزل مؤنته تزيد وموارده تنقص حتى حصل عليه عجز لم يكن واقفا على حد منه بل يتضاعف تضاعفا متفاقما(٦) . كما أن الأمراء البويهيين الذين حكموا بعد معز الدولة عدا عضد الدولة كانوا على بعد من الفهم السياسى والحزم الادارى مما عجل فى ارباك أمور الدولة والاسراع فى سقوطها ، فقد أشغل بختيار نفسه باللهو واللعب ومعاشرة المساخر والمغنين والنساء (٧) ،

---

(١) مسكويه : جـ ٢ ص ٩٧

(٢) أبو شجاع : ذيل مسكويه ص ٧١

(٣) مسكويه : جـ ٢ ص ٩٨ — ٩٩

(٤) المصدر نفسه ٢ ص ٩٨

(٥) الحظائط : التخفيف فى مقدار الضمان ، أى مقدار المبلغ المفروض دفعة لخزينة الدولة .

(٦) مسكويه : جـ ٢ ص ٩٩

(٧) المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣٤

وكان لاينظر فى دخل ولاخرج وانما يلزم وزيره تمشية الأمور من حيث لايعينه ولاينصره ولايمنع أحد من جنده شيئا فاذا وقفت أموره قبض على وزيره واستبدل به فلا يلبث الأمر أن يعود من الالتياث والاختلال إلى أسوأ مما كان (١) . وقد أساء بعض المسئولين البويهيين التصرفات التى أدت إلى أرباك الحالة الاقتصادية واقلاق حياة الناس التجارية والمعاشية حتى «بطلت الأسواق وانقطعت المعايش»(٢) . ومما زاد فى الوضع سوءا المنازعات التى قامت بين الأمراء البويهيين وبالطبع أدى ذلك إلى تدهور الحالة السياسية والاقتصادية وأثر تأثيراً كبيراً فى حياة الناس المعيشية .

إن البويهيين ارتكبوا خطأ كبيراً من أكثارهم للعناصر الأجنبية التركية فى جيشهم ، فكان ضعف ادارة الأمير منهم سببا فى ظهور مطامع الطامعين من مماليكهم الأتراك ، وبث الشقاق بين الناس والخراب والفساد فى البلاد ، وقد ظهر الخلاف والنزاع بين الاتراك والديالمة كما دب التنافس بين الفريقين للحصول على الأمتيازات والمخصصات ، ولجأ البويهيون إلى السياسة الهدامة ، تلك هى محاولة تفضيل فريق أو تقريب عنصر على حساب العنصر الآخر ، وهذه السياسة التى اتبعها البويهيون والتى كانوا يتوخون من تطبيقها عدم افساح المجال لتوفيق الفريقين ضدهم ولكن النتيجة أتت بخطر جسيم أضعف الجيش البويهى بشكل عام كما أحدثت انقساما خطيراً فى صفوفه ، وأدى إلى أمر أخطر من هذا ذلك أن الديالمة والاتراك فقدوا الثقة بالأمير ، ولم تعد له تلك الثقة وذلك الاحترام فى نفوسهم ، وأصبحت ازالة النزاع القائم بين الديلم والاتراك غير ممكنة . وقد حاول بختيار أن يقوم بمثل هذه المحاولة ولكنه فشل فى مسعاه سنة ٣٦٠هـ — ٩٦٩م(٣) وفى سنة ٣٦٣ — ٩٧٣ م افلست الخزينة العامة فحاول الأمير البويهى بختيار أن يقوم بحركة ولكنها فى الحقيقة كانت غير موفقة ، فقد حاول

---

(١) المرجع السابق جـ ٢ ٣٠٧

(٢) المرجع السابق جـ ٢ ص ٣٠٨

(٣) مسكويه : جـ ٢ ص ٢٨٢

أن يضع يده فى اقطاع سبكتكين قائد الأتراك ، فثار الأتراك فى بغداد واستولوا على المدينة وأخرجوا بختيار منها وحدثت فى بغداد اضطرابات شديدة ، فقد نزل الأتراك فى دور الديلم وتتبعوا أموالهم وأخذوها ، وثارت العامة من أهل السنة ينصرون سبكتكين لأنه كان يتسنن فخلع عليهم وجعل لهم العرفاء والقواد فثاروا بالشيعة وحاربوهم وسفكت بينهم الدماء وأحرقت الكرخ حريقاً ثانياً (١) وظهرت السنة عليهم(٢) . واستنجد بختيار بركن الدولة وبعضد الدولة (٣) ، وسار عضد الدولة إلى بغداد واعاد النظام إلى بغداد (٤).

وكانت السياسة البويهية فى العراق بشكل عام غير مرضية فالبويهيون اتبعوا سياسة مذهبية تقوم على مناصرة المذهب الشيعى ، وهذا بالطبع أدى إلى احداث الفرقة فى صفوف الشعب الواحد ، وكان أثره عظيما فى تدمير الروح الوطنية وتمزيق الصف الوطنى ، كما أدت تلك الفرقة إلى احداث القلاقل والاضطرابات والفتن ، كما أن سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية أدى إلى ظهور العيارين وانتشارهم فى بغداد واستغلال الكثير منهم الفرص للسلب والنهب .

وحركة العيارين التى برزت فى هذا العصر لم تكن إلا وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية القائمة وقتذاك ، والمؤرخون يصمون العيارين بأنهم لصوص وأن حركتهم لم تقم إلا لاكثار الفوضى والفساد ، ولكننا يمكننا أن نتلمس فى بعض أعمال كبار العيارين صفات الانسانية والرجولة. ويبدو أن لحركة الفتوة صلة بحركة العيارين ، فالعيارون يسمون طريقتهم الفتوة وربما حلف أحدهم بحق الفتوة فلم يأكل ولم يشرب (٥) . ومن مبادئهم أن الفتى لايزنى ولايكذب ويحفظ الحرم ولايهتك ستر امرأة (٦) ، وقال

(١) الحريق الأول حصل سنة ٣٦٢ هـ / ٩٧٢م راجع ابن الأثير جـ ٨ ص ٢٤٨
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٥١ — ٢٥٢
(٣) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٥٤
(٤) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٥٦
(٥) ابن الجوزى : تلبيس أبليس ص ٣٩٢
(٦) ابن الجوزى : تلبيس ابليس ص ٣٩٢

الجنيد البغدادى : الفتوة كف الأذى وبذل الندى (١) ، وللعيارين مبادىء سامية انسانية جديرة بالتفحص والدراسة ، واشتهر فى هذا العصر ، البرجمى العيار الذى استبد ببغداد من سنة ٤٢١ — ٤٢٥ هـ — ١٠٣٠ — ١٠٣٣م وبلغ من عجز السلطة تجاهه أن العامة ثاروا بالخطيب فى صلاة الجمعة وقالوا له إما أن تخطب للبرجمى والافلا تخطب لسلطان ولاغيره (٢) . وكان البرجمى قد تعهد سنة ٤٢٥هـ — ١٠٣٣م بحفظ الأمن وكان يجبى الضرائب فى الاسواق وارتفاع المواخير والخيان لنفسه (٣) ، ويقول عنه ابن الأثير : وكان مع هذا فيه فتوة وله مروءة لم يعرض إلى امرأة ولا إلى من يستسلم اليه (٤) .

ولفظة العيار لغة ، الكثير المجيء والذهاب فى الأرض (٥) ، وقيل هو الذكى الكثير التطواف (٦) ، وحكى الفراء : رجل عيار إذا كان كثير التطواف والحركة ذكيا . (٧) وقال ابن الاعرابى : والعرب تمدح بالعيار وتذم به ، يقال غلام عيار نشيط فى المعاصى ، وغلام عيار نشيط فى طاعة الله عز وجل (٨) .

وقد ركز العيارون هجماتهم على بيوت الأغنياء وكبار التجار وأصحاب الشرط والمتنفذين فالعيار المعروف بعزيز ظهر فى باب البصرة فى محلات بغداد ، التحق به كثير من الدعار وطرح النار فى المحال ، وطلب أصحاب الشرط ثم صالح أهل الكرخ وقصد سوق الثمارين وطالب بضرائب الأمتعة وجبى ارتفاع الأسواق الباقية وكاشف السلطان وأصحابه

---

(١) القشيرى : الرسالة القشيرية ص ١١٣
(٢) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٥٢
(٣) ابن الجوزى : المنتظم ج ٨ ص ٧٨
(٤) ابن الأثير : ج ٩ ص ١٥٢
(٥) ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ص ٣٠١
(٦) الزبيدى : تاج العروس ج ٣ ص ٤٣٤
(٧) ابن منظور : لسان العرب ج ٥ ص ٣٠١
(٨) الزبيدى : تاج العروس ج ٣ ص ٤٣٤

ونادى فيهم وكان ينزل إلى السقى فيطالب بالضرائب وأصحاب السلطان يرونه من الجانب الآخر (١) ويبدو أن العيارين كانوا من السنة والشيعة ففى ٣٩٢ هـ — ١٠٠١ م زاد أمر العيارين والفساد ببغداد وكان فيهم من هو عباسى وعلوى (٢) فواصلوا العملات وأخذوا الأموال وقتلوا ، واشراف الناس معهم (٣) . كما كانت للعيارين تنظيمات خاصة بهم ، وتميزوا بدرجات معلومة فى السلم الرئاسى ، ومن درجاتهم ، المتقدم ، وكان البرجمى على مايظهر يحمل لقب «متقدم» (٤) ، ودرجة القائد (٥) ، ودرجة الرئيس ، فقد كان لكل محلة رئيس وقد يجتمع فيها عدة رؤساء (٦) ، وفى أواخر العصر البويهى أخذت الدولة تستعين بالعيارين ففى سنة ٤٢١ هـ —١٠٣٠ م ، تقلد أبو محمد بن النسوى النظر فى المعونة ولقب الناصح واستحجب وخلع عليه واستدعى جماعة العيارين فاقامهم أعوانا وأصحاب مصالح (٧) . وانتشر العيارون بكثرة فى بغداد بشكل خاص ومع وجود بعض العيارين من يحمل روح الفتوة و مبادئها السامية ولكن الأوضاع وانهيار الوضع الاجتماعى والاقتصادى والسياسى جعل الكثير من العاطلين والشقاة ينخرطون فى صفوف العيارين ، الامر الذى أدى إلى أن تصطبغ هذه الحركة بصبغة اللصوصية والعدوان ، ومهما يكن فظهور العيارين وانتشارهم واستبدادهم فى بعض الأوقات بالأمور دليل واضح للتردى الشامل الذى أصاب الدولة العباسية والحكم البويهى فى العراق .

كان كل المشرق الاسلامى الواقع إلى شرق العراق مقسما بين السامانيين والغزنويين وعظم أمر الدولة الغزنوية حتى صارت تسيطر على المشرق

---

(١) المنتظم جـ ٧ ص ١٧٤

(٢) الصابى : تحفة الأمراء جـ ٨ ص ٤٦٢ وص ٤٦٤

(٣) المنتظم جـ ٧ ص ٢٢٠ — الصابى : تحفة الأمراء جـ ٨ ص ٤٦٢

(٤) المنتظم جـ ٨ ص ٤٧

(٥) المرجع السابق ص ٧٨ — مسكويه جـ ٢ ص ٣٣٧ الهامش

(٦) مسكويه : جـ ٢ ص ٣٠٥

(٧) المنتظم جـ ٨ ص ٤٩

كله من حدود الهند إلى حدود خراسان الشمالية وهى دولة انخلت فى غزنة عاصمة لها ، وكان محمود الغزنوى قد استولى على الملك سنة ٣٨٩ هـ ٩٨٨م وباستيلاء الأتراك الغزنويين على خراسان وما يجاورها يكون الفرع البويهى قد زال سلطانه فى الرى وبلاد الجبل ، ويقول براون : وأنه والى لبنى بويه ضرباته التى انتهت باستيلائه على أصبهان (١) ، كما أن محمود الغزنوى قام بحملات واسعة فى بلاد الهند وقد نجح فى تلك الحملات ، حيث كان عاملا مهما فى نشر الاسلام فى تلك البلاد ، ويقول ستانلى ليزول أن حملات الغزنويين فى بلاد الهند واتخاذهم مدينة لاهور مقرا لهم ، يمكن اعتبار ذلك بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه لاهور مقراً لهم ، يمكن اعتبار ذلك بدء حكم المسلمين الحقيقى فى هذه البلاد (٢) ، وبالطبع كان لنجاح الغزنويين فى ايران أثره الكبير فى أضعاف الجناح البويهى فى العراق .

وإلى جانب تلك الفوضى التى استعر أوارها فى جسم الدولة العباسية والتى كانت عوامل هدم لها ، فان البويهيين كانوا قد قاموا ببعض الاصلاحات المهمة ، والتاريخ يذكر أن عضد الدولة البويهى كان من أنشط الحكام البويهيين فى الاصلاحات العمرانية ، فقد شيد المساجد والمستشفيات وغيرها من المبانى العامة ، كما احتضن العلماء وطلبة العلم (٣) ومن أشهر أعماله الخالدة المارستان الذى عرف فى التاريخ بالمارستان العضدى والذى تمت عمارته سنة ٣٧١ — ٩٨١م وقد أوقف عليه عضد الدولة أوقافا كثيرة (٤) ، وقد وردت اشارات عديدة للمؤرخين والرحالة فى وصف بنائه واستمرار العمل فيه (٥).

---

(١) Browne : Literary History of Persia, vol I. p. 376

(٢) Lone-Poole : Muhammaden Dynastics, p. 284

(٣) Encyclopeadia of Islam, vol, I. p. 808

(٤) ابو شجاع : ذيل تاريخ مسكويه ج ١ ص ٦٩

(٥) راجع ابن الجوزى : المنتظم ج ٧ ص ١١٢ — ١١٣
بنيامين التطيلى : رحلة بنيامين ص ١٣٠ — ١٣٥
ابن جبير : الرحلة ص ١٧٩ .

كما أنشئت فى بغداد «دار العلم» التى بناها أبو نصر بن أردشير وزير السلطان بهاء الدولة ٣٨١هـ ٩٩١م فى الجانب الغربى من بغداد وقد احتوت من الكتب ما زاد على العشرة آلاف مجلد من الكتب الخطية النفيسة (١) وذكر ابن الأثير أنها شيدت سنة ٣٨٣ هـ (٢) . وكانت هذه الدار مركز بحث ودراسة ، يفد اليها الأدباء والعلماء والفلاسفة والحكماء ومن أشهر من قصدها الشاعر الفيلسوف العربى أبو العلاء المعرى .

ولابد لنا من أن نشير إلى استبداد الأمراء البويهيين وتعسفهم فى الحكم واستهتارهم فى معاملة الموظفين ، حتى وزرائهم ، وقد ضاعت هيبة الوزارة وسقطت كرامة الوزراء ، وقد أبطل البويهيون رسم الوزارة (٣) ، وقام كاتب الأمير مقام الوزير ؛ وقلنا أن الوزراء فقدوا نفوذهم القديم وأصبحوا فى عصر البويهيين تحت رحمة امزائهم لاحول لهم ولاقوة ، ومن أمثلة المعاملة السيئة للوزراء أن معز الدولة البويهى ضرب وزيره أبا محمد المهلبى المتوفى سنة ٣٥١ هـ (٤) ، مائة وخمسين مقرعة ، ووكل به فى داره ولكنه لم يعزله من وزارته ، وشاور معز الدولة من حضره ، وقال : هل يجوز أن استنيم إلى هذا الرجل وقد لحقه منى هذا المكروه العظيم ؟ فقال أحد من استشاره : أن مرداويج قد ضرب وزيره أعظم من هذا الضرب ، حتى كان لايطيق المشى ، ولايقدر على الجلوس لما حل به ، ثم خلع عليه ورده إلى أمره (٥) ، ولما تولى بختيار ابن معز الدولة سلطنة البويهية ، استوزر صاحب مطبخه وذلك سنة ٣٦٢هـ ٩٧٣م (٦).

---

(١) ابن الجوزى : المنتظم جـ ٧ ص ١٧٢
(٢) ابن الأثير جـ ٩ ص ٣٠
(٣) مسكويه : جـ ٢ ص ٨٧
المسعودى : التنبيه والاشراف ص ٣٩٩
(٤) المنتظم : جـ ٧ ص ٩
(٥) مسكويه : جـ ٢ ص ١٤٣ – ابن الأثير : جـ ٨ ص ٣٧٥
(٦) مسكويه : جـ ٢ ص ٢٨٥ – ابن الأثير : جـ ٨ ص ٤٦٢

ويبدو أن البويهيين لم يكونوا ليهتموا باختيار العناصر ذات الكفاءة والسمعة الطيبة لمنصب الوزارة ، وأخذوا منذ عهد عضد الدولة يختارون شخصيتين لمنصب الوزارة ، أحدهما يقيم فى فارس والثانى يقيم فى بغداد ، وكذلك سار على هذا النهج بهاء الدولة فعين وزيرين وجعل أحدهما مدبرا لأمور العراق (١) ، ولما مات الصاحب بن عباد ٣٧٤ هـ — ٩٩٤ م وقعت مساومة شائنة حول هذا المنصب وذلك أن أحد الولاة أرسل يخطب الوزارة ويضمن ثمانية آلاف درهم ، فبذل الوزير الذى فى الوزارة آنذاك ستة آلاف درهم على اقراره فى الوزارة ، فأشرك السلطان فخر الدولة بينهما فى الوزارة وسامح كلا منهما بألفى درهم من جملة مابذل ، وجمع بينهما فى النظر ، ورتب أمورهما على أن يجلسا فى دست واحد ، ويكون التوقيع لهذا يوما والعلامة للآخر ، وكانا يتقارعان على من يخرج لقيادة الجيوش ، ثم سعت بينهما السعاة ودبر أحدهما للآخر فقتله (٢) .

فالخلافة وقد بلغت حدا كبيراً من الضعف وبدا التجزؤ فيها واضحا وجسيما ، واستقلت أطراف مثل الدولة السامانية فى ايران ، والدولة الغزنوية التى امتدت فى خراسان حتى الهند ، واستقل الفاطميون بمصر والشام وشبه جزيرة العرب كما استولى البريديون على البصرة والاهواز وواسط ، وأصبحت البحرين واليمامة فى يد أبى طاهر القرمطى ، ولم يبق للخليفة العباسى شأن الا فى بغداد والسلطة الفعلية للحاكم البويهى ، هذا من الناحية الادارية والسياسية ، ولكن كان هناك للخليفة تأثير دينى فى كثير من الأقاليم الاسلامية ، وفى عهد البويهيين أصبح فى العالم الاسلامى ثلاث خلفاء ، خليفة عباسى فى بغداد ، وخليفة أموى فى الأندلس وخليفة فاطمى فى القاهرة ، وهذا بالطبع من مظاهر ضعف الخلافة العباسية . وبالرغم من أن الخلافة العباسية كانت ضعيفة فانها ظلت تتنازع البقاء طوال العصر البويهى ، إذ لولا الاعتبارات الشخصية وخوف البويهيين

---

(١) ابن الأثير : ج ٩ ص ٦٧

(٢) ياقوت الحموى : ارشاد الأريب ج ١ ص ٧١

على نفوذهم من الضياع ، لكان بمقدورهم القضاء على الخلافة العباسية ، والدعوة للخليفة الفاطمي ، ويروى ابن الأثير : أن معز الدولة استشار جماعة من خواص أصحابه فى اخراج الخلافة من العباسيين والبيعة للمعز لدين الله العلوى أو لغيره من العلويين فكلهم أشار عليه بذلك ، ماعدا بعض خواصه فانه قال : ليس هذا برأى فانك اليوم مع الخليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته فلو أمرهم بقتالك لفعلوه . فأعرض عن ذلك (١).

وكان المجتمع فى بغداد تسوده الخصومات الطائفية التى أثارها البويهيون ومما زاد الطين بلة ، أن الأتراك الذين استخدمهم البويهيون كانوا يتطرفون للسنة ، والديالمة يتطرفون للشيعة ، وهذا بالطبع جر البلاد المصائب ، ففى سنة ٣٦٢هـ — ٩٧١م قامت فتنة بالكرخ فارسل الوزير الى حاجبه لقتال العامة ، وكان شديد العصبية للسنة ، فألقى النار فى أماكن كثيرة ، فاحترق الكرخ حريقاً عظيما ، وكان عدد من احترق فيه سبعة عشر الف انسان وثلثمائة دكان وثلاثين مسجداً (٢) ؛ وفى تلك الأحوال التى كانت ماثلة فى بغداد يقول ابن الأثير : وفيها كثرت الفتن بين العامة ببغداد وزالت هيبة السلطنة وتكرر الحريق فى المحال واستمر الفساد (٣) .

وأخيراً أفل نجم بنى بويه ، واضمحلت دولتهم وتقلصت مواردهم المالية حتى أفلست الخزانة ، واختلت المملكة أيام جلال الدولة وقطعت عنه المادة حتى أخرج ثيابه وآلاته وباعها فى الأسواق ، وخلت داره من حاجب وفراش وبواب ، وصار أكثر الأبواب مغلقاً ، وانقطع

---

(١) ابن الأثير جـ ٨ ص ١٧٧

(٢) المرجع السابق جـ ٨ ص ٢٣٨

(٣) المرجع السابق جـ ٩ ص ١٠٦

ضرب الطبل له فى أكثر الأيام لانقطاع الطبالين (١) . وهكذا فالأمر فى أواخر العهود البويهية كان ينذر بالخطر كما كان ينبىء باحداث جديدة ، وفى هذا الوقت كان السلاجقة الأتراك يتوسعون فى ايران وصار نفوذهم يقوى يوما بعد يوم ووجد طغرلبك الفرصة سانحة لدخول العراق والقضاء على الدولة البويهية ، فسار فى المحرم من سنة ٤٤٧هـ — ١٠٥٥م إلى همدان وأظهر أنه يريد الحج واصلاح طريق مكة والسير إلى الشام ومصر وازالة المستنصر بالله الخليفة الفاطمى ، فأمر عماله فى المناطق المجاورة للعراق بجمع الجند، ثم دخل العراق ، فاسرع الملك الرحيم آخر أمراء بنى بويه إلى بغداد، واستقر الرأى بينه وبين الخليفة العباسى القائم بأمر الله على التعاون مع طغرلبك (٢) ودخل طغرلبك بغداد والقى القبض على الملك الرحيم وارسله أسيراً إلى الرى فالقى فى السجن حتى توفى عام ٤٥٠هـ — ١٠٥٨م ، وهكذا قضى على الدولة البويهية وزال نفوذها من العراق وايران .

---

(١) ابن الأثير : جـ ٩ ص ١٢٦ ، ١٤٥ ، ١٤٦

(٢) ابن الأثير : جـ ٩ ص ٢١٢ — ٢١٣
المنتظم : جـ ٨ ص ١٦٤

كليومينيس

وسياسته المالية فى مصر فى عهد الاسكندر الأكبر

بقلم مصطفى العبادى

يعتبر عصر الاسكندر الأكبر من أهم فترات التحول والانتقال فى التاريخ العام ، ذلك أن عالما جديداً فى سياسته واقتصاده واجتماعه كان على وشك أن يولد . لهذا كانت دراسة الرجال الذين إعتمد عليهم الاسكندر والذين شغلوا مناصب أساسية فى حكمه بالغة الأهمية لفهم ذلك العصر والتطورات التى حدثت فيما بعد .

ولقد كان كليومينيس أحد أولئك الرجال البارزين ، إذ تركه الاسكندر للاشراف على مالية مصر فأصبح سيد الموقف بها والمتصرف الأول فى شئونها طيلة حياة الاسكندر . ولكليومينيس فوق ذلك أهمية خاصة بالنسبة للمهتمين بدراسة تاريخ الاسكندرية فقد اقترن إسمه بهذه المدينة منذ أيامها الأولى حتى أن كتاب الاقتصاد المنسوب لأرسطو يسميه «كليومينيس الاسكندرى (١) ولم ينسبه إلى موطنه الأصلى نقراطس كما فى الكتابات التاريخية الأخرى . والسبب فى ذلك أنه اتخذ من الاسكندرية مركزاً لنشاطه التجارى الكبير الذى شمل البحر الأبيض المتوسط فى ذلك الوقت ، مما زاد فى أهمية الاسكندرية فى العالم اليونانى عند نشأتها الأولى .

ونظراً لأن شخصية كليومينيس كانت قديما ولاتزال حديثا موضع إختلاف الكتاب والمؤرخين فلعل من الأفضل أن نبدأ بتحليل المصادر الأساسية التى نعتمد عليها فى دراستنا لشخصيته وأعماله . من سوء الحظ

---

(١) Ps. Aristot. Oec. II. 33, Κλεομένης Ἀλεξανδρεύς.

أن الوثائق المعاصرة له تكاد تكون منعدمة حتى الآن باستثناء عدد قليل من المعلة عثر عليه ، ولهذا كان اعتمادنا كله على المصادر الأدبية ونقصد بها كتابات المعاصرين والمؤرخين اللاحقين الذين تعرضوا للاسكندر وعصره ، وهي تنحصر في كتب ثلاثة : الأول خطبة تنسب خطأ للخطيب الأثيني الكبير ديموستنيس ، والثاني هو الباب الثاني من كتاب الاقتصاد المنسوب إلى ارسطو ، والثالث هو ما كتبه المؤرخ اريانوس عن حياة الاسكندر الاكبر .

أما عن المصدر الأول وهو الخطبة التي نسبت خطأ إلى ديموستنيس(٢) فسبب نسبتها إلى الخطيب الأثيني الكبير أنها أضيفت إلى المخطوطات القديمة لمجموعة أعماله وظلت كذلك حتى أثبت النقاد المحدثون أن هذه الخطبة ليست لديموستنيس وأنها ألقيت عقب وفاته مباشرة سنة ٣٢٢ ق.م. ومع ذلك فهي تعتبر وثيقة معاصرة في الدرجة الأولى من الأهمية ، لأنها كتبت بيد محام أثيني في قضية ضد أحد أعوان كليومينيس نفسه في أثينا . وهذه الخطبة تزودنا بمعلومات فريدة عن شبكة السماسرة الذين كانوا يعملون لحساب كليو مينيس في المراكز التجارية الرئيسية في البحر الأبيض المتوسط للسيطرة على تجارة القمح الدولية . ولكن أمراً واحداً يجب أن نحتاط له عند قراءة هذه الخطبة ، وهو أن أسلوبها البليغ في حملته القاسية ضد كليومينيس قد يجرفنا تياره . فالخطبة كتبها محام محترف ؛ وهي موجهة ضد كليومينيس وأعوانه لتلاعبهم بتجارة القمح في أثينا . وكما نتوقع في مثل هذه الظروف فالمحامي ينتحل كل حيلة قانونية ووسيلة بلاغية للنيل من كليومنيس وأعوانه كي يكسب القضية . ولهذا وجب على المؤرخ المدقق أن يأخذ كلامه بحذر شديد وأن يتبين مقدار المبالغة فيه .

---

(٢) Dem. LVI. (O. C. T.)

أما عن المصدر الثانى ، وهو الفصل الثانى من كتاب الاقتصاد الذى ينسب خطأ أيضا إلى أرسطو(٣) ، فمن المرجح أنه كتب فى نهاية القرن الرابع ق.م. بيد واحد من تلاميذ أرسطو نفسه من المشائين الأولين (٤) . ومع ذلك فيمكننا أن نقبل قيمته التاريخية (٥) بكل اطمئنان نظراً لأنه دراسة معاصرة للأحوال الاقتصادية فى القرن الرابع بأسلوب جاد لم يسبق من قبل . ويقع الكتاب فى جزئين ، الأول يعتبر أول محاولة من نوعها لوضع نظرية اقتصادية ، والثانى — وهو موضع اهتمامنا هنا — يحوى أقاصيص تتعلق بأعمال ومناسبات إقتصادية . فى هذا الجزء الثانى يذكر المؤلف سبع مناسبات لكليومينيس تمثله شخصية انتهازية لاتعبأ كثيراً بالوسائل مادامت تؤدى إلى الأهداف التى يسعى اليها . ولكن يجب أن نذكر هنا أن هذه الأقاصيص لا تعطينا وصفاً كاملا لسياسته الاقتصادية ، فكلها تروى إجراءات أتخذت فى ظروف استثنائية ، وهو طابع هذا الجزء من الكتاب .

أما المصدر الأخير فهو كتاب المؤرخ أريانوس عن فتوح الأسكندر ، ويتضمن معلومات تاريخية قيمة عن عصر الاسكندر وخاصة فى النواحى العسكرية والسياسية والادارية . ورغم أن إريانوس كتب فى القرن الثانى الميلادى إلا أنه استقى مادته من كتابات إثنين من أصحاب الاسكندر نفسه ، وهما أرستوبولس والملك بطليموس الأول . ويذكر أريانوس أنه اعتمد بنوع أخص على بطليموس ، وأن استعانته بأرستوبولس قد اقتصرت على مجرد تكملة أو ملء فجوات فى رواية الآخر . ويبدو أنه شعر أن هذا التميز بين مصدريه إحتاج إلى مايبرره فقال فى افتتاحية كتابه بما أن بطليموس كان ملكا فان تزييف الحقائق كان يسىء إليه أكثر

---

(٣) أنظر B. A. Van Groningen : Aristote, Le second Livre de l' Economique, Leyde, 1933,

الذى يعتبر خير طبعة لهذا الكتاب ، ويتضمن مقدمة دراسية وحواشى وافية .

(٤) ibid. pp. 34, 43

(٥) ibid. p. 5.

أكثر مما يسيء إلى أى شخص آخر . (٦) ونحن الآن بعقولنا الحديثة قد نسخر من سذاجة هذا المؤرخ القديم الذى كان لايزال يحسن الظن بالملوك ؛ ولكن الواقع أن أريانوس أسدى للتاريخ خدمة جلى باعتماده على بطليوس الذى كتب خير تاريخ للاسكندر على الاطلاق ؛ ولولا اعتماد أريانوس عليه لضاع كل ماكتب بطليوس . وتاريخ بطليوس قيم لا لأنه كتب بيد ملك ولكن لأنه كاتبه كان قائداً من الطراز الأول ومن المقربين إلى الاسكندر ، وقد استخدم فى كتابة تاريخه يوميات الاسكندر نفسه . لهذا كله كان بطليوس حجة فى الجوانب العسكرية لحملة الاسكندر وثقة فى دراسة شخصية الاسكندر وحياته الخاصة . أما إذا تعدينا ذلك إلى جوانب الادارة والسياسة فان ثقتنا فى بطليوس تأخذ فى الانكماش ، والسبب فى ذلك أن مصلحة بطليوس السياسية تدخل هنا فى الاعتبار ، لأن سياسة الملك واسلوبه فى الادارة كان يختلف عن مناهج الاسكندر . والملوك فى ذلك مثل السوقة يضيقون بما يضر بمصالحهم ويحتالون على تغييره أو إخفاء معالمه . هذا من الناحية العامة أما فيما يتعلق بموضوع دراستنا وهو كليومينيس فان كل مايذكره بطليوس عنه يجب أن يوضع موضع الشك الشديد ، وذلك لما نعرفه عن الخصومة التى نشأت بينهما حين أصبح بطليوس واليا على مصر وكان كليومينيس هو المتصرف فى خزائنها . فضاق كل منهما بالآخر وانتهى الأمر بأن لفق له بطليوس التهم وحاكمه وقتله . لهذا كان من الطبيعى أن حرص الملك بعد ذلك على تشويه سمعة كليومينيس لتبرير مسلكه وليؤكد أن عهده كان خيراً من عهد سلفه .

هذه بعض ملاحظات عن مصادر دراستنا رأينا أن نقدم بها حتى لا نتورط نحن فيما ذهب إليه أصحابها من أحكام ومبالغات عن كليومينيس .

* * *

(٦) Arrian, I. 1, 2; also cf. VI. 2, 4.

أما عن تاريخ الشخصية التى نحن بصدد دراستها فالغموض يكتنفها فى أكثر من جانب وفى أكثر من فترة . فنحن لانكاد نعرف شيئاً عن حياته باستثناء العقد الأخير منها . ولكن نعرف من اسمه أنه إغريقى من مدينة نقراطس؛ ولما كانت الوظيفة الأولى لهذه المدينة هى أنها مركز للتبادل التجارى بين اليونان ومصر ، فليس من شك فى أن العمل الأساسى للجالية اليونانية هناك كان التجارة . لهذا فمن المرجح أن كليومينيس كان أحد هؤلاء التجار الاغريق فى نقراطس . ولكنه يظهر على مسرح التاريخ المسجل لأول مرة فى النظام الادارى الذى وضعه الاسكندر الأكبر لحكم مصر (٧) . والمعالم الأساسية لهذا النظام هى أن مصر قسمت إلى إقليمين شمالى وجنوبى ، وعهد بادارة كل منهما إلى حاكم يحمل لقب نومارخس Nomarchos ، وحينما تحمى أحدهما المسمى بتريس Petisis ، قام الآخر دولاسبيس Doloaspis بادارة الاقليمين معاً . كما عين الاسكندر بيو[ر]كستيس بن ماكارتاتوس (Peucestes son of Macartatus) وبلاكروس ابن أمنتاس (Balacrus son of Amyntas) لقيادة الحامية العسكرية التى خلفها فى مصر ؛ أما الأسطول فقد عين بوليمون بن تيرامينيس (Polemon son of Theramenes) قائداً له . وكذلك عين ضابطين آخرين لقيادة الحاميتين عند ممفيس والفرما .

بالاضافة إلى هذا النظام اهتم الاسكندر اهتماما خاصاً بحدود مصر الغربية والشرقية ، فعين حاكمين أو محافظين للمنطقتين : أبو للونيوس بن خاريتوس (Apollonius son of Charinus) على ليبيا ويقصد بها صحراء مصر الغربية ؛ وكليومينيس النقراطيسى على «الصحراء العربية»(٨) ويقصد بها الصحراء الشرقية ، شرق الدلتا إلى البحر الأحمر ، ولكن لم تكن هذه هى الوظيفة الوحيدة التى أسندت إلى كليومينيس بل عهد إليه بأخطر

---

(٧) أنظر وصف النظام فى Arrian, III. 5. وتحليلا له فى E. Bevan, A History of Egypt under the Ptolmaic Dynasty, 1927, pp. 15 f.

(٨) Arrian, III.5.4

وظيفة فى النظام بأسره وهى الاشراف على الخزانة والشئون المالية ؛ وقد أمر الاسكندر حكام الأقاليم أن يستمروا فى ادارة أقاليمهم بنفس الأسلوب الذى اعتادوه من قبل ، على أن يجمعوا الجزية التى فرضها عليهم وأن يسلموها بدورهم إلى كليومينيس (٩) .

مهمة ثالثة عزيزة إلى قلب الاسكندر عهدت إلى كليومينيس وهى الاشراف على إنشاء وتعمير مدينة الاسكندرية الجديدة (١٠) .

هذه هى المعالم الأساسية للنظام الذى وضعه الاسكندر لحكم مصر ؛ على أن ظاهرة هامة تثير انتباهنا عند النظرة الأولى لهذا النظام وهى خلوه من منصب السلطة العليا فى البلاد ؛ فليس فيه مكان لحاكم عام أو وال لمصر بأسرها . وإنما وزعت السلطة بعناية بين الموظفين الاداريين والعسكريين والماليين ، دون وجود رئيس لهم جميعاً . ولقد لاحظ المؤرخ القديم أريانوس هذه الظاهرة وفسرها بأن الاسكندر تعمد هذا الوضع حتى يمنع أى شخص من أن يزداد سلطانه على الآخرين ويستقل بالولاية (١١) . ونحن ندرك ما يقصد إليه إريانوس وباستطاعتنا أن نقبل تفسيره دون تساؤل ، غير أن الصعوبة تنشأ حينما نجد أن المصادر المعاصرة تصف كليومينيس بأنه «حاكم مصر» . فكتاب الاقتصاد يقرن اسمه بلقب «ساتراب» (١٢) ، وهو لقب حاكم الولاية فى النظام الفارسى ، واستخدمه اليونان أحيانا فى حالة الولايات الشرقية والأسيوية . وتتحدث الخطبة المنسوبة إلى ديمستنيس عن «كليومينيس حاكم مصر ... ، ومنذ أن تولى الحكم» (١٣) . ولقد أفاض

---

(٩) المصدر نفسه .

(١٠) وردت هذه الحقيقة فى كل من Justinus, XIII. 4. 11, ; Oec. II. 33 (=1352.a. 28)

(١١) Arrian. III. 5. 7.

(١٢) Oec. II. 33 (1352. Q. 15) : *Κλεομένης Ἀλεξανδρεὺς Αἰγύπτου σατράπευεν.*

(١٣) Dem. LVI. 6 ؛ وانظر أيضا Arrian, VII 23.8, حيث يستخدم لفظ ἀρχή = حكم ؛ وكذلك Arrian, Succ. 5 فى *σατραπεία*

الأستاذ فان جرونجن فى بحث هذه المشكلة وانتهى إلى القول بأنه رغم أن النص الصريح يعوزنا ، فمن المحتمل أن يكون الاسكندر قد غير خطته بعد عودته من الهند ومنح كليوميئيس ذلك السلطان الأعلى فى الولاية وجعله «ساتراب»(١٤) وأخيراً إتخذ المؤرخ تارن موقفاً مشابها حين إقترح أن من المحتمل أن دولاسبس — الحاكم الذى عينه الاسكندر دون أن يكون له منصب ساتراب — توفى بينما كان الاسكندر فى الشرق ، فأمر الاسكندر الموظف الذى يليه فى الأهمية — وهو كليوميئيس — أن يباشر شئون الحكومة حتى يتمكن هو (أى الاسكندر) من أن يبت فى الأمر ... ويضيف تارن بعد ذلك «وبطبيعة الحال سلك كليوميئيس مسلك الحاكم المتمكن (١٥) .

وكلا الرأيين مغر ، إذ يبدوان وكأنهما يحلان المشكلة فى حين أنهما فى الواقع يتجنبانها . فمن الممكن أن نتصور أن الاسكندر قد غير خطته فى حكم مصر ، ولكن ليس لدينا دليل على ذلك فسندنا الوحيد على أن الاسكندر عين كليوميئيس والياً هو الكاتب المشهور بوزانياس Pausanias (١٦) ولكنه لسوء الحظ يقف بمفرده فى هذه الدعوى ، كما أن سنده التاريخى يعتبر ضعيفاً فى مثل هذه الأمور ؛ هذا مع العلم أنه كتب فى القرن الثانى الميلادى أى بعد الاسكندر بنحو خمسة قرون . وباستثناء عبارة بوزانياس فان جميع المصادر تتفق فى أن نظام الاسكندر لادارة مصر كان خالياً من منصب «ساتراب» ؛ وأنه من المحتمل أن الاسكندر فعل ذلك عمداً كما يقترح أريانوس الذى كان أكثر دراية بعصر الاسكندر والذى اعتمد فى أحكامه على كتابات معاصرة للاسكندر .

---

(١٤) P.A. Van Gnoningen, De Cleomene Naucratita Mnemos. 53 (1925) 113 ff.

(١٥) W. W. Tarn, Alexander the Great, II (1948) 303 n. 1.

(١٦) *Κλεομένης ὃν σατραπεύειν Αἰγύπτου Κατέστησεν Ἀλέξανδρος* Paus. I. 6. 3

ويؤيد ماذهب اليه أريانوس أن المؤرخ كورتيوس روفوس (١٧) ينص على أن مصر تركت فى أيدى القائدين العسكريين ، وأن الحاكمين المصريين كانا على رأس الادارة المحلية ؛ أى عثاية وسطاء بين المصريين من ناحية والاسكندر وموظفيه من ناحية أخرى .

هذه هى بعض الاعتراضات التى يمكن أن تثار ضد الاقتراحين اللذين إقترحهما فان جرونينجن وتارن ؛ ومع ذلك فيحق لنا أن نتساءل لماذا برز كليوميتيس دون سائر الموظفين الى هذه المكانة المرموقة . وللاجابة على هذا السؤال نقول إن إهتماما كبيراً فى الامبراطوريات القديمة كان يلقى على الجانب المالى ومواد التموين التى يمكن الحصول عليها من الولاية وهذه الناحية بالذات كانت بالغة الأهمية بالنسبة للاسكندر الذى كان لايزال مشغولا فى فتوحه ، وكان فى حاجة إلى مدد مستمر من المال والمؤن،لهذا السبب كان الشخص الذى أشرف على الشئون المالية فى الولاية أكثر أهمية ، وله من السلطات مامكنه من أن يبعث للملك بالمال والمؤن اللازمة . وبعض الاشارات المتفرقة تبين أن مثل هذه الامدادات كانت ترسل من مصر ، وأن الاسكندر كان على علم مستمر بسير الأحوال فى الولايتين وكان يبعث إلى كليوميتيس بارشاداته وتوجيهاته عند الضرورة (١٨) . وبسبب عدم وجود منصب ساتراب فى الولاية كان أمام كليوميتيس فرصة هائلة لملأ هذا الفراغ وأن يصبح المتصرف الفعلى فى شئون الولاية دون أن يتولى منصب الحاكم رسميا ؛ وقد أعانه على ذلك مواهبه الشخصية وتعدد مسئولياته فى الحكومة .

وإذا قارنا كليوميتيس بغيره ممن تولوا الشئون المالية تحت حكم الاسكندر فى الولايات الأخرى نجد أن شخصية كليومنيس لاتختلف كثيراً

---

(١٧) Curtius Rufus, IV. 8. 4.

(١٨) أنظر Athen. IX .493 c ، رغم أنه قد ثبت أن الخطاب الذى ينسب إلى الاسكندر والمرسل إلى كليوميتيس مزيف ، الا أنه من المحتمل أن مثل هذه الخطابات تبودلت بين الاسكندر وكليوميتيس . الخطاب ذكر فى Arrian, VII .24.6 ولنقده أنظر

Tarn, Alexander, II. pp. 304 -6.

عن هذه الطبقة من كبار الموظفين فى ولايات الامبراطورية الأخرى . وخير مثال نستشهد به هو هاربالوس (١٩) أبرز هؤلاء الموظفين الذى كان له من شدة الطموح والرغبة فى السيطرة مما جعل الاسكندر يقرر التخلص منه . وإذا أضفنا فى حالة كليومينيس علاقاته التجارية مع بلاد اليونان ، لأصبح من السهل أن ندرك إمكان إطلاق ألقاب حاكم وساتراب (σατράπευων ἄρχων) على الرجل الذى سيطر على شئون مصر فى حياة الاسكندر ؛ فلم يكن هناك مفر من مواجهة كليومينيس عند التعامل مع مصر .

هذه الوقفة الطويلة عند النظام الذى وضعه الاسكندر لحكم مصر يمكن إلتماس العذر لها إذا كنت قد وفقت فى تبيان مركز كليومينيس الخاص فى مصر . فعلى أساس مركزه القوى فى الحكومة أمكنه أن يقوم بنشاطه التجارى الهائل فى البحر الأبيض المتوسط . والآن ننتقل إلى وصف هذا النشاط وأسلوبه ؛ ويحسن بنا أولا أن نذكر أن وظيفة كليومينيس الأولى كمحافظ أو مدير للصحراء «العربية» لم تكن بالغة الأهمية . ويبدو على أى حال أن الاسكندر لأغراض عسكرية أنشأ وحدة إدارية جديدة تشمل جميع المنطقة من القوما إلى فلسطين عما فى ذلك الساحل ومايليه من الصحراء فى الجنوب ، ولعلها شملت أيضا المديريتين القديمتين شرق الدلتا(٢٠) بهذا المعنى تعتبر هذه الوظيفة تجديداً إداريا استحدثه الاسكندر ، كما فعل فى حالة إقليم ليبيا الادارى غربى الدلتا (٢١) لم ترد لنا أى أخبار عن نشاط

---

(١٩) Tarn, Alexander, I. 123-9 etc.

(٢٠) عن التقسيم الادارى لمصر القديمة أنظر :

H. Gauthier, Les Nomes d'Egypte depuis. Hérodote jusqu' à la Conquête Arabe, Le Caire, (1935) pp. 138. gf :

وكذلك كتاب :

A. H. M. Jones, The Cities of the Eastern Roman Provinces (1938) pp. 299 gf .

(٢١) Arrian . III . 5 . 4

كليومينيس فى الصحراء العربية ، ولكن يبدو أن الطريق من مصر إلى فلسطين وبابل كان قد أمن للنقل والتجارة وأن البعثات المختلفة تبودلت بين الملك والقائم على خزائن مصر .

على أن المجال الذى أظهر فيه كليومينيس تفوقاً غير عادى كان مجال التجارة والاقتصاد وعلى الرغم من أن الدليل القاطع يعوزنا فقلما يشك أحد فى أن كليومينيس كان أحد كبار تجار الاغريق فى نقراطس أصلا ، وأن معلوماته الخاصة عن أحوال مصر الاقتصادية كانت الباعث على اختيار الاسكندر له ليتولى الاشراف على خزائن مصر . وما من شك أن ألفاظ مؤلف كتاب الاقتصاد تصف كليومينيس أتم وصف حيث يقول : « يلزم لمن يتصدى لولاية الأمر أن يكون ملماً إلماما تاما بأحوال البيئة التى يلى أمرها ، وأن يكون متمتعاً بسلامة الفطرة والاستقامة الشخصية وحب العمل » (٢٢) .

كان كليومينيس أشد مايكون حاجة إلى المال ليقوم بمسئولياته المختلفة ، وهى إنشاء مدينة الاسكندرية الجديدة وإرسال المؤن والأموال التى كان يأمرها الاسكندر ، ثم يضاف إلى هذا تمويل الادارة والجيش فى البلاد : وفوق ذلك كله يجب أن نذكر أن مصر كانت تعانى فى هذا الوقت من آثار فترة التدهور والتأخر بسبب الحكم الفارسى الذى سبق عصر الاسكندر ولعل مجرد جمع الضرائب العادية من المزارعين لم يكفى لسد جميع التزامات كليومينيس ومن أجل التغلب على هذه الحالة والتمكن من تنفيذ مشروعاته لجأ كليومينيس إلى بعض الاجراءات الاستثنائية فى المجالين المالى والتجارى للحصول على أكبر قدر ممكن من المال وقد وجد هدفا مناسباً فى طبقة الكهنة ، أغنى وأقوى طبقة فى مصر فى ذلك الوقت . بعض أفرادها يمتلكون ضياعاً واسعة ، كما المعابد تملك مساحات هائلة من أرض مصر ، وتتحكم فى صناعة كبيرة تعتمد على منتجات أرضهم . وقد بدأ كليومينيس

---

(٢٢) Oec. II. i. 1 (= 1345. b. 7)

بتجريب قوته الجديدة ضد هذه الطبقة ، ونجحت المحاولة وأثبتت أن هذه الطبقة كانت أخذة فى الضعف . ولدينا قصتان توضحان مسلك كليومينيس تجاه الكهنة . الأولى تتعلق بكهنة التمساح المقدس فى مديرية التمساح (التى سميت فيما بعد بمديرية أرسنوى فى العصر البطلمى بعد عام ٢٧١ ق.م. وهى الآن محافظة الفيوم) وتروى القصة أنه بينما كان كليومينيس مبحراً ذات يوم فى تلك المديرية ، حيث كان التمساح يعبد ، إختفى أحد رجاله . على أثر ذلك إستدعى كليومينيس الكهنة وانبأهم أنه انتقاما من هذا الاعتداء على أحد رجاله دون سبب سوف يقوم بصيد التماسيح . أمام هذا الانذار قرر الكهنة — إرضاء لكليومينيس — جمع مبلغ ضخم من المال وإعطاءه له حتى لاتحيق الاهانة بالآلهة . وفعلا نجح أسلوب الكهنة فى الاعتذار وهدأ المال غضبة الوزير (٢٣) .

أما القصة الثانية فتروى حادثة أخرى أكثر جدية وأكثر قيمة من من الناحية التاريخية ؛ فهى تصور لنا حملة واسعة النطاق ضد طبقة الكهنة فى مصر بأسرها . فى هذه المناسبة جمع كليومينيس جمهور الكهنة وأخبرهم أنه يرى أن هناك اسرافاً فيما ينفق على المعابد ومن أجل خفض النفقات يقترح أن تلغى بعض المعابد وكذلك مناصب عدد من الكهنة . فأسقط فى أيديهم وظنوه جاداً فى دعواه ، فجمعوا مبالغ كبيرة من المال من حسابهم الخاص ومن أموال المعابد وقدموها إلى كليومينيس ، مما جعله يعدل عن عزمه (٢٤) .

يجدر بنا عند هذه المرحلة أن نتساءل إن كان يحق لنا أن نصدق كل مايرد فى هذه القصص . ولعل قائلا يقول إن هى إلا بعض أساطير ومبالغات صدرت عن غير ثقة كما هو الحال فى كثير من قصص هيرودوت . وهو قول محتمل جداً لولا أن أعمالا أخرى من نفس النوع صدرت عن

---

(٢٣) Oec. II. 33 (1352. a. 23 f.)

(٢٤) Oec. II. 33 (1352. b. 20 f.)

كليومينيس وروبت فى الكتاب نفسه ، وتدعمها أدلة أخرى مستمدة من كتابات معاصرة أيضا كما سرد بعد قليل فيما يتعلق بتجارة القمح . فمن المقبول عقلياً إذن أن هذه القصص — ولو أنها قد زيد عليها قليلا أو بولغ فيها بعض الشيء ليتسق الاطار القصصى — تصف أعمالا حقيقية صدرت عن كليومينيس وتصور منهجه وأسلوبه فى تدبير السياسة المالية . فهى تكشف لنا عن سياسة موجهة ضد المعابد والكهنة ، وأن كليومينيس كان يهدف إلى الاقلال من ثروتهم والاضعاف من سلطانهم فى البلاد ، حتى يسهل له قيادهم آخر الأمر . هذا الاتجاه يختلف تماما عن اتجاه الاسكندر الذى كان يظهر للآلهة كل إكبار وتقدير ، حتى لقد بلغ من شدة عاطفته الدينية بحيث يمكن أن يوصف معه بأنه كان متطيراً أكثر منه ورعاً . ولعل من الغريب أن يقدم كليومينيس على مثل هذه الأعمال دون أن يخشى غضب الاسكندر . ويبدو أن هذا الخاطر قد عرض للمؤرخين القدماء ؛ وفسروه بأن الاسكندر كان شديد الثقة فى كليومينيس ، وأوردوا خطابا نسبوه للاسكندر ووجهوه إلى كليومينيس ، يؤكد فيه الاسكندر أنه قد صفح عن كل ماصدر من كليومينيس . ولكن ثبت من النقد العلمى الحديث أن هذا الخطاب غير صحيح وأنه تزييف لاحق على عصر الاسكندر بما لا يقل عن خمسين سنة (٢٥) . ولكن يمكننا بطريقة أخرى أن نفسر إستمرار ثقة الاسكندر فى خازنه حتى بعد عودته من الهند حين لم يحتمل سلوكا مشابها من أمناء خزائنه الأخرين والذين كانوا أكثر قرباً من الاسكندر . (٢٦) فمن المحتمل — كما يبدو من لغة القصص ولهجتها — أن هذه الأعمال حدثت فى فترة مبكرة من تولى كليومينيس منصبه ، أى فى الوقت الذى كان لايزال يسعى فيه إلى تثبيت مركزه واحكام سيطرته على مالية البلاد ، وذلك هو الوقت الذى كان فيه الاسكندر مشغولا كل الانشغال بحروبه ضد فارس والهند .

---

(٢٥) الخطاب ورد فى Arrian, VII. 23, 6 - 7 ولنقده أنظر Tarn, Alexander the Great, II, pp. 304 ff.

(٢٦) أنظر كتاب تارن المؤلف نفسه .

إن جميع أعمال كليومينيس سواء ضد الكهنة أو غير ذلك كانت تهدف إلى غاية واحدة وهي صالح الخزانة . وهو في ذلك لم يقصر نشاطه على القيام بأعمال أمين الخزانة ، ولكن دبر أمر خزانة الدولة على نحو مايدبر التاجر حسابه الخاص . فان أعمال كليومينيس تعتبر تجربة لها أهميتها بالنسبة لدارسي تاريخ الاقتصاد والمال ؛ وكم نحن في حاجة إلى وصف كامل لسياسته المالية ، إذ كل ما وصل إلينا من أخباره لا يعدو اجراءات متفرقة — مثل النماذجين الماضيين — تبدو كأنها قد تمت في ظروف إستثنائية . ومع ذلك فهي تكشف عن نوع من السياسة الاقتصادية ذات طابع معين . فخطته ضد الكهنة كان لها نتيجتان : زيادة في قوته المالية من ناحية ، واضعاف لطبقة الكهنة كمنافس له في الداخل . على أن أعمالا أخرى قام بها كليومينيس تعتبر أكثر دلالة في هذا المجال لأنها تكشف عن سياسة مرسومة تهدف إلى سيطرة الدولة ممثلة في شخص كليومينيس على إقتصاد البلاد ومعلوماتنا عن هذه الأعمال مستقاة من كتاب الاقتصاد نفسه ومن الخطبة المشهورة «ضد ديونيسود وروس المنسوبة إلى ديموستينيس . الأول يزودنا بأعمال إقتصادية ثلاثة ؛ والخطبة تعطينا وصفا شيقا لأسلوب كليومينيس في إدارة تجارته العالمية .

إثنان من أعمال كليومينيس الواردة في كتاب الاقتصاد لهما دلالتهما ؛ إذ أنهما يمثلان قمة في سياسته الاقتصادية ، ونقصد بذلك إحتكار تصدير القمح المصري إلى الخارج . في الحادثة الأولى نرى محاولة محكمة للقضاء على المنافسة المحلية ووضع الاحتكار موضع التنفيذ (٢٧) فهو يصدر أوامره في بادىء الأمر بمنع تصدير القمح ؛ ولكن يحدث أن يحتج حكام الأقاليم المصريون ويدعون أنهم سيعجزون عن جمع ودفع الضرائب المطلوبة إذ حظر عليهم تصدير القمح الذي كان مصدر ربح كبير . فتفاوضهم كليومينيس وإقترح حلا وسطا يحقق له كل ما يهدف إليه

(٢٧) Oec. II. 33 (1352. a. 17 ff.)

ويحظر على المصريين مظهر إمكان التصدير . ذلك أنه سمح بالتصدير مقابل ضريبة عالية جدا ، مما أدى إلى الاضعاف كثيراً من المنافسة المحلية ؛ وفى الوقت نفسه سيجنى ضرائب هائلة على الكميات القليلة من القمح التى سيصدرها الأفراد بعد ذلك .

ويذكر مؤلف كتاب الاقتصاد فى تقديمه لهذا النبأ بأن هذا حدث فى وقت كانت مصر تعانى فيه من قلة المحصول بينما انتشرت مجاعة شديدة فى سائر البقاع . وكليومينيس الذى كان يتمتع بكافة صفات الرأسمالى الطموح أراد أن يستغل هذه الظروف إلى أقصى حد ، فأتبع هذه الخطوة بخطوة أخرى أشد خطورة وأبعد أثراً فى أحكام سياسية الاحتكار . فجمع كبار منتجى القمح فى مصر وساومهم فى الثمن الذى به يبيعون له محاصيلهم . وكان سعر السوق آنئذ هو عشر درخمات للكيل الواحد ؛ ومع ذلك عرض المزارعون ثمنا أقل من ذلك — ولعلهم شكوا فى نواياه وظنوه سيعرض ضريبة جديدة بنسبة السعر . ولكن كليومينيس — لدهشتهم الكبيرة — عرض عليهم سعر السوق الأعلى ؛ وبذلك استولى على كافة المحصول وباعه فى الخارج بأثنين وثلاثين درخمة ؛ أى بأكثر من ثلاثة أمثال قيمته (٢٨) .

فى هذين المثالين حقق كليومينيس سياسة إحتكارية صريحة ، لأن علم الاقتصاد يخبرنا أن الاحتكار يمكن تحقيقه بأساليب مختلفة أهمها فرض ضريبة عالية جداً ، أو بطريق التفرد بحق انتاج المواد الخاضعة للاحتكار ، أو بطريق ثالث وهو أن يصبح الفرد منتجاً أو بائعاً فى ظل ظروف تمنع فى الواقع المنافسة الحرة . ومثل هذه الشروط تتفق تماماً مع أعمال كليومينيس كما أننا إذا أردنا أن نحكم على كليومينيس بالمقاييس الاقتصادية المعاصرة الواردة فى كتاب الاقتصاد باعتبار أنها تمثل خلاصة علم الاقتصاد السياسى

---

(٢٨) Oec. II. (33 1352 b. 14 ff.)

كما فهم فى النصف الثانى من القرن الرابع ق.م. ، فما من شك أن كليومينيس كان على علم تام وتجربة كافية بالاقتصاد السياسى ودراسته (٢٩) .

وما ينبغى أن تقتصر معرفة المحتكر على العلم بالنظرية وأساليب تطبيقها ، بل يلزم عند ممارسته سياسة إحتكارية أن يكون على علم تام بأحوال الأسواق التى يشملها نشاطه التجارى . ودراستنا لكليومينيس تبين أنه كان مدركاً لأهمية هذا الجانب التطبيقى فى عمله وأنه الركيزة التى يتحقق بها نجاحه . فهو لم يقصر أبداً عن متابعة السوق العالمية التى كان يتعامل معها ؛ فاذا ماحدثت مجاعة فى العالم اليونانى (٣٠)وندر القمح قام هو بتوريده بأسعار تصل إلى ثلاثة أضعاف قيمته الحقيقية فى الظروف العادية . وذلك أن الحروب المتتالية التى أعقبت موت الاسكندر الأكبر أدت إلى حدوث مجاعة بين عامى ٣٣١ — ٣٢٨ ق.م. ونحن نستطيع أن نعين تاريخ إجراءاته الخاصة بتصدير القمح السالفة الذكر فى تلك الحقبة . فقد استبان كليومينيس ما كان حادثا فى الخارج واستطاع بدقته وسرعته ونظامه أن يواجه الموقف وأن يستفيد منه . وقد استطاع أن يحدد سعر بيع القمح باثنتين وثلاثين دراخمة لأنه كان واثقا أن إنتشار المجاعة هناك ستمكنه من البيع بذلك السعر المرتفع (٣١)

---

(٢٩) انظر بنوع خاص Occ. II. 2-3 حيث يتحدث المؤلف عن مسئوليات الحاكم الإقتصادية التى يلخصها فى أربع نقط : العملة والتصدير والاستيراد والنفقات العامة (*περὶ νόμισα, περὶ τὰ ἐξαγώγιμα, περὶ τὰ εἰσαγώγιμα, περὶ τὰ ἀναλώματα*)

(٣٠) M. Rostovtzeff: Social and Economic History of The Hellenistic World pp. 94 - 105 and 108.

(٣١) أقترح ريزلر (Riezler , Monopole, p.33) أن ٣٢ دراخمة كان سعر القمح فى أثينا ، مفترضا أن هذا هو المقصود بعبارة τριάκοντα δίδραχμοι الواردة فى Pollux. IV. 165 ، ولكن ليس هناك دليل أن هذا هو مايقصده بولوكس Pollux ، فهو يذكر أمثلة لكلمات مركبة من الأرقام واستعمالاتها مثل "καὶ [τό] δίδραχμοι ὀπμῖται *τριάκοντα δίδραχμοι* أو فى قراءة أخرى *καὶ τριακοντά δράχμοι πύροι*" ولكن بولوكس لايذكر ولايقترح أن هذا هو سعر القمح فى تاريخ محدد وهو مانحن فى حاجة لمعرفته بالنسبة لكليومينيس . ونحن نعتمد فقط فى تقدير السعر على ماورد فى كتاب الأقتصاد Oec. II. 33 (1352, b. 14. ff.) الذى يؤيده ما ورد فى الخطبة المنسوبة الى ديموسثينيس Dem. LVI. 7 ff من أن وسائل كليومينيس أدت الى أرتفاع أسعار القمح .

ومن حسن الحظ أن لدينا وثيقة هامة جداً وهى الخطبة ضد ديونيسودوروس» (Dionysodoros) التى تبين لنا كيف استطاع هذا المحتكر الفذ أن يدبر شبكة هائلة من الوكلاء والسماسرة فى الخارج ، وأن هؤلاء كانوا يزودونه بأحوال السوق فى الخارج وانهم كانوا يتعاقدون باسم لتوريد القمح وغيره . والصورة التى ترسمها الخطبة — رغم حرارة اللغة المستعملة — هامة جداً إذ أنها توضح بالمثال كيف كانت تدار شئون هذه التجارة .

كتبت هذه الخطبة لمهاجمة أحد سماسرة كليوميديس فى قضية أقيمت ضده فى أثينا . فقد تعاقد هذا السمسار بالتضامن مع زميل آخر على قبول قرض مبلغ ٣٠٠٠ دراخمة مقابل توريد قمح من مصر إلى أثينا . ولكنهما نقضا شروط العقد وبدلا من توريد القمح المتعاقد عليه إلى أثينا ، أفرغت السفينة حولتها فى رودس . السمساران اللذان يعملان لحساب كليوميديس هما ديونيسودوروس — المتهم الأول فى القضية — وبارمنسكوس . وكان الأخير قد أبحر بالسفينة عائداً إلى مصر بينما بقى ديونيسودوروس فى أثينا . ولعل من الأنسب هنا أن نستمع إلى ماتورده الخطبة بشأن هؤلاء السماسرة .

"هؤلاء الرجال هم عملاء وأعوان كليوميديس الحاكم السابق لمصر ، والذى منذ أن تولى الحكم هناك كان سببا فى أذى كبير لحق أثينا وسائر العالم اليونانى عن طريق شراء القمح كله وبيعه ثانية ، وتحديد سعره كما يشاء . ولاحكام تنفيذ خطته كان يتخير أعوانا له من هؤلاء الرجال يعملون على هذا النحو : بعضهم يبعث بالسلع من مصر ، وآخرون يبحرون بها فى سفنهم ، بينما يقيم آخرون فى أثينا لتوزيع الشحنة . ثم يحدث أن يرسل هولاء الذين يقيمون فى أثينا برسائل إلى الوكلاء الآخرين يحيطونهم علماً بحالة الأسعار ، بحيث إذا كان السعر مرتفعاً فى أثينا أحضروا القمح اليها ،

أما إذا انخفض السعر فيها ذهبوا بالقمح إلى ميناء آخر . وهذا هو السبب الرئيسى لارتفاع أسعار القمح ، أقصد هذه المراسلات وتلك المؤامرات"(٣٢).

هكذا تصف الخطبة شبكة الوكلاء الذين كانوا يعملون لحساب كليومينيس ، وتورد بعد ذلك تفصيل ماحدث من الوكيلين موضع الاتهام فعندما عقدا الاتفاق فى أثينا كان السعر مرتفعاً لندرة القمح هناك ؛ ولم يتوقعا تغير أحوال السوق بسرعة ، إعتقاداً منهما أن أى قمح سيرد من مصر أى من صاحبهم كليومينيس الذى سيخبرهم ، فهم وكلاءوه فى أثينا . ولكن حدث ، بعد أن رحل بارمنسكوس إلى مصر لاحضار شحنة القمح ، أن وصلت إلى أثينا سفن أخرى تحمل قمحاً من صقلية ، فانخفض سعر القمح فى أثينا نتيجة لذلك . فأرسل ديونيسودوروس فى الحال رجلا إلى رودوس ينبىء زميله بارمنسكوس بما طرأ على السوق الأثينى ، علماً منه بأن صاحبه سوف يمر بسفينته على رودس التى كانت محطة أساسية فى الرحلة بين مصر وبلاد اليونان فى ذلك الوقت . وقد أدت هذه المناورات إلى النتيجة المرتقبة وهى أن بار منسكوس أفرغ حمولته من القمح فى رودوس وباعها هناك ، حيث كان السعر أكثر إرتفاعاً منه فى أثينا ، محترقاً بذلك شروط الاتفاق . ولكن الغريب فى الأمر أنه بعد بيع القمح فى رودوس أبحرت السفينة بما تبقى من بضائع أخر لبيعها فى أثينا .

يمكننا أن نتخيل من هذا الوصف مقدار النشاط التجارى الكبير الذى استلزم ذلك التنظيم العالمى المحكم . وما من شك أن مثل هذا النشاط الهائل كان يستلزم إشرافاً دقيقاً من كليومينيس ، الذى لم يفشل أبداً فى القيام بهذا الاشراف على خير وجه . وهناك حادثة طريفة يروبها لنا كتاب الاقتصاد تبين يقظة كليومينيس فى الاشراف على شبكته التجارية ففى إحدى المناسبات علم كليومينيس عن طريق أعوانه وغيرهم من غير شك أن أحد وكلائه قد عقد صفقة بثمن زهيد وأنه ينوى أن يتقاضى

---

(٣٢) Dem. LVI. 7 ff.

عليها ثمنا غالياً . فأخفى كليومينيس علمه بكل هذا ، وقبل أن يعود الوكيل صاحب الصفقة أشاع الوزير أنه سيلغى الصفقة بسبب إرتفاع الثمن . فبلغت الاشاعة الوكيل الذى خشى وأعوانه الخسارة التى ستلحق بهم إذا أصر كليومينيس على رفضه ، وما إن عاد إلى الاسكندرية حتى أسرع إلى الوزير وأعلن الثمن الحقيقى للصفقة ، فقبله كليومنيس راضياً(٣٣) .

هذا هو النظام الذى أنشأه كليومينيس وأدار عن طريق تجارته العالمية . ولكن يجب أن نذكر دائما أن المصادر التى بين أيدينا لاتعطينا وصفاً كاملا لسياسته المالية والاقتصادية ، وأن كل مالدينا ليس سوى أمثلة متفرقة من أعماله . هذه الحقيقة قد دفعت بعض العلماء إلى الاعتقاد أن سياسة الاحتكار لم تستمر سوى فترة سنوات المجاعة ٣٣١ — ٣٢٨ ق.م. (٣٤) ولكن نظرة فاحصة إلى الأخبار التى توردها المصادر تبين أنها تصور أعمالا مدروسة تهدف إلى إنشاء احتكار مستمر لتصدير القمح الذى تنتجه مصر . وإن الرأى القائل بأن سياسة الاحتكار دامت فقط أثناء الأزمة يغفل أن شبكة الوكلاء قد استمرت حتى آخر عام للكليومينيس فى منصبة فى سنة ٣٢٢ ق.م. وهو تاريخ الخطبة ضد ديونيسودوروس السالف ذكرها فصاحب الخطبة يتحدث عن نظام قائم وعن حاكم كان إلى أشهر قليلة سابقة يتحكم فى قمح مصر بأسره . وفى الواقع إن أهمية كليومينيس من وجهة النظر الاقتصادية هو استمرار سياسته الاحتكارية فى تجارة القمح الخارجية . نحن نعرف أن سياسة الاحتكار الحكومى لم تكن جديدة على مصر ، فقد اعتاد الفراعنة احتكار الانتاج من أجل السوق الداخلى وأحيانا للتصدير ؛ ولكن محاولة كليومينيس لاحتكار تجارة القمح العالمية هى الأولى من نوعها فى التاريخ . والجدة فى محاولته تقع فى أنه زاولها على أسس تجارية بحته ، بعكس أثينا التى اعتمدت على قوتها البحرية لاحتكار تجارة البحر الأسود فى القرن الخامس ق.م.

---

(٣٣) Oec. II. 33 (1352 b. 4 ff.)

(٣٤) A. Andréades, Antimene de Rhodes et Cleomenes de Naucratis, B. C. H. 53 (1929) P. 14.

لقد ظلت شخصية كليومينيس وسياسته موضع خلاف بين الكتاب قديماً وحديثاً ؛ فالقدماء جميعاً يناصبونه العداء ويصدرون عليه أقسى الأحكام (٣٥) ، أما المحدثون فيختلفون إختلافاً بيناً في أحكامهم (٣٦) ولعل خير موقف نتخذه في هذه الدراسة هو أن نقدر أعمال كليومينيس على أساس الأوضاع السائدة في عصره . فنلحظ مثلا أن أعماله قد لاتتسم وسائلها بمبادىء الأخلاق ولا تتفق ومبادىء العدل والانصاف الدقيقة ، ومع ذلك فهي ليست استثناء عند مقارنتها بأمثلة أخرى كثيرة واردة في كتاب الاقتصاد المنسوب لأرسطو . وعلى أي حال فلسنا نقصد هنا أن نصدر أحكاماً أخلاقية على كليومينيس ، ولكن هدفنا هو تقييم أعماله إقتصاديا . لقد رأى بعض الدارسين أن سياسته من الناحية الاقتصادية كانت مربحة ولم تكن ضارة على أساس أنه دفع لمنتجي القمح سعر السوق (٣٧) . ولكن عند إعادة النظر في هذا الاجراءات بالذات نجد أنه نتج أمران . أولا يظهر من شكوى مديري المديريات أن التصدير كان حراً في مصر في ذلك الوقت ، وأن منتجي القمح كانو يجنون أرباحاً طيبة من التصدير تعينهم على دفع الضرائب المرتفعة في الداخل . حينما اشترى كليومينيس مجموع محصول القمح (٣٨) سدد ضربة لهم كمصدرين ، وباستمرار

---

(٣٥) Dem. LVI.7 : "ὑπηρέται καὶ συνεργοὶ πάντες οὗτοι κλεομένους τοῦ ἐν Αἰγύπτου ἄρξαντος, ὃς ἐξ οὗ τὴν ἀρχὴν ἔλαβεν οὐκ ὀλίγα κακὰ εἰργάσατο τὴν πόλιν τὴν ὑμητέραν, μᾶλλον δὲ καὶ τοὺς ἄλλους Ἕλληνας. κ.τ.λ." وعبارة أريانوس ضد كليومينيس مشهورة أيضا : VII.23, 6 "καὶ κλεομένει, ἀνδρὶ κακῷ καὶ πολλὰ ἀδικήματα ἀδικήσαντι ἐν Αἰγύπτῳ κ.τ.λ." ولكن يجب أن نذكر هنا أن اريانوس كان تحت تأثير مصدره الرئيسي الملك بطلميوس الأول.

(٣٦) يهاجم كليومينيس من المحدثين Bouché - Leclergue . Hist . des Lagides I . P . 14 ; Mahaffy . Ptolemaic Dynasty pp . 20 - 22 ; Tarn . C . A . H . VII . PP . 269 . ومن يبررون مسلكه Andreades . Loc . cit . P . 17 ; أنظر أيضا Van Groningen . Mnemos . 53 (1925) P . III . وجماعة أخرى من المؤرخين تتخذ موقفاً وسطاً مثل Riezler Monopole P . 33 . Bevan . Ptolem . Dynasty . P.

(٣٧) Van Groningen, De Cleomene, Mnemos, 53 (1945) 127

(٣٨) إنني أقصد ما ذكر في Oec. II. 33 a. & d (1352. a. 16 f b. 4.)

سياسته الاحتكارية فقدوا القدرة تماما على التعرف والتعامل مع الأسواق الخارجية مباشرة . ثانياً ، كانت نتيجة سياسة كليومينيس على السوق الداخلى أشد خطراً ؛ لأن رغبة كليومينيس فى الربح من التصدير جعله يدفع للتجار فى الداخل سعر التصدير ، كما حاول الاستيلاء على معظم المحصول ، فنتج عن ذلك أن شح القمح فى مصر وانفع ثمنه ارتفاعاً كبيراً مما أدى إلى الاضرار بمجموع الشعب المصرى فى نفس الوقت الذى أضر فيه أيضا بالتجارة الدولية (٣٩) .

ويمكننا هنا أن نتساءل عن طبيعة هذه التجارة العالمية ، هل كانت لحساب كليومينيس الشخصى ، أو بأسم الدولة ولصالحها ؟ ليس هناك جواب صريح أكيد على هذا السؤال ، ولكن الأسلوب الذى تتحدث به مصادرنا يعطينا الانطباع أن كليومينيس قام بالتجارة بصفته الرسمية كرجل من رجال الحكم فى مصر . وقد رأينا من قبل أن كلا من الخطبة ضد ديونيسودوروس وكتاب الاقتصاد يتحدث عن سياسته التجارية وكأنها صادرة عن حاكم مصر . ومما يؤكد هذه الفكرة هو ماترويه الأخبار أن بطلميوس الأول سوتر الذى تولى حكم مصر بعد وفاة الاسكندر تسلم خزائن الدولة من كليومينيس وبها ٨٠٠٠ تالنتوم(٤٠) ، وهو مبلغ ضخم يثبت أن أرباح كليومينيس كانت تذهب إلى خزانة الدولة .

ومع ذلك فما إن استقر الأمر لبطلميوس الأول فى مصر حتى عمل على التخلص من كليومينيس والقضاء عليه ، بأن لفق له التهم وحاكمه وقتله ، ثم أخذ يعمل بعد ذلك على النيل من سمعته ؛ ولكن مامن شك بعد هذه

---

(٣٩) من البحث المشهور عن القمح فى التاريخ اليونانى Jardé, Les Céréales dans L' Antiquité grecque, p. 179 نعلم أن متوسط سعر القمح فى أثينا فى سنة ٣٣٠ – ٣٢٩ ق.م كان خمس دراخمات ، وفى العام التالى أصبح ست دراخمات ثم عشرة دراخمات . ونستطيع أن ندرك مقدار القمر الذى ألحقه كليومينس بأسعار القمح حين نذكر أنه إشترى من المتجرين فى مصر بعشرة دراخمات وباع القمح بالمئتين وثلاثين دراخمة . Oec II. 33. P. (1352. d. 4ff)

(٤٠) Diodorus Sic. 18. 14. 1.

الدراسة أن ما قام به كليوميديس يعتبر أكبر خدمة قدمت للبطالمة بالذات ؛ فبالاضافة إلى خزانة غنية ، أورثهم تجارة خارجية على أسس منظمة ، مكنتهم من انتهاج سياسة مماثلة زمن البطالمة الأول حين كانت تجارة القمح الخارجية هي من أهم عمد سياستهم الاقتصادية . ولكنهم يدركون خطورة المنافسة الأجنبية ، وبدلا من معاداة منافسيهم اتخذوا منهم أصدقاء كما فعل بطلميوس الثانى مع صقلية (٤١) .

(٤١) اجتهد بطلميوس الثانى على أن يجعل من صقلية حليفة له . أنظر البحث القيم
N. Hohlwein, Le Blé d'Egypte, Et. Pap. IV. (1938) 93. n. 2.

التخطيط العمرانى فى مصر القديمة

للدكتور محمد أبو المحاسن عصفور

من المعروف أن مظاهر الحضارة المختلفة تنتج عن تفاعل الانسان وبيئته ، ولذا كان من البديهى أن يخضع المصرى القديم — فى مختلف نواحى نشاطه — لاتجاهات معينة لم يحد عنها إلا فى القليل النادر .

فنهر النيل — وهو أهم ظاهرة فى حياته — يمتد من الجنوب إلى الشمال فى وادى طويل ضيق ينتهى إلى دلتا فسيحة نسبيا قبل أن يصب فى البحر المتوسط ، وهكذا نجد أن مصر شملت قسمين مختلفين : الوادى الضيق فى الجنوب وهو المعروف بمصر العليا والدلتا الفسيحة فى الشمال وهى المعروفة باسم مصر السفلى وتحد الصحارى الشرقية والغربية الواسعة مصر بأكملها من الجانبين ولكنها تحف بالوادى الضيق فى الجنوب بحيث يمكن للانسان أن يقف باحدى قدميه على الأرض المنزرعة وبالأخرى على الأرض الصحراوية فالانتقال بينهما هنا فجائى لاتدرج فيه . وتلى الصحارى فى هذا القسم شرقا وغربا سلاسل من التلال قليلة الارتفاع تمتد بطول الوادى تقريبا وإن كانت فى بعض الأحيان تقترب من الوادى بل وتغير عليه بحيث تصبح مشرفة على النهر تماماً — أما فى الدلتا فان الوادى كان متسعاً ولكن كانت المستنقعات الكثيرة تتخلله ولذا كانت الأراضى الزراعية فيها أقل كثيراً مما هى عليه الآن .

وقد جاهد المصرى فى توصيل مياه النهر وفيضانه إلى كل شبر يمكن استغلاله فى الزراعة ، ومع ذلك فانه كان يخشى خطر الفيضان ويتجنب الاقامة فى البقاع التى يكتسحها أى أن الحاجة إلى أقل مساحة من الأرض الطمية الثمينة والرغبة فى تحاشى مياه الفيضان كانت تتحكم فى مواقع المدن ومراكز تجمع السكان حيث نشأت على حافة الصحراء كلما أمكن ذلك —

ومن جهة أخرى كانت بعض الاعتبارات الأخرى (من سياسية وعسكرية ... الخ) سببا فى نشأة عدد من المدن فى الوادى نفسه بين الأراضى الزراعية . وكان من جراء ارتفاع منسوب الوادى باضطراد أن دفنت عدة مراكز عمران تحت طمى النيل وانتقل العمران إلى أماكن أخرى بينما ظلت مراكز أخرى عامرة بالسكان بصفة دائمة فكانت المنازل الجديدة تبنى على أنقاض القديم منها حتى أصبحت المدن قائمة على تلال مرتفعة ولابد أن كثيراً من القرى والمدن المصرية الحالية قد بنيت على أنقاض محلات قديمة — وهكذا نجد أن المدن القديمة كانت تواجه دائما مشكلة الفضاء المناسب كى تمتد فى مساحتها أو تنتقل خارج حدودها وربما كان التغلب على هذه المشكلة ميسوراً بعض الشىء فى مصر العليا حيث يكون التوسع فى اتجاه الصحراء أو الهضاب المجاورة أما فى الدلتا فان المستنقعات كانت تجعل مثل هذا الحل متعذرا ولذا نجد النصوص المصرية تشير إلى القرى فى مصر العليا بينما هى تشير فى الوقت نفسه إلى المدن المرتفعة فى مصر السفلى .

ولاشك فى أن بقاء مخلفات المدن القديمة والعثور على آثارها كان يحددهما عاملان : طبيعة مواد البناء المستخدمة فيها والظروف الطبيعية للأقليم الذى وجدت فيه ولما كانت نظرة المصرى التقليدية إلى المنزل تتلخص فى اعتباره مقراً مؤقتا غير دائم (أما المقر الدائم فى نظر المصرى فإنه كان مقبرته) ونظراً لأن اللبن كان أرخص وأيسر منالا من الحجر فان منازل الأفراد بل وقصور الملوك كانت تبنى من اللبن وانحصر استعمال الحجر فى الأعتاب وأفاريز الأبواب وقواعد الأعمدة أما الخشب فقد اقتصر استعماله على الأبواب والأعمدة والأسقف — ومثل هذه المنازل كانت حياتها محدودة بالطبع ولذا كان لابد من تجديدها بين حين وآخر إذا أنها كانت تتأثر بشدة الأمطار أو لمجرد التقادم ، أضف إلى ذلك أن الخشب والحجر كانا نادرين ثمينين فحينما يترك أحد المنازل أو تهجر إحدى المدن ولو مؤقتا فان هذه المواد النادرة كانت أول ماينتزع منها ويعاد استخدامها مما يؤدى إلى الاسراع بانهيار هذه المبانى وقد يؤدى استخدام لبن تلك المبانى ومخلفاتها

فى تسميد الأراضى الزراعية إلى زوالها نهائيا — وهكذا نجد أن معظم المدن المصرية القديمة قد اختفت تحت طمى النيل أودفنت تحت المساكن المتعاقبة فى نفس المكان أو أزيلت بسبب حصول الأهالى المجاورين لها على مواد مبانيها المختلفة ولذا فإنه — باستثناء نماذج قليلة — للمنازل وبعض نقوش المقابر التى تصورها — لايوجد لدينا من المصادر عن هذه المبانى والمدن سوى آثار بعض قرى العمال وأنقاض المدينة التى بناها اخناتون «اخيتاتون = تل العمارنة الحالية» وعدد من الحصون فى مصر والنوبة .

ولا شك فى أن أول ما يتبادر إلى ذهن الانسان عندما يحاول اتخاذ مأوى له هو أن يحيط مستقره بسياج بيضاوى أو مستدير من المواد الخفيفة التى فى متناول يده أى أن الملجأ الذى اتخذه لم يكن أكثر من كوخ أو عروة بسيطة من البوص أو الحصير تظل بالطمى فى كثير من الأحيان .

وبتقدم الزمن أو تبعاً لمقتضيات البيئة أصبحت بعض هذه الأكواخ تعمق جدرانها فى باطن الأرض ففى مرمدة الواقعة فى شمال غرب الدلتا وفى العمرى القريبة من حلوان عثر على أكواخ كانت تتكون من آبار غير عميقة مبطنة بحصر تمتد بين أعمدة رقيقة وتبرز قليلا فوق سطح الأرض وكان الدفن إما تحت أرضية هذه الأكواخ أو فى خارجها (بينما كانت الجبانات منفصلة عن مناطق السكنى فى مصر العليا).

وهنا نجد مايبرر الفكرة المصرية القديمةعن المقبرة إذ أنها تعتبر منزلا أبديا ولذا كان تخطيط المقبرة والمسكن واحداً فأقدمها كان مستديراً أو بيضيا ولعل اختراع اللبن فى نقادة الثانية هو الذى أدى إلى استقامة جدرانها، وقد عثر على نموذج صغير من هذا العصر ذو سقف مسطح يعلوه فى الغالب حائط تصفى وبه أربعة نوافذ موزعة فى جدارين متقابلين وكان الباب على جانب من المحور . (١) .

وتشغل مرمدة مساحة تقدر ٦٠٠×٤٠٠ ياردة وقد اصطفت بعض الأكواخ فى أحد أجزائها فى صفين يفصلهما شارع ضيق مما يوحى بوجود شىء من التنظيم الاجتماعى ووجود فكرة ولوبدائية عن تخطيط المدن —

وقد وجدت كذلك محلة من عصر ماقبل الأسرات المتأخر فى المعادى كانت تمتد نحو ميل مما يدل على أن مدن مصر السفلى كانت أكبر من مدن الصعيد .

هذا و قد عثر من عصر ماقبل الأسرات أيضا على آثار مدينة فى هيراكونبوليس وإن كانت لم تكتشف جيداً إلا أنها كانت لاتقل عن $\frac{3}{4} \times \frac{1}{4}$ ميل وقد أحيطت بسور من اللبن . ولايبعد كثيراً عن الصواب إذا ماقلنا بأن أقدم المدن المصرية كانت تحاط بنوع من السياج ثم أصبحت تحاط بسور من اللبن كما يستدل على ذلك من قطعة لأحد النماذج التى عثر عليها فى ديوسبوليس وهى تبين رجلين يطلان من فوق حائط منخفض (٢) . كما أن المدن فى النقوش كانت تمثل بشكل دائرى أو بيضاوى يحيطه سور قوى من الواضح أنه كان من اللبن وكثيراً ماكان يزود بمداخل ومخارج (٣) كذلك كانت العلامة الهيروغليفية الدالة على مدينة ترسم فى شكل سور دائرى مقسم إلى أربعة أقسام بطريقين متقاطعين .

وإذا جاز لنا أن نستدل من جبانات الأهرام على تخطيط مدن الدولة القديمة ونظامها أو على الأقل على الأحياء التى كانت قريبة من البلاط فمن الواضح أنها كانت دقيقة التخطيط إذ أن النبلاء أرادوا عند وفاتهم أن تكون مقابرهم بالقرب من المقر الأخير لسيدهم لأنهم إنما رغبوا فى أن تكون حياتهم الآخرة شبيهة بحياتهم الدنيا حيث كانوا يعيشون بالقرب من القصر ويبدو هذا بوضوح فى منطقة الجيزة حيث توجد مدن للموتى بالفعل حول الأهرام ، إذ نجد الهرم قائما و من حوله تصطف مصاطب النبلاء فى صفوف منتظمة تخترقها شوارع طولية وعرضية (٤) . وهى فى شكلها الخارجى أشبه بالمنازل وتتفاوت فى مظهرها حسب رتبة أصحابها . أى أنه من العسير أن نتجنب استنتاج أن مدن الأهرام تعكس إلى درجة كبيرة مظهر العاصمة أو الجزء المجاور للقصر الملكى وإن كان من المرجح أن تخطيط مدن الأهرام يجعل مثل هذه المدينة مثالية فى ترتيبها ونظامها الدقيق — ومن مقابر الأسرة الثانية وبعض آثار نادرة لمساكن حقيرة صغيرة من

عهد الأسرة الثالثة يمكن أن نتبين أن منازل الدولة القديمة على العموم كانت تختلف فى عدد حجراتها على حسب مكانة أصحابها ومنها ما كان يحتوى على دورات للمياه وحمام . كما نتبين من نقوش بعض المقابر المتأخرة أن طائفة من المنازل كانت تشغل مساحات واسعة وبها عدد من المكاتب والمخازن ومزودة ببوائك مستعرضة وحجرات ذات أعمدة أى أن أصحابها كانوا من ذوى المراكز المرموقة .

ولابد أن المدن كانت تتخذ شكلا عاما منذ عصور سحيقة . ولكن دوام التطور داخل الإطار العام للمدينة لم يخضع لرقابة دقيقة بل كثيراً ماكان يتم كيفما اتفق ومهما وضع من تخطيط للمدينة فان مرور الزمن كان كفيلا بالتخلى عن هذا التخطيط ولم يشذ عن ذلك إلا المدن التى كانت تبنى بواسطة الحكومة . ولتحقيق غرض معين مثل قرى العمال والقلاع والعواصم الجديدة كالعاصمة التى بناها اخناتون :

ومع أن قرى العمال تلقى بعض الضوء على تخطيط المدن إلاأنها كانت تبنى لسد الحاجة إلى إسكان الرجال اللازمين للمشروعات الضخمة وضمان الاشراف عليها وكثيراً ماكانت منعزلة عن بقية العالم — ونظراً لأنها كانت تبنى بصفة رسمية ولتحقيق غرض معين فإن الاتجاه السائد فى تخطيطها كان يجعلها هندسية الشكل — وأقدم أمثلة لهذا النوع من القرى يوجد حول هرم خفرع فى الجيزة . وهى أشبه بسلسلة من الثكنات منها بالمدينة . إذ عثر على نحو ١١١ حجرة طويلة خالية تماما من أى جهاز أو أثاث وكل منها تتسع لنحو ٥٠ رجلا . (٥)

ومع أنه لم يتم الكشف عن كل أجزاء قرية العمال فى كاهون التى شيدت عند بناء هرم سنوسرت الثانى فى الدولة الوسطى«الأسرة الثانية عشر» فان الجزء الذى تم الكشف عنه يبين أن هذه المدينة كانت مسورة بسور مربع وكانت تنقسم إلى قسمين غير متساويين أكبرهما يتألف من مساكن كبار الموظفين إذ وجدت ٩ أو ١٠ منازل كبيرة فى شمال المدينة كما وجد

بناء ضخم فى ركنها الشمالى الغربى يحتمل أنه كان قصر المحافظ . كما يحتوى هذا القسم أيضا على منازل متواضعة لصغار الموظفين — أما القسم الأصغر من المدينة فيحتوى على مساكن للعمال وهذه كانت صغيرة متزاحمة كل اثنين منها يتصلان فى الخلف وبهذا القسم ١١ شارعا على الأقل أما المنازل الكبيرة التى من القسم الأول فعقدة التخطيط ينقسم كل منها إلى أربعة أقسام : (أ) مسكن أصحاب الدار ويمكن الوصول اليه عن طريق فناء مكشوف وهو يتجه نحو الشمال (ب) حجرات الحريم (ج) ملحقات الخدم والمطبخ (د) سلسلة كبيرة من الدواوين والمخازن . كذلك كانت توجد حجرة للضيوف أحيانا . وأحد هذه المنازل الكبيرة كان يشغل مساحة تعادل المساحة التى يحتلها ٢٥ منزلا من منازل العمال .

و قد ألحقت بعاصمة اخناتون «تل العمارنة» قرية للعمال (٦) مثل قرية كاهون وهى تنقسم إلى قسمين متساويين أيضا ولكنها تختلف عنها فى أن هذا التقسيم لم يقصد به فصل الطبقات إذ أن كل المنازل متشابهة فيما عدا منزل قائد المدينة فى الركن الجنوبى الغربى وبالقرية خمسة شوارع تمتد من الشمال إلى الجنوب . وفى القسم الأصغر توجد كلها على الشارع الوحيد ولكنها مع ذلك لم تكن متقابلة حتى لا يرى سكان أحد المنازل ما فى داخل المنزل المقابل على الشارع . أما منازل القسم الأكبر فتطل كلها على الغرب ولكل منها أربعة حجرات وصالة خارجية . وحجرة داخلية بها عمود . وفى خلف المنزل توجد حجرة النوم والمطبخ الذى تخرج منه سلالم تؤدى إلى السطح وبعض المنازل كانت تحتوى على أماكن لحفظ الماشية مما يوحى بأن السكان كانوا يحتفظون بحيواناتهم داخل منازلهم — على أن يلاحظ بأنه لم يكن هناك مورد ماء داخلى أى أن المياه كانت تجلب إلى هذه المساكن من النهر من بعد بضعة أميال — ورغم أن هذه المنازل كانت أحسن من منازل الأحياء الحقيرة فى العاصمة إلا أن سكانها كانوا منعزلين

تماما ويحرسون فى الليل مما يدل على أنهم كانوا من عمال السخرة أو من الموضوعين تحت الرقابة .

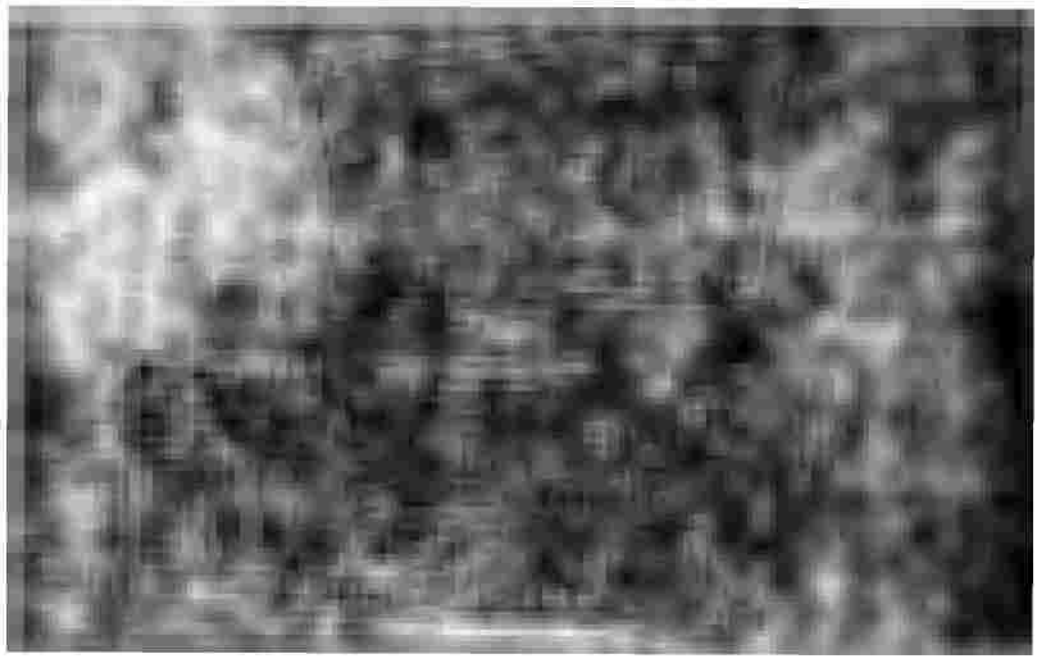

شكل (١)

قرية دير المدينة

(أ) كما تبدو فى أواخر عهد الأسرة الثامنة عشر

(ب) كما تبدو فى عهد الأسرتين التاسعة عشر والعشرين نقلا عن كتاب :

Bruyère, Fouilles de Deir el Medineh, Pls.VI &VII.

وأغرب قرى العمال فى مصر كلها قرية دير المدينة (شكل ١) على الضفة الغربية للأقصر وهى تقع فى وادى منعزل جدب محصور بين قرنة مرعى والتلال المتطرفة جنوب هضبة طيبة وقد ظلت مسكونة بصفة دائمة نحو ٤٠٠ سنة وكان تشييدها من أجل إسكان الرجال الذين كانوا يعملون فى بناء المقابر الملكية ونظراً لبعدها عن مكان العمل فأنه كان من عادة أهلها ألا يعودوا يومياً إلى منازلهم ولذا قاموا ببناء أكواخ من الحجر الغشيم فى الطريق المشرف على وادى الملوك يقضون فيها معظم أوقاتهم – ومع

هذا فأن القرية الأصلية كانت محاطة بسور مشيد من اللبن ويخترقها شارع وحيد ضيق على إمتداد الممر المؤدى إلى الوادى وكانت المنازل طويلة ضيقة تنفتح على الشارع — وقد اتسعت هذه القرية فامتد سورها بعض الشيء بل وشيدت بعض المنازل خارج هذا السور أيضاً ولم يصبح هذا السور للدفاع أو الرقابة بل يبدو أنه أصبح لفصل الطبقات التى تألف منها السكان فكان الأرستقراطيون يسكنون فى داخلها أما فى خارج السور فكان يسكن من هم دون ذلك ولا يحتفظ بالحيوانات فى المنازل التى داخل السور أما تلك التى فى الخارج فكانت تحتفظ بحيواناتها — ويتصل منازل هذه القرية بعضها بالبعض وكانت طويلة ضيقة لا يضيئها سوى باب الشارع ومنافذ التهوية فى السقف ويتألف المنزل عادة من صالة خارجية وحجرة داخلية بها أعمدة فيها ايوان « متكأ » ومن حجرة نوم ومطبخ غير مسقوف به سلالم تؤدى إلى السطح ولم يكن هناك أى مورد فى القرية بل كان هناك خزان خارج البوابة الخارجية تكلف فئة خاصة بجلب الماء على ظهور الحمير لملئه ويحرسه حرس خاص وكانت النساء تحصل على مياهها منه حيث تحفظها فى أوانى كبيرة عند مداخل مساكنهن ومع أن القرية ظلت عامرة نحو ٤٠٠ سنة إلا أن مستوى أرضها لم يرتفع مما يدل على أن المنازل كان يعاد بناؤها على نفس أساسها السابق ولذا نستنتج وجود نوع من التنظيم والرقابة على البناء والتخطيط كذلك تشير نصوص قطعتين من اللخاف إلى أن اختيار المسكن لم يكن ليتم بحرية تامة وكانت هناك دوريات تفتيشية على القرية كما حصر حفر المقابر فى الهضبة التى تقع فى غربها وشيدت المقاصير فى شمالها كما وجدت مراكز للبوليس فى كلتا نهايتيها .

كذلك تختلف مدينة اخناتون التى بناها واتخذها عاصمة جديدة له عن بقية المدن المصرية فى أنها بنيت دفعة واحدة وفق تخطيط موضوع مدروس إذ أنه حينما وجد معارضة شديدة فى طيبة للدين الذى نادى به اختار موقعاً بكراً أسس فيه هذه المدينة الجديدة وسماها أخيتاتون . وقد انتقل اليها فيما بين السنة الخامسة والسادسة من حكمه حيث قضى بها بقية حكمه الذى بلغ سبعة عشرة عاماً وبعد فترة تتراوح بين سنتين وأربعة

من وفائه هجرت هذه المدينة نهائياً مما أدى إلى بقاء كثير من آثارها — وهذه المدينة تبنت على الضفة الشرقية للنيل فى منطقة تتراجع فيها الهضبة الشرقية بحيث تترك بينها وبين النهر منخفضاً فى شكل نصف دائرى أقصى طول له ٧ أميال بينما يتراوح أكثر عرض له بين ميلين وثلاثة أميال وتقترب الهضبة فى الشمال والجنوب من حافة النهر بحيث تصبح المدينة مقفلة تماماً (شكل ٢) وهذا يفسر سبب عدم وجود سور للمدينة . وكانت المقابر تنحت فى صخور سلاسل تمتد شمال وجنوب أحد الوديان الجافة وهو ينتهى على بعد بضعة أميال من النهر — وتخترق المدينة ثلاثة طرق من الجنوب إلى الشمال تكاد تكون موازية لاتجاه النهر وقد سميت هذه الطرق بأسماء أطلقها عليها المكتشفون فأقربها إلى النهر عرف باسم الطريق الملكى يليه إلى الشرق شارع الكاهن الأعظم ثم يلى ذلك أيضاً الطريق الشرقى .

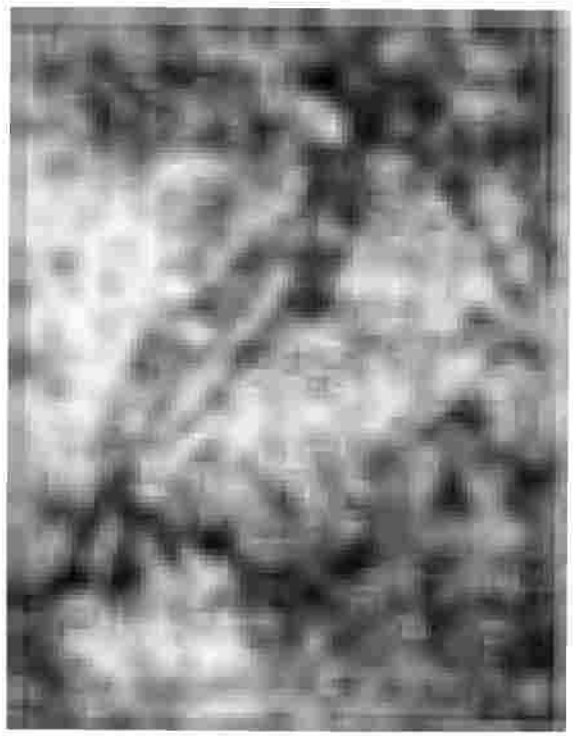

شكل (٢)
موقع تل العمارنة

وفيما بين الطريق الملكي والنهر بني عدد من القصور والمنشآت الحكومية هي من الجنوب إلى الشمال : استراحة ملكية «مارو آتن» يليها شمالا معبد النهر ثم المقر الرسمي للفرعون ثم القصر الشمالي الذي ألحقت به حديقة الحيوان ويلي ذلك قصر آخر ومن المحتمل أن مبانى رسمية أخرى بنيت على امتداد النهر ولكنها اختفت تحت الأرض المزروعة حالياً .

وقد قسمت المدينة إلى قطاعات واضحة . ففي الجنوب يقع القطاع الجنوبي الذي يقسمه وادي غير عميق . ومن المحتمل أنه تطور في الوقت الذي هجرت فيه العاصمة مع أنه كان مقر كبار الموظفين ورجال الحاشية إذ وجد فيه منزل الوزير ومنازل بعض الشخصيات الهامة ولم يخل الأمر بالطبع من وجود منازل أخرى وضيعة كما يبدو أن مركزاً صناعياً كان قائماً به إذ أن مصنع المثال الذي وجدت به رأس نفرتيتي الشهيرة كان في شمال الوادي وإلى الشمال منه أيضاً وجد مصنع للزجاج (بالقرب من القصر الملكي) وفي شمال هذا القطاع الجنوبي يقع الحي الأوسط من المدينة وفيه يوجد القصر الملكي والمعبد ومكاتب الحكومة ، وقد خطط هذا الحي بدقة تامة وعن قصد كوحدة متصلة وتشير اليه النصوص باسم خاص «آتون ممز في الأعياد» كما كان يعرف كذلك باسم « الجزيرة » وكان حده الغربي ينتهي بالمقر الرسمي للفرعون الذي كان يطل على الطريق الملكي وقد ضاع أكثر من نصف هذا القصر تحت الأرض المزروعة الآن — ويتسع الطريق الملكي في هذه البقعة إلى درجة تسمح بابراز أبهة الموكب الملكي وتجعل في الامكان ظهور كافة المشتركين فيه . أما الحد الشمالي لهذا الحي فيكونه المعبد العظيم المقام داخل سور يشغل مساحة قدرها ٢٥٠٨٠٠ ياردة — وفي مواجهة الطرف الجنوبي للقصر توجد المخصصات الملكية التي تتألف من المقصورة الملكية والقصر الخاص الذي يسكنه الملك وحديقة ومخازن ويلي ذلك جنوباً مجموعة من المخازن والحجرات المخصصة للكهنة الملحقين بالقصور الملكية . وتتصل هذه الأجزاء بالقصر عن طريق قنطرة من ثلاثة أقسام تعلو الطريق الملكي و القسم الأوسط منها به حجرة صغيرة يشرف منها الملك على رعاياه ويمنح المكافآت إلى المخلصين من حاشيته —

وفيما بين المخصصات الملكية والمعبد الكبير توجد مجموعتان متميزتان من المخازن والحجرات المخصصة لأعداد الطعام يبدو أن الجنوبية منها كانت خاصة بالقصر بينما كانت الشمالية مخصصة للمعبد .

وتقع دواوين الحكومة إلى شرق هذه المبانى ومعظمها لم يمكن التعرف على المصالح التى كانت تشغلها ولكن أمكن معرفة بعض المصالح الأخرى من النقوش ومن هذه ديوان السجلات أو ديوان الخارجية حيث وجدت خطابات تل العمارنة الشهيرة وهى عبارة عن المراسلات الدبلوماسية التى تبودلت فى ذلك الوقت . ومن خلف ديوان السجلات يقع «منزل الحياة» الذى أطلق عليه المكتشفون «اسم الجامعة» ولكنه فى واقع الأمر كان بناء مزدوجاً يتألف من مدرسة ودار للنسخ . وإلى شرق هذا الأخير توجد مجموعة من المبانى ربما كانت ديوانا للأشغال يتألف من أقسام خصص كل منها لنوع معين من مصالح الحكومة . وإلى جنوب تلك الأبنية توجد صفوف طويلة من الحجرات والدواوين لا شك فى أنها كانت للكتبة والموظفين — وأخيراً وعند حافة الصحراء فى شرق كل تلك المبانى توجد الثكنات العسكرية وأقسام البوليس التى زودت بصفوف طويلة من الاصطبلات وزعت بحيث يمكن للفرسان أن يسرعوا منها — عن طريق الصحراء المنبسطة — مناطق الخطر ، وعلى بعد نحو ٨٠٠ ياردة من هذا الحى الأوسط يوجد جزء عرف باسم الضاحية ويقسم وادى مماثل للوادى الذى يخترق القطاع الجنوبى — وهذه الضاحية تحتوى على منازل قليلة ضيقة ولذا يظن أنها منازل للطبقة الوسطى وأن المركز التجارى كان فى هذا الحى ولا يبعد أن تكون أرصفة الميناء النهرية قد بنيت فى مواجهة الوادى الذى يخترق هذا المكان وفضلا عن ذلك فقد وجدت بقعتان رديئتان من المنازل الشعبية لا تزيد كثيراً عن أكواخ متزاحمة — ويبدو أن هذه الضاحية بدأت فى الانتعاش منذ حوالى منتصف حكم اخناتون وتطورت عندما هجرت العمارنة .

وهذا القسم الشمالى من مدينة اخناتون كان ينتهى فى طرفه الشمالى باقتراب الهضبة إلى النهر حيث وجد بناء مدرج مشرف يرجح أنه كان للجمارك أو للحراسة ومن المحتمل أن بناء مماثلا كان يوجد فى أقصى جنوب المدينة أيضاً – وقد وزعت المبانى فى هذه الضاحية بحيث كانت المبانى الكبيرة جداً قريبة من القصر وهى أقرب لأن تكون دواوين الحكومة منها إلى المنازل .

ومع أن الطرق الثلاثة الرئيسية قد حددت الشكل العام للمدينة الا أن عددا من الشوارع الجانبية كان يخترق المدينة كذلك وهذه كانت غالباً متعامدة مع الشوارع الرئيسية . ولم تكن هذه الشوارع مرصوفة أو مبلطة بل اكتفى بتسويتها حيث أزيلت الصخور البارزة ونظفت من الحصى ولم يوجد نظام للتصريف مما يوحي بأن النظام الصحي كان بسيطاً وأن

شكل (٣)
تخطيط وقطاع منزل من العمارنة

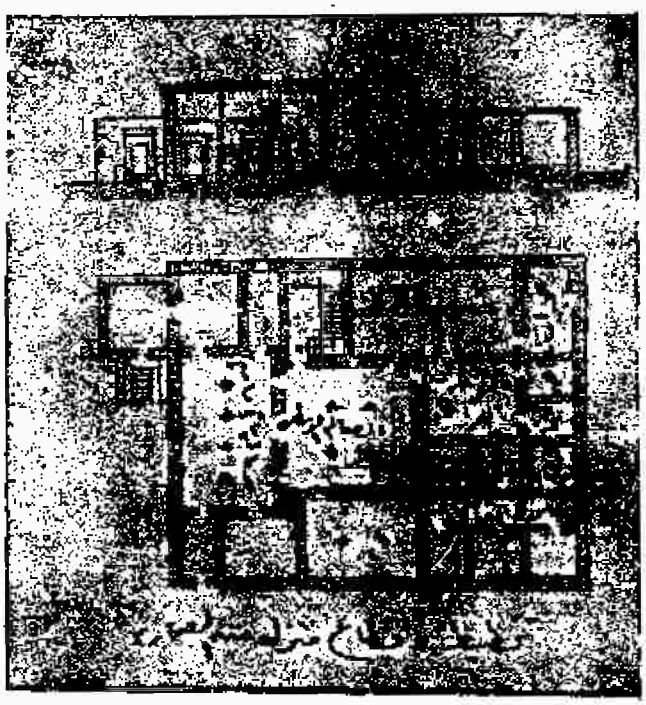

مياه الحمامات كانت تصرف فى باطن الأرض أما المخلفات والبقايا فقد ألقيت فى آبار أو كانت تكوم فيما وراء المنازل وكلما تراكمت سويت هذه الأكوام أو ملئت بها الآبار أو أحرقت — وكان يبنى من فوقها عند ازدياد المدينة فى الحجم — ولم توجد عمائر مرتفعة أو مجمعات ويبدو أن أغنى الناس اختاروا مواقع منازلهم على امتداد الشوارع الرئيسية . أما الأقل ثراء فقد بنوا فى الأماكن الخالية خلف منازل الطائفة الأولى بينما حشرت منازل الفقراء فى الأماكن الملائمة التى أمكن الحصول عليها مع محاولة يسيرة للمحافظة على النظام وهكذا وجدت كل طرز المبانى فى كافة الأحياء ولم يشذ عن ذلك الا الحى الأوسط من المدينة .

شكل (٤)
نموذج لمنزل من المهارنة

وقد أمكن استنتاج نظام المنزل المعتاد للاشراف بصفة عامة (أنظر شكل ٣ ، ٤) فهو عبارة عن منزل جيد التخطيط من طابق واحد يشغل مساحة مربعة على العموم ويتجه دخول الشمال أو الغرب والبناء الرئيسى فى المنزل يشغله صاحب الدار وعائلته أما المطبخ وحجرات الخدم والاصطبلات .. الخ فتوضع فى العادة تحت الريح أى نحو الجنوب أو الشرق . ويتلخص

المبنى الرئيسي فى حجرة فسيحة مربعة بها عمودين أو أربعة ويرتفع سقفها عن بقية المنزل ويستغل الفارق بين السقفين فى نوافذ للاضاءة ويؤدى إلى هذه الصالة صالة أخرى ذات أعمدة تقع إلى شمالها أو غربها وتوجد أمامها ردهة أمامية تفصلها عن البوابة التى يؤدى اليها درج بسيط — وخلف الحجرة الوسطى توجد صالة داخلية تعرف باسم حجرة النساء وتلى هذه حجرات العائلة والجناح المخصص لسيد الدار وكان يحتوى على حجرة للنوم وحمام ودورة للمياه . وكثيراً ما كانت توجد حجرات مستقلة يبدو أنها كانت للضيوف وفى أعلى سطح المنزل توجد شرفة جيدة التهوية فى الجهة الشمالية أو الغربية ويحيط بالمنزل وأفنيته سور من اللبن وكثيراً ما كان يزود بحديقة زرعت أشجارها فى حفر ملئت بطمى النيل كما أن بعض المنازل كانت تحتوى على بركة صناعية ومقصورة خاصة للعبادة ومساكن للخدم ومخازن وبئر وصوامع للغلال فضلا عن المطبخ والاصطبلات .

ومع أن العمارنة كانت تتميز بطابع فريد دون شك الا أنها كانت فى مساكنها متمشية مع التقاليد إذ وجدت نماذج قليلة لمنازل فى مصر والسودان لها نفس الطابع العام وهنا يجب أن نذكر بأن العمارنة بنيت فى أرض صحراوية بكر أى أن المساحة الكافية لامتداد مبانيها واتساعها كانت مكفولة وهذا بغاير الحال فى طيبة ومنف مثلا لأن هذه المدن المكتظة لم تكن مساكن الطابق الواحد عملية فيها ولذا اضطر الأغنياء عن امتداد منازلهم فى المساحة بجعلها من بضعة طوابق ، ومع هذا فأن الوحدات التى كان يتألف منها منزل العمارنة والتى وزعت على مساحة شاسعة كانت ممثلة فى منازل المدن الأخرى ولكنها هنا كانت بعضها فوق بعض (أنظر شكل٥) فالمطابخ وملحقات الخدم والمكاتب فى الطابق الأرضى . أما الطوابق العليا فكانت لأهل البيت وعلى السطح توجد صوامع غلال صغيرة وبعض المخازن وقد وجد نقش فى مقبرة بطيبة يبين مثل هذا المنزل — ولم يكن هذا الطراز من المنازل مستحدثاً من عهد الدولة

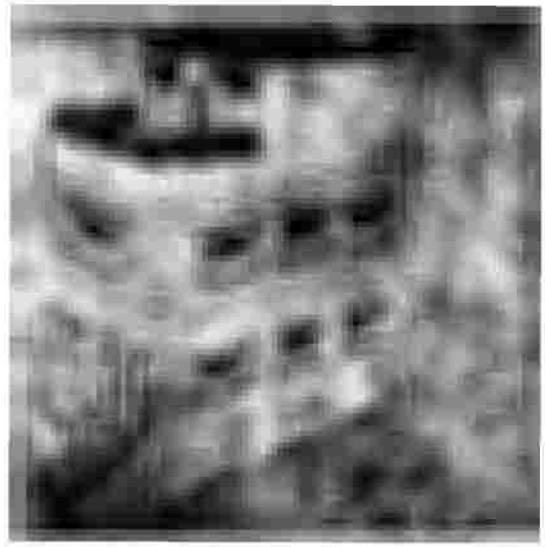

شكل (٥)

نموذج لمنزل من ثلاثة طوابق مأخوذ من : Revue d'Egyptologie III,fig.3

الحديثة ولكن يبدو أنه كان شائعاً منذ عهد الدولة الوسطى على الأقل حيث وجد نموذج لمنزل من ثلاثة طوابق فى أحد مقابر الأسرة الثانية عشر لنبيل فى البرشة كما أن النماذج الأخرى «ومنازل الروح» التى وجدت من هذا العصر تدل على أن المدن فى عصر الدولة الوسطى كانت تختلف فى طرازها : من مأوى بدائى إلى منزل ذو طابق واحد إلى منزل متعدد الطوابق كلها وجدت جنباً إلى جنب بل وهناك من الدلائل ما يشير إلى وجود نظام المبانى المجمعة والمساكن المشتركة حينما ازداد عدد السكان .

وما دامت الحالة فى هذه المدن على هذا النحو من التنظيم فلا بد وأنه كان هناك إشراف من نوع ما على مرافق المدينة وإن كنا لا نملك دليلا كافياً على وجود رقابة على المبانى وتقسيم المدن إلى قطاعات بل ولا توجد إشارة فى النصوص إلى الخدمات المرفقية التى نعهدها فى العصر الحديث ولكن لابد وأنه كانت هناك طوائف من جامعى القمامة وحملة المياه وغيرهم — ومن المؤكد أن بعض المنازعات قد نشأت بين طوائف الملاك حول

تشريعات المبانى ويدلنا على ذلك ما وجد من نصوص ديموطيقية متأخرة(٧) تتعلق بالإمكان وهى عبارة عن عقود قانونية بين الأفراد وإن كانت لا تشير إلى مواد تشريعية ولكن المهم أنها تشير إلى «الجدار المشترك» أو «حائط الجماعة» كما تشير إلى منافذ الضوء التى لا يجب على الجار اغلاقها عند البناء ففى بردية بالمتحف البريطانى اتفاق بين إمراة ورجل سمح فيها الرجل بأنْ تبنى السيدة منزلا يستند إلى جدار منزله الغربى وفى مقابل ذلك تحافظ على نوافذ الاضاءة المطلة على منزلها ولا تتعرض لسدها بالبناء وهذه الاشارة وأن كانت لا تشير إلى أى تشريع عن البناء ولكن من غير المحتمل أن الفراعنة قد أهملوا هذه الناحية .

وآخر مصدر لمعلوماتنا عن تخطيط المدن يمكن أن نستمده من القلاع المصرية وهناك من الدلائل ما يفيد بأنها عرفت منذ أقدم العصور فاكتشافات «يونكر» فى كوبانية لا تدع مجالا فى أن إليفانتين كانت مركزاً تجارياً وحصناً أمامياً (٨) فى نفس الوقت منذ عهد باكورة الأسرات وقد قام

شكل (٦)
قلعة السمنة مأخوذة من كتاب : Borchardt, Altag.Festungen,BL.6.

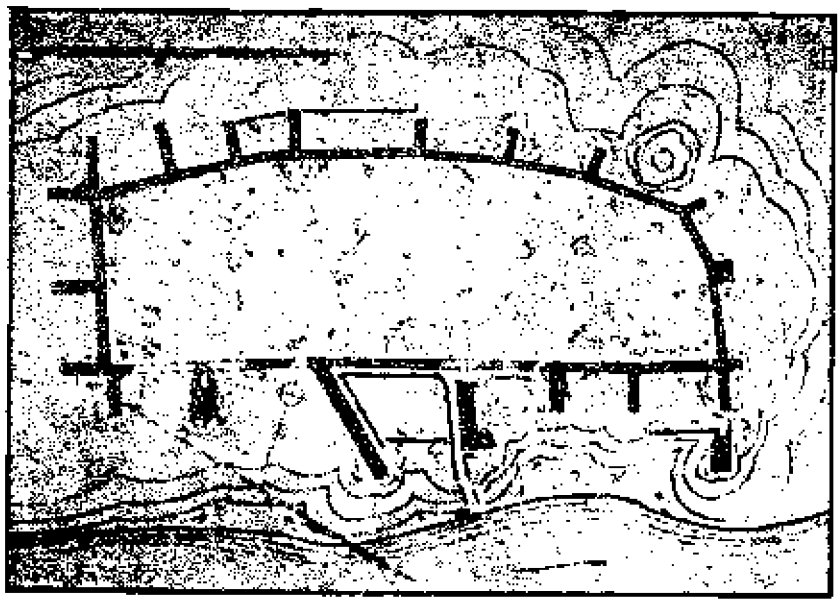

بتحصينها كذلك حوتى آخر ملوك الأسرة الثالثة (٩) — ولم يكن أقدم الحصون منتظم الشكل بالضرورة إذ أن هذه الحصون كانت تشيد فى مواقع ذات أهمية عسكرية ولذا كان لابد أن تتخذ شكلا يتمشى مع هيئة الأرض التى بنيت عليها وأشهر هذه الحصون والقلاع تلك التى بناها ملوك الدولة الوسطى فى النوبة وبعض القلاع التى بناها ملوك الدولة الحديثة وإن كانت هذه قد فقدت أهميتها بعد أن أصبح الأمن مستتباً فى ربوع تلك البلاد .

وكانت كل قلعة أشبه بمدينة حصينة إذ كانت تحتوى على معابد وتشغلها عدة مبانى تقوم فيها مصالح ودواوين مختلفة وبها عدد من المنازل وتخترقها بعض الشوارع — وقد قامت قلاع النوبة بدور مزدوج إذ أنها كانت تستخدم فى أغراض الدفاع من جهة وكمراكز تجارية من جهة أخرى — ويمكن تمييز بين نوعين من القلاع : أحدهما هو ذلك الذى بنى فى الأراضى المنبسطة أو فى الوادى بالقرب من النهر وخاصة فى النوبة السفلى فيما بين الشلال

شكل (٧)

منظر جوى لموقع قلعة أورونارتى من مجلة Kush العدد ٣ لوحة ١٤

ووادى حلفا وهذا النوع كان ذو شكل مستطيل على العموم ضلعاه الطوليان موازيان للنهر وهو مزود بالكثير من الأبراج فى الضلع المواجه للصحراء . أنظر مثلا قلعة الدبة (شكل ٦) — أما الطراز الثانى فيوجد فى اقليم الشلال الثانى بصفة خاصة وهو مشيد إما فوق هضاب صخرية تشرف على النهر أو فى جزر تعترض المجرى وهذا النوع وإن كان يميل إلى الاستطالة إلا أن شكله غير المتنظم كانت تحدده طبيعة الأرض المقام عليها ولم تكن أبراجه على مسافات منتظمة بل توضع وفق الاحتياجات العسكرية والدفاعية

ومن القلاع الغريبة فى هذا الاقليم ما يتميز بجناح بارز طويل هو عبارة عن جدار قوى من اللبن يمتد من صميم القلعة فى موازاة النهر وربما كان ذلك لتسهيل تطويق المهاجمين (أنظر الأشكال ٧، ٨، ٩) .

وأهم عناصر الدفاع فى قلاع النوع الأول (قلاع الوادى) تنحصر فى ميل سورها الداخلى ووجود خندق جاف حوله وحائط خارجى منخفض تعلوه أبراج — أما قلاع النوع الثانى (قلاع الهضاب أو الجزر) فإن موقعها يجعل من المستحيل إحاطتها بخندق وهى تستغنى بمركزها المشرف على ماجاورها عن هذا العنصر لأن المهاجمين يكونون مكشوفين لسكانها . كذلك كانت هذه القلاع ذات سور واحد فى الغالب ولم يكن بها مورد ماء داخلى أو بئر وإنما كان يحصل على الماء عن طريق ممر منحدر إلى النهر طرفه السفلى تحت مستوى الماء حتى فى وقت انخفاض النيل وكان هذا الممر مسقوفاً بأحجار مسطحة تخفى على العيون وهكذا كان يمكن للحراس أن يحصلوا على الماء فى كل وقت .

ومن توزيع هذه القلاع نتبين أن ثمانية على الأقل كانت قائمة بين صمنة ووادى حلفا وهى مسافة لا تتجاوز ٦٠ كيلو متراً وهذا يبين أهمية المنطقة لأن الملاحة فى هذا الجزء من النيل متعذرة بسبب كثرة الجنادل وتصلح المنطقة الواقعة فيها هذه القلاع لبعض العمليات الخفية ولذا فإن بعض القلاع فى هذا الاقليم كانت على مرمى البصر من القلاع المجاورة وعلى ذلك فإن الحاجة للاحتفاظ بعدد كبير من الجنود فى كل قلعة كانت معدومة إذ أن جنود

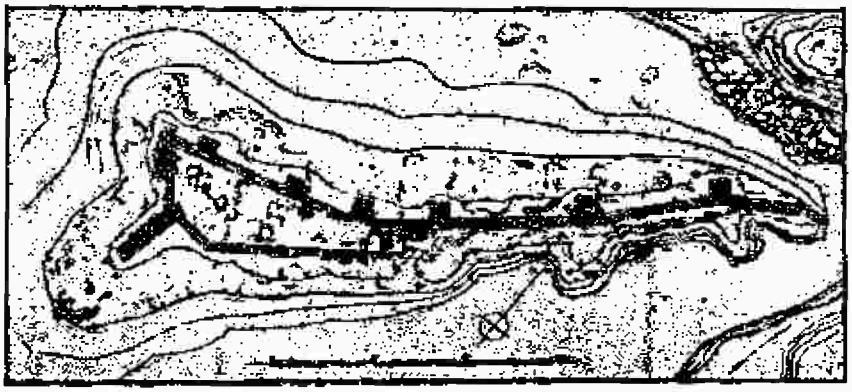

شكل (٨)
منظر لقلعه أورنارتى عن كتاب بورخاردت السابق لوحة ١٣

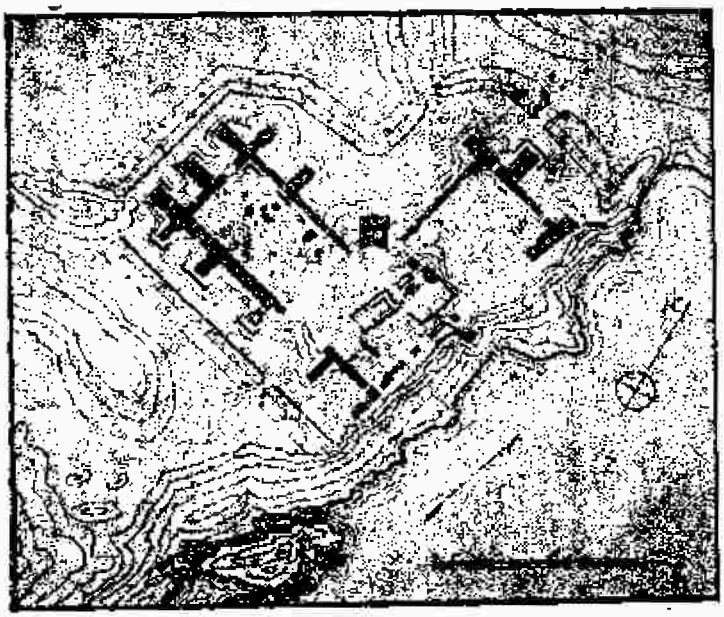

شكل (٩)
قلعة ضخمة مأخوذة عن كتاب بورخاردت السابق لوحة (٩)

كل منها كانوا يساندون جنود القلاع الأخرى — وبما أن قلاع الوديان قد شيدت فى الأماكن المزدحمة بالسكان لحماية المرور فى النهر وحماية قوافل التجارة فإن بعض هذه القلاع كانت تأوى اليه أو تقيم بالقرب منه قوافل التجار عند اضطرارها لقضاء الليل فى المنطقة ومن أهم قلاع هذا النوع قلعتى أكور « وكوبان» حيث شيدتا عند مدخل وادى علاق الذى كان يستخرج منه الذهب .

ولا بد من أن نلاحظ بأن الاتجاه العام فى كل هذه القلاع كان يميل إلى ترك مسافة كافية بين المنازل والمبانى من جهة وبين السور من جهة أخرى حتى يتاح للجنود أن يقوموا بعملياتهم العسكرية فى حرية وسرعة وكفاية .

ولا شك فى أنه كان على الدولة الحديثة وخاصة فى فترتها الأولى أن يبنوا قلاعاً جديدة فى المنطقة التى بعد الشلال الثانى على الأقل وأن يصلحوا أو يضيفوا إلى القلاع القديمة ولكن منذ منتصف الأسرة الثالثة عشر فقدت تلك القلاع قيمتها لهدوء الأحوال فى النوبة ودليلنا على ذلك أن المعابد كانت فى بادىء الأمر تبنى بالقرب منها أو فى داخل أسوارها لحماية ثروتها ولكنها أصبحت بعد ذلك تبنى بعيدة عنها — وبينما كانت قلاع الدولة الوسطى تشيد فى مناطق عسكرية فأن قلاع الدولة الحديثة بنيت فى سهول منبسطة لا تتحكم فى أى طريق نهرى أو برى ولا توجد فى مناطق موارد محلية غنية كما أن أبراجها وأسوارها لم تكن ملائمة للأغراض العسكرية بل كان يكتفى بمظهرها الجميل ونظامها ولا يوجد لها أى خندق أو جدار دفاعى عند قاعدة السور وليس لها منفذ للماء أو مورد مياه داخلى وبالطبع لم تكن مثل هذه القلاع لتخدم أغراضاً عسكرية أى أنها لم تكن قلاعاً بالمعنى الصحيح .

وما دمنا بصدد الحديث عن قلاع النوبة ومدنها الحصينة فلابد من أن نشير هنا إلى ما يعرف لدى الأثريين باسم حصن كرما التجارى وهو ذو نظام فريد إذ أنه يتميز عن الحصون التى ناقشناها بأنه مشيد فى سهل منبسط يبعد عن النهر بنحو كيلو مترين ويعرف محلياً باسم الدفوفة الغربية — ونظراً

لأنه شيد فى بقعة غير ملائمة بالنسبة للمصرى فى عصر بنائه فأن الآثار الباقية منه تدل على أنه عبارة عن محاكاة مقصودة وصناعية لطراز قلاع الهضاب المعروفة فى منطقة الشلال الثانى حيث أمكن الوصول إلى ذلك عن طريق بناء من اللبن يرتفع نحو ١٩ متراً توجد فوقه المساكن (لم يبق منه إلا الأجزاء السفلى فقط) وقد أحيط كل هذا البناء بحائط ضخم منخفض وكانت كل مبانى القلعة من لبن شبيه باللبن المستعمل فى مصر ووفق المقاييس المصرية .

ومن المعقول أن نستنتج — كما يرى « بونكر » — بأن هذا الحصن لم يكن قلعة بالمعنى الصحيح يمكنها محافظ يشرف بقواته على الاقليم المحيط به لأن الحدود المصرية كانت وقت بنائه تقع على بعد لا يقل عن ٢٥٠ كيلومترا إلى الشمال ولا توجد أية قلعة فى هذه المسافة وبعبارة أخرى فأن مثل هذا البناء المنعزل لا يمكن أن يؤدى وظيفة الحصن القوى أو أن يكون جزءاً من نظام الدفاع أو الحماية للمصالح المصرية فى هذا الإقليم ، والأرجح أنه لم يكن سوى مركز تجارى فحسب — ولا تعطينا الآثار الباقية منه شيء المعلومات عن تخطيط المساكن فى أعلاه أو فى داخله وهكذا لا يفيدنا كثيراً عن التخطيط العمرانى فى مصر القديمة .

من كل ما سبق يمكن أن نستنتج أن المصرى القديم كان يهدف فى تخطيطه العمرانى إلى تحقيق أغراض عملية إذ كان لا يلجأ إلى اقامة مسكنه فى الأراضى الزراعية التى يحرص على استغلالها فى الزراعة الا حينما تدعوه الضرورة لذلك — وفى بداية الأمر كان هذا المسكن بسيطاً ساذجاً لا يخرج عن كونه دروة بسيطة مستديرة أو بيضاوية ثم استقامت جدران هذا المسكن بعد أن عرف الانسان اللبن واستخدمه فى البناء — ومادام المسكن هو المأوى الدنيوى الزائل فلابأس من أن يظل اللبن مادة بنائه الأساسية ولذا لم يجد المصرى ما يبرر الاستعاضة عنه بالحجر وربما كان اللبن أيضاً أنسب مواد البناء فى البيئة المصرية التى يغلب فيها الجفاف والدفء —

وإذا ما تجمعت عدة وحدات سكنية فى بقعة ما فأنها كانت تحاط بسور وتشق فيها الطرقات بحيث يسهل الدفاع عنها واتصال أجزائها بعضها بالبعض ولم يخرج المصرى على هذه التقاليد حتى عند تخطيط مدينة كاملة دفعة واحدة اذ كان يعمل على اختيار البقعة الملائمة وحسن توزيع وحداتها المختلفة بحيث يسهل تصريف مختلف الشئون وتتسنى له دقة الاشراف عليها .

المراجع

1. Maciver and Mace, El Amrah and Abydos, pl. X.

2. Cpart, Primitive Art in Egypt, fig. 160.

3. Caprt, op. cit., figs. 176, 182 & 148.

4. Selim Hassan, Giza II — أنظر الخريطة باللوحة الثانية من كتاب
Reisner, A History of the Giza Necropolis, vol. I. — وخريطه رقم ١ فى

5. Petrie, Pyramids and Temples of Gizeh, p. 101.

6. Peet-Woolley, City of Akhenaton, I, pl. I.

أنظر أيضا — Fairman, Town Planning in Pharaonic Egypt, The Town Planning Review (Liverpool, April 1949), 43 ff.

7. Pap. BM. 10500 & 10524 — Glanville, Catalogue of Demotic Papyri in the British Museum, I, pp. 21 22, 47.

8. Junker, Kubanieh Sud, 5.

9. Borchardt, Altäg. Festungen, 41.

١٠ — يحتمل أن مركزا تجاريا فى هذه البقعة كان قائما فى عهد الدولة القديمة ولكنه لم يتخذ شكله النهائى ويتطور فى بنائه الا من عهد الدولة الوسطى .

تم بحمد الله ، طبع هذه المجلة بمطبعة
جامعة الاسكندرية فى يوم السبت ٢٤ من
صفر سنة ١٣٨٤ ، الموافق ٤ من
يوليه سنة ١٩٦٤

مدير المطبعة

محمد يوسف البساطى

dwelling near the frontiers, should be put under close observation. All clansmen should carry identity cards to specify their nationality. Crimes and criminals can thus be easily controlled.

VII. Since the culture of any specific people form an organic unit in the sense that a change in one aspect will have repercussions on other aspects, it is thought as essential that any development project should be preceded by a thorough study of that particular culture. Sociological problems of the deserts' inhabitants should thus be studied side by side with the problems of water or land or pasture. Such studies are badly needed with regard to the Syrian Desert and its tribes. The departments of Sociology and Anthropology in the Egyptian Universities, as well as the Desert Institute of Cairo have done well towards accomplishing such studies in the Western Desert. Conferences and seminars should also be invited every year, or every other year, to discuss the problems of the arid zone in general and the problems of sedentarisation of nomads in particular.

affect the life of the people should be introduced only with the consent and, if possible, the participation of the people themselves. It should be noted, however, that some of these recommendations are now under actual execution while the others are still under consideration.

I. State lands should be distributed among the Bedouins, and small holdings should be encouraged while strict measures should be taken against holding large estates. A legislation to this effect was issued in Syria in September 1958, and a similar legislation is still under consideration by which the lands of the Western Desert will be distributed among the inhabitants of certain areas.

II. Due attention should be paid to the execution of irrigation schemes in Syria and to the boring of artesian wells and the construction of cisterns in the Western Desert.

III. Consideration should also be given to the question of improving the technical and agricultural standards of the people and to the mechanisation of agriculture, especially in Syria where the vast stretches of arable land allow for the using of modern machines in cultivating the fields. New agricultural industries should be established in different centres in both deserts. The people should get enough informal agricultural education through the cinema and the radio. Also systematic and formal education should be extended to them. To achieve these results agricultural schools should be established in the larger and more crowded areas.

IV. Native chiefs, especially those of the nomadic clans in Syria, should be brought under the close control of the administrative authorities. Severe checks should be imposed on their power. It is generally held in official circles that the customary law and the tribal courts should be abolished, and that the Bedouin tribes should be brought under civil legislation.

V. Social services should be extended to the desert and semi-desert areas especially with regard to public health and the housing situation.

VI. Until the contemplated projects of sedentarisation are actually realised the movments of the nomadic clans, especially those

and lineages usually leave deep traces of bitterness and may breed further hostilities between them. The military court issues its verdicts with the sole purpose of inflicting punishment on the wrongdoer. It does not seek to retrieve the loss or the restitution of the injury. Its verdicts are repressive. On the other hand, most of the cases which are brought before the civil court remain for a long time without being settled. The judges who usually come from urban communities find themselves at a loss to understand the complicated systems of ownership and usufruct and the relation between residence and rights of exploitation etc. In many cases the litigants realise the loss and damage they suffer from such long delays and so they settle their disputes by the ordinary native methods of arbitration and withdraw their cases from the court.

To reach a compromise between both systems of legal procedure especially in dealing with major crimes such as homicide, the concerned authorities in both deserts do their best now to leave the duty of settle these disputes to the tribal chiefs and the traditional arbitrators, under the auspices and the supervison of the local administration. The administration is therefore represented on the native courts, and all settlements or verdicts reached in this way are ratified by the authorities. It is generally thought, however, that one of the most effective measures that should be taken to achieve the sedentarisation of nomads is the abolishing of the native courts.

RECOMMENDATIONS

The following recommendations have been suggested to me during private interviews with officials concerned with the problems of sedentarisation in both the Western Desert and the Syrian Desert. These recommendations are regarded by those officials as effective measures which are likely to hasten the process of settling down the nomadic and the semi-nomadic groups. They put much stress on the economic side, or rather on the question of changing the modes of livelihood which prevail in the desert and consider such changes the corner-stone in any programme designated for permanent settlement of these groups. Changes in the economic system will lead to fundamental changes in the total social structure, as it has already been indicated. On the other hand, it is generally felt that any changes which may

The recent introduction of modern law to the desert areas has led, especially in the more sedentary communities of the Western Desert, to an obvious duality in the judicial organisation and procedures there. For the customary law and the traditional tribal arbitrators are still functioning side by side with the modern courts of law. The two systems, however, are regareded to be complementary, in the sense that when one system fails to reach a conclusive result the other may be tried, but this does not entail that a dispute should always go through a rigid and gradual order of procedures, thus passing from one procedure which is considered lower and inferior to another which is higher and superior. Litigants can actually put their cases before the judicial body which they think more suitable to reach a conclusion. While litigants who have no faith in the impartiality of the tribal chiefs put their disputes before the modern law court, other litigants may withdraw their cases from the civil court and put them before the native arbitarators if the court fails to reach a quick settlement.

There are three types of law courts to which disputes may be referred, according to the nature of the dispute or the offence itself. All domestic situations which rise from divorce or which may lead to divorce are put before the *Shari'ah* court. This court does not play an effective role in maintanining the social order in the community, for it deals with one type of dispute and only a few cases are brought to it every year. Disputes over the right of exploiting the land, the rights in inheritance or the payment of debts, etc. i.e. the cases which come under civil law, are referred to a civil court, while quarrels in which violence and physical force are used, cases of theft or rape and other offences which come under the penal law are brought before a military court. *Shari'ah* courts have been very recently abolished from Egypt and all the disputes which were originally brought to them are now referred to ordinary civil courts.

The people consider the way in which the military court handles offences and its verdicts, which vary between heavy fines and imprisonment for a number of years, as exceptionally harsh. The impartial examination of the cases of offence and transgression, and the verdicts which are brought on the sole basis of the findigs without giving weight to any other consideration, such as the personal or social relations between the defendant and the plaintiff and their respective families

Evidence and Oath

Customary legel procedures in both deserts do not depend much on evidence, for revealing the truth. In fact, the people abstain from evidence, for it is likely to involve the witness and the party against whom he gives evidence and their respective families into endless troubles. The same attitude still prevails even among the more sedentary groups who carry their disputes to ordinary courts of law in the larger towns; for the witness is regarded as responsible for any harm that may befall the accused person as a result of the evidence he gives. This may lead to inflicting certain sanctions upon the witness and imposing heavy obligations on him towards the accused person himself and his family. The accused person, however, is expected to take the oath to his innocence especially when there is not enough evidence. A man who refuses to take the oath is automatically considered guilty and loses his case. In major offences, such as homicide and the seduction of young girls, the oath taken by the accused pesron to his innocence is not accepted by the plaintiffs unless it is sponsored and supported by a number of the defendant's clansmen. These men, who are usually chosen for that purpose by the wronged party and who are generally known by their piety and honesty, take also the oath with the accused person to clear him out of the crime. The abstention from taking the oath by one single man from the chosen party is taken as enough evidence to the guilt of the accused person. The number of these men varies from case to case according to the seriousness of the offence. Thus :

a) In cases of homcide, the oath should be taken by 55 men. This is the common practice in both the Western Desert and the Syrian Desert. This is called "the oath of the murdered soul", and if one person fails to take it, the bloodwealth should be paid.

b) In cases of injuries and offences which are usually compensated for by the payment of half the amount of bloodwealth (such as in the case of losing an eye.) the oath should be taken by 27 persons.

c) In cases of destroying wells, fields, homesteads and other vital property, and in cases of disputes about the ownership of these things, the oath should be taken by 25 persons.

d) Three or four persons should take the oath in cases of disputes about debts under 10 pounds.

any previous intent is only £E.300. Bloodwealth in the Syrian Desert, on the other hand, seems to be subject to lengthy haggling between the two parties. The amount of bloodwealth also differs according to sex. Bloodwealth paid for the murder of a woman is usually the half of that paid for the murder of a man. The only exception to this is the system followed among the Shammar clans who consider it a shame to kill a woman. Therefore, the bloodwealth paid for the murder of a woman there is four to eight times that paid for the murder of a man. Lastly , the amount of compensation depends on the nature of the offence or the crime and the damage or loss suffered by the wronged party. A certain expert known as the *naddaar* (lit, the man who sees) examines the damage caused by the culprit and the amount of compensation is estimated accordingly. The two concerned parties should agree at first on the person of the *naddaar* before he could investigate the damages. To illustrate by a few examples from the Western Desert :

a) Compensation for surface wounds varies between 2½ and 200 piastres

b) Compensation for deep cuts which go through the flesh but without breaking the bones varies between P.T. 350 and 750.

c) The loss of an eye is compensated for by the payment of half of the usual bloodwealth, i.e. £. E. 200 or £ E. 160 according to whether the injured party belongs to the Awlad Ali or to the Morabiteen clans respectively. The same amount is paid as compensation for the loss of an ear, or an arm, or a foot;

d) Stolen animals and objects are restituted or compensated for. An extra fine called *kabbara* should be paid to the wronged party ;

e) Compensation for adultery with a virgin is £.E. 20, unless the man agrees to marry the girl. In this case the man pays the customary bridewealth which is usually paid for the virgin at their marriage. Compensation for adultery with a married woman is also £E. 20 which should be paid to the husband and not to the woman's father. In this case the husband can keep his wife. But if the husband prefers to divorce the wife because of her sin, then the adulterer is obliged to pay him the bridewealth he gave her on their marriage. In this latter case, the adulterer is entitled, if he so wishes, to marry the woman without any further payments on his part to her family. A husband catching an adulterer in *flagrante delicto* has the right to kill him without being exposed to retaliation or to paying the bloodwealth.

in committing the crime. Thus, he had to contribute a certain share in the compensation paid to the family of the dead man. Offences committed by a man against one of his own clansmen do not, as a rule, involve any other person besides the wrongdoer, and in most cases no action is taken against him. This rule is followed to keep the solidarity of the clan.

Retalitation and Compensation

The principle of collecive resposiblity, generally accepted by the more nomadic groups, usually leads to the retaliation not from the offender himself but from some other member or members of his clan. Retaliation for capital crimes are actually regarded, at least by the nomadic clans, not only as a punishment exacted on the wrongdoer and his kin-group for the offence, but also as an effective measure by which the clan of the wronged person can restore its esteem and reinstate its social position. The existence of systematic legal procedure and of legal authorities in the two deserts does not prevent from applying the principle of retaliation. But it should be noted that the sedentary groups and the semi-nomads are less inclined to resort to retaliation than the nomadic groups. The payment of compensation is, however, gaining land all the time, even among the nomadic groups, at the expense of retaliation.

The whole principle of compensation and the rules regulating the amount to be paid in each case are strictly defined by tradition and are generally accepted by all the Bedouis who prefer to settle their disputes with peaceful means and without the interference of the administrative authorites. Certain factors are taken into consideration when estimating compensation. In the first place, the amount depends on the social status of the clan to which the wronged person or persons belong. Thus, the compensation paid to a man who belongs to the Morabiteen clans in the Western Desert for example is usually the half of that paid for a similar crime or offence inflicted on a person who belongs to the Saadi clans. The only exception from this rule is the Sereihat, the Mareerat and the Smallus of the Morabiteen who, because of the aid they gave to the Awlad Ali during their long wars, are entitled to full compensation. The question of criminal intent is another important factor in determining the amount of compensation, at least among the Bedouins of the Western Desert. Thus, bloodwealth paid for intent homicide is £E.400; while that for the casual murder of a person without

an *'Arefa* because his father was occupying that office and thus he had chance to see him looking into disputes, which action is likely to give him insight and to develop his sense of good judgment.

Responsibility

The general tendency to seek compromise shows that there is more inclination to consider disputes and offences as private affairs rather than social or public crimes. Unless the culprit is a habitual malefactor, the offence is more likely to be examined and settled within the narrowest possible circle. In other words, an offence is usually regarded as directed against the individual or an agnatic kin-group and it is only the two parties concerned who preoccupy themselves with settling it. This does not mean the absence of all social reaction; the society rather expresses its opinion in an unorganised way by boycotting the wrongdoer and avoiding his immediate agnates. This means that responsibility is considered to fall on the agnatic group rather than on the individual wrongdoer. All his agnatic kin and more particularly his near kin are, partially at least, responsible for his bad behaviour. They are rebuked because of their failure to control his actions; they are avioded by the people and they are regaded as equally responsible for the payment of any indemnification. They are also exposed to retaliation in cases of homicide. On the other hand, injuries inflicted on a clansman by a man who belongs to another clan are usually resented by all the victim's kinsmen, and to a less degree by his clansmen, who seek indemnification or inflict retribution. This principle of collective responsibility is the cause of the actual institution of clan-vengeance or blood feud.

Sometimes, responsibility may extend beyond the circle of the culprit's clansmen. Any person who, directly or indirectly, takes part or contributes to the actual execution of the offence is considered rsponsible for the injury inflicted upon this victim, and is, consequently, reprimanded. Sometimes he has to contribute towards the payment of compensation which may be claimed by the victim's kinsmen. To give an example: A violent discussion between two persons sitting in a café at Mersa Matrouh led to a sudden quarrel between them. A number of the customers as well as other persons who came on the spot to support one or the other of the two parties were soon involved in the quarrel, in which the two parties used clubs and chairs. A man was hit on the head by a chair and fell dead. The owner of the café was considered co-responsible for this, since it was his chair which was used as a tool

the customs and traditions of the tribe, or a religious functionary, is usually preferred as mediator to the political chief. There are a few such men in each clan whose opinion and judgment are always given high consideration and are generally accepted by the conflicting parties. They do not interfere unless they are invited, but once they are approached to do so they cannot decline the invitation to mediation. In fact, political chiefs of the sedentary clans also do not intervene of their own accord except in the case of grave disputes which may threaten the solidarity of the kin-group or when it is feared that the disputants may resort to force or to collective violence which may involve a number of tribal segments. Whatever might be the case, violence is not likely to be used in disputes between segments of the same clan however serious may be the disputes and however grave are the offences which cause them; whereas minor offences or disagreement between strangers who belong to different clans (in the case of Egypt) or to different tribes (in the case of Syria) may flare up into violent hostilities in which physical force is used .

Chiefs on the wole, and more especially those of the sedentary clans, like to play the role of the pacifying mediator, although the chiefs of the nomadic groups of Syria can easily resort to coercion if the need arises. As it has already been said, the tribal chiefs in Syria still enjoy high authority and are regarded with respect and awe. In nomadic clans there is no higher "native" authority to appeal to; their word is law and their decisions are final judgments. They usually seek the advice and opinion of the lineage-chiefs and the religious functionaries and old men who are generally called by the Syrians *'Awaref*, i. e. "those who know well", before giving their decisions. The system of the *'Awaref* is a well-established institution among the nothern clans of Syria and more particularly among the frontiers clans who live near the Iraqi-Syrian borders such as the Shammar and teh Jeboor. The system in not known, or at least does not take the form of institution, among the clans which inhabit the Damascus area or those who live near Huran and Belqa-a. There, the chief is regarded as the sole and supreme judge. The Shammar clans say that their continual movements and the too many and too complicated responsibilities and preoccuptions of their tribal chiefs have obliged those chiefs to abdicate the judicial function to the *'Awaref*. A man is likely to become

VII. CUSTOMARY LAW

General Remarks

Judicial procedures and legal systems among the Bedouins of both Egypt and Syria follow, on the whole, certain rules and principles imposed by custom and defined by traditon. Law in the sense of imposed and written texts is not known to them except when the administrative authorities interfere into their affairs. Traditional or customary rules regulating their life and social relationships are kept alive in the memories of their elders and chiefs who look into their disputes and settle them according to these rules, and the judgments given by these elders and chiefs have to be accepted by the disputants. This is especially obvious among the true nomadic groups in both deserts. Juridical authority, in this sense, is distributed within the tribe along the same lines of bifurcation by which the tribe itself is segmented. This means that each kinship unit, however small, has its own chief or chiefs to look into the disputes of its members. Thus, the disputes which occur between two members of the same lineage are referred to the elders of that lineage while those which rise between members of the different lineages of the same clan are settled by chiefs of that clan, and so on. The disputes which arise between different tribes can lead to open war, but they sometimes are put to arbitration. Prolonged raids, or even wars, in the anthropological sense of the word, between the conflicting tribes are more apparent in the Syrian Desert where armed clashes often break out not only on the pasture-lands but also on minor disputes.

Intra-tribal disputes are generally settled quickly so as to maintain internal solidarity and homogeneity of the tribe. This depends, however, on the density of the social interrelations between the disputants, i.e. the stronger the relations and interactions between the conflicting segments the more quickly settlement is sought and reached, and the weaker the interactions in day-to-day life the slower the process for settling the dispute. But in any case, an accepted solution by all the concerned parties should be reached as quickly as possible. The general tendency in both deserts is to treat the disputes which occur within the tribe, and more particularly within its smaller segments, as domestic affairs which should be dealt with privately and without the intervention of a third party or an outsider. An arbitrator needs not be a political tribal chief. An old wise man who is well informed of

The social achivements of the projects will, by no means, be less important than the economic results, although they are seldom envisaged beforehand by the concerned authorities when contemplating the original schemes, The emergence of the new life which depends mainly on intensive agriculture and on certain agricultural industries will encourage migration to the new agricultural and industrial centres which will be established in the desert. Perhaps this will be more obvious in the Western Desert of Egypt where some of the proposed projects do take into consideration the possibility of moving a certain number of the more trained peasants from the Delta to rehabilitate the desert, especially the coastal zone, and to cultivate the reclaimed lands. As it has already been said, all the skilled labour needed for the new industries will be recruited from the Nile Valley, and more particularly from Alexandria. Thus, it is expected that the creation of these new industrial and commercial centres in the Western Desert will lead to the absorption, in the desert, of a certain proprion of the inhabitants of the Delta and will thus contribute towards solving the problem of the increasing population of Egypt. Although Syria, on the other hand, is generally regarded as underpopulated, a large proportion of its population is concentrated in a few towns and cities leaving the rest of the country, and especially the vast and rich areas in the east and the north,sush as the Gezira region, with only a very thin population It is also hoped here that the agricultural and economic development which will be realised in these areas through the different irrigation and land reform schemes will draw a certain percentage of the population from the the over-populated regions. At present, seasonal migratory movements take place at harvest time. More skilled peasants from Aleppo go to the Gezira area every year to help in the cultivation and the picking of cotton as well as in harvesting grain. The execution of the sedentarisation projects in the Syrian Desert will thus lead to a more even distribution of the population.

Perhaps the most important achievement of the sedentarisation projects will be the diminishing of the cultural differences which now exist between the Bedouins of deserts on the one hand and the inhabitants of the rural and urban communities on the other. Common values and patterns of thought will prevail all over the whole society with all its different sectors as a result of applying the rural and urban modes of livelihood to the desert areas.

The traditonal kinship system, round which revolves all the social life in the desert, will be affected more deeply than the rest of the social institutions, if we leave apart the economic life. The core of this system is the cooperation of alarge number of agnatic kin who constitute one corporate economic unit in which the personality as well as the rights of the individual are completely submerged by group interests. The economic independence of the individuals and the consequent separatory trends will lead to the weakness in kinship and lineage ties and to the shrinkage of the kin-group which acts as a unit and to the reduction of its size. The larger lineage-segments will thus disappear and will give way to the emeregence of the ordinary elementary family which prevails in the larger cities and in the urban communities in general. In fact, this type of family is beginning to dominate the scence in the larger villages of the two deserts such as Mersa Matrouh in the Western Desert and Raqqa and Deir- el-Zor in the Syrian Desert. All these villages offer opportunities of getting engaged in trade or paid jobs.

The traditional political aystem will also suffer badly as a result of the execution of the sedentarisation projects and the growing of the sense of individuality and personal independence. It seems that the fear of the headman and tribal chiefs are fully justified in this respect. Apart from being imposed under the direct rule of the local administrative authorities after sedentarisation, the prestige and power of the chiefs will be drastically depreciated by the antipathy of the people themselves to their intervention in their affairs. This antipathy can actually be noted among the more sedentary groups who live in the rural centres in both deserts. The general tendency among these groups is to overlook, sometimes to ignore, the authority of the traditional chiefs. Thus, it should be expected that the coercive and almost absolute powers enjoyed by the tribal chiefs of the more nomadic tribes and clans, especially those inhabiting the Syrian desert, will be greatly demeaned by sedentarisation. Yet the curb imposed upon the authority of the chiefs and their status as eminent political figures and the gradual acceptance of the administrative authority will provide, on the other hand, and as it has already been said, an effective means for social control in the two deserts. Under the present tribal organisation, chiefs are liable to misuse their authority and to be a real source of unrest and threatening menace to peace. The abolishing of nomadism will put an end to the illegal activities of the tribal chiefs.

parts of the Syrian Desert. The subterranean water is equally unreliable, for the flow may drop suddenly owing to the exhaustion of the local resources of water which feed the wells. Another serious difficulty which should be tackled with is the non-existence of modern means of transport in both the Western and the Syrian Deserts. It is terribly difficult to travel in the Western Desert to the south of the narrow coastal zone. It is almost impossible to find adequate means of transport in the remoter parts and hamlets which lie far from the very few roads in the Syrian Desert. The development of agricultural or industrial or trade centres will be difficult to achieve unless the problem of transportation is solved at first in both deserts.

The Social Effects of Sedentarisation Schemes

The execution of these projects will not pass without leaving their deep traces which will affect not only the Bedouin communities, but also the whole society at large. The creation of new industrial and trade centres, the drift to industry and to agriculture and to paid jobs in general, the consequent increase in cash money in the hands of the dwellers of both deserts as a result of this drift, the redistribution of land and the consequent emergence of individual or private ownership, the increasing contacts with larger cities and towns and the propagation of education will certainly entail drastic changes in the traditional structure of the Bedouin community. In other words, the projects which are planned orginally to reach certain changes in the economic life of the Bedouin community will lead, in one way or another, to deep changes in other spheres of the social life, and more specifically in the kinship and the political systems. Such changes have already taken place in certain parts in the Western Desert of Egypt, such as El-'Amriya and Mersa Matrouh, where the people have become more settled and are leading a more or less sedentary life. The growing sense of individuality and of economic independence among the younger generation is the main factor responsible for these changes in the social structure, as well as in the traditional patterns of social relationships. Being economically independent from his kin-group, the young man who is engaged in a paid job will have the chance to relieve himself of the interference of his elders, which may lead in the end to the breaking down of the total structure.

labour and who have enjoyed all the facilities which money can afford to provide. On the other hand, the more nomadic clans, and more particularly the tribal chiefs and the headmen of the nomadic tribal sections, openly express deep resentment and indignation towards most of the projects, and display doubts about the possibility of executing them to the desired ends, and the benefits which will be obtained from them. This is more obvious among the nomads who live near the Egyptian-Libyan borders and who, thus, having grazing interests in both Egypt and Cyrenaica. It is also clear among the nomadic clans who inhabit the southern parts (e.g. the Rowalla clans) and the eastern parts (e.g. the Shammar and the Jeboor clans) of the Syrian desert and who have grazing interests in Syria, Jordan and Saudi Arabia in the case of the Rowalla, and in Iraq in the case of the Shammar and the Jeboor. For all these frontiers'clans, sedentarisation means the abdication of these interests which they have outside their home-country.

d) Sedentarisation projects in Syria contemplate the possibility of transposing certain clans who are living under less favourable conditions, such as the Rowalla, to the Gezira region. But it seems that such a measure, if taken, will be met with much resistance from both the Rowalla who are not ready to abandon their dwelling area, and the local clans,i.e. the Shammar and the Jeboor clans who are not willing to allow *their* land to fall into the hands of intruders. They regard the land as if it were their own property to the exclusion of all the other clans. All the chiefs of the Rowalla and the Shammar clans with whom I discussed that point invariably admitted that any attempt to enforce such movements will lead to ardent social strife, and perhaps to open war between the concerned tribes.

e) Apart from the social obstacles, sedentarisation schemes are liable to be encountered by some impeding physical obstacles especially the scarcity of the water which is much needed for the irrigation of the reclaimed lands. As it has already been noted, the problem of water is a very crucial one. Rain is quite unreliable and erratic especially in the Western Desert and in the southern and eastern

is the Ras-el-Hikma project which was originally planned to realise pasture improvement in the Western Desert and to arrange for a better management of the grazing resources. This policy may prove, in the end, to be harmful to the animal production and may entail bad effects on the animal wealth, and aggravate the meat situation. These bad effects will be more obvious in Egypt where the animal wealth is comparatively meagre that thousands of heads of animals are imported every year from Cyrenaica, the Sudan and Syria itself. The giving of too much consideration to agriculture or to agricultural industries may create a simliar situation in Syria also and may have drastic effects on Syria's external trade. Livestock constitutes a fairly high proportion of Syria's exportation (6.9 per cent., 6.5 per cent., and 6.1 per cent. of the total exportation in the years 1951, 1952 and 1953 respectively, This does not include exports of wool, leather or animal skin.)

b) All the projects take into consideration the fact that it is impossible to achieve sedentarisation without granting the people the right to own the lands which they cultivate. The ownership of the land will certainly create a new sense of security which the people lack under the present conditions. It will also create strong ties between man and the land, thus inciting the people to give due care to their fields and cultivation. The question of conceding ownership of land to the inhabitants of the desert is still under consideration.

c) Reaction to the proposed sedentarisation projects varies widely from mere indifference to hostile resentment, according to whether the inhabitants will get any benefits for themselves or will suffer certain losses as a result of the execution of these projects. Most of the ordinary people, however, react favourably and do welcome any sedentarisation scheme which will entitle them to own the land and to provide the fields with the necessary water. This favourable attitude is more clear among the semi-sedentary groups who live nearer to the cities and towns and the larger trade centres and who, thus, realise the privileges of sedentary life. The same attitude is adopted by the groups who have been accustomed to wage

c) new owners should themselves till the land for three successive years and should not dispose of it except after 15 years. Taxes paid by the new owners should not exceed one - tenth of the crop at harvest time.

The plans as well as the execution of the project were carried out by Col. Mostafa Hamdoon, the then Clan Officer at Hassaka.

A similar project is now under consideration which contemplates the distribution of some 50,000 hectares, apparently on similar terms, among the clans in the Roje area to encourage sedentarisation. Besides, there are some other projects of sedentarisation (all of which are still under consideration) such as the project of jebel Sam'aan to the north-west of Aleppo which will introduce the growing of vines in vast areas of land; the Ghab project which envisages the construction of two dams to harness the River Asi at Halfaya and Roston and to conserve the water necessary for the irrigation of some 65;000 hectares in the Ghab area and the 'Asharna plains; and the Jebal-el-Drooz project which also envisages the extensive planting of vines. All these projects contemplate the possibilty of settling down, in the end, several thousands of the nomads and semi-nomads who live in the respective areas.

In point of fact, the Syrian authorities are contemplating the realisation of a number of projects to enlarge the cultivated area, and which will certainly affect the lives of the nomadic and the semi-nomadic groups there. Details of these projects fall beyond the scope of this survey, for they are primarilty concerned with problems of irrigation. An account of these projects could be found, however, in the *Economic Development of Syria* : A Report of a Mission organised by the International Bank for Reconstruction and Development. (John Hopkins Press, 1955).

General Remarks

The following points emerge from the abovge account of the projects of sedentarisation in both the Western Desert and the Syrian Desert.

a) Most of the projects tend to achieve sedentarisation at the expense of animal husbandry or at least, they do not give this vital question the due care and consideration. Perhaps the only exception

production of figs, olives, warter-melon, etc. A research centre has been established at Burg-el-Arab to carry out experiments concerned with the improvement of the production of fruits and vegetables. About 400 *feddans* are dedicated for that purpose.

B. *IN SYRIA*

It has already been said that the physical and environmental conditions in the Syrian Desert are much more favourable than those prevailing in the Western Desert. The Syrian Desert enjoys a larger amount of rainfall, besides the actual existence of a number of rivers and streams. There are also vast stretches of cultivatable lands which either lie fallow because of the shortage in labour, or are exploited by a small group of "big farmers" who secure high profits for themselves. Therefore, all projects of sedentarisation of the nomads deal at the same time with the problems of land-ownership, land-reform and land-redistribution. The principle of conceding the ownership of State lands to the people was explicitly stated in the 1950 Constitution (Article 22). But this was not brought into effect except much later when the Ministry of Agriculture tried, in November 1952 and again in Juanuary 1953, to sell away a part of the State lands to private individuals at very low prices. The land was divided into plots of 50 hectares or 10 hectares each according to whether it depends on rain or is irrigated directly from the river. This has enabled certain nomadic groups to own vast stretches of land. Perhaps the best example to illustrate this is the distribution of some 100,000 hectares (1,000,000 donems) of the Gezira lands among the Shammar, the Jeboor and the Sharabieen clans, in what is generally known as the *Southern Rudd Project*. The plots were sold to the "poor" nomads who wanted to settle down and live in the villages which were built for that sole purpose, i.e. to be the dwelling places for the new sedentary owners. The following conditions were taken into consideration in selecting the new owners :

a) original inhabitants of the area, particularly married persons, were preferred to others;

b) really poor persons, i.e. those who did not hold any land either by ownership or tenancy, but who, nevertheless, owned means of exploiting the land were given priority;

But to encourage sedentarisation and to tempt the Bedouins to settle down and to make best use of these improved conditions, the people need to be provided as well with adequate habitation which suits this new life. Therefore, a section of the land devoted to the pilot project was divided into smaller plots in each of which was built a "model" house to meet all the requirements of the Bedouin in the new life. Each house has its own small garden where vegetables and fruits can be grown for private consumption, and its own animal byre. Wells, provided with wind-pumps, were also constructed to provide the settlers with water for daily use and for the irrigation of their gardens.

The pilot project has achieved, from the technical point of view, excellent results, and there is every reason that the original project itself will realise similar results if it is handled with the same care and determination. The social entailments, however, are not yet clear. But it can be generally said that the inhabitants of the area have not yet shown encouraging signs of interest in the project, in spite of the great efforts made by the staff of the research station to stimulate this interest.

IV. *Other Projects*

Governmental circles are also considering some other minor projects for a better exploitation of the available water resources, for increasing the cultivated area and establishing new industries which depend on the local agricultural products, and consequently, for the sedentarisation of the nomadic groups. The most important of these projects are those concerning the drilling of artesian wells and the construction of water cisterns to conserve water. A number of cisterns are now under construction in different parts of the desert. The most important cisterns are those to be built at Wadi-el-Kharrouba near Mersa Matrouh. A dam was constructed in 1955 at 'Ageeba, also in the Matrouh area, to keep the rain water rushing down from Wadi-el-Ramleh from being lost in the sands or in the sea. Also, some 120 artesian wells have been sunk in the last few years; more wells are still under construction. All these wells are drilled along the coastal zone and their yield of water will be used in the irrigation of the olive groves which will be grown soon. Most of the projects concerned with water are carried out by the Desert Irrigation Department [1].

Serious efforts are also made to extend the area cultivated with barley in the coastal zone and more particularly in the El-Dah'aa zone, and to encourage the more settled inhabitants to increase their

1. The statements made here refer to the situation as it was in 1958.

b) It is easy to reach the area by different means of transport, for it is located between the coast and the railway line, and is crossed through by the desert route running from Alexandria to Sallum and then to Tripoli.

c) There is enough land in the area for the realisation of the first stage in the project. The project envisages to grow pasture grasses in an area of about 25,000 *feddans* in that region alone.

d) The availability of fresh potable water from the water pipe-line going to Mersa Matrouh as well as from a large number of wells.

e) The region repesents the whole variation of soil and environmental conditions prevailing in the Western Desert, and more particularly along the coast.

The small village of Ras-el-Hikma has been chosen as a suitable place for the pilot project. A research station was established there and the project itself was put under the sponsorship of the Desert Institute of Cairo. An area of about 7,500 *feddans* was seleteed and fenced round for the pilot project. Long researches have been conducted to obtain adapted species of palatable pasture grass which can stand the drought and the summer heat, and other local conditions. Considerable areas have been reseeded with a large variety of grasses and put under close observation to examine the rate of their growth, their resistance to drought and heat, their ability to adaptation to the local environment, as well as to investigate how palatable they are especially to sheep. Attention was given to the question of sand dunes fixation, and thousands of drought-resistant trees were planted to that effect. Great efforts were made to make better use of the available water resources. A large number of the old neglected wells and cisterns were cleaned out and put into function again. New wells were sunk and provided with wind pumps. Selected breeds of animals have been imported and put under examination to study grazing management on the one hand, and to what extent these breeds could be used in improving the local breed on the other. Besides, some less efforts were made to introduce the cultivation of fruits and vegetables in the area. Small quantities of peas, beans, tomatoes and other vegetables are grown, and the local inhabitants are encouraged to get into the habit of using them in their daily meals.

The creation of this vast artificial lake will temper the heat of the area and, owing to the perpetual evaporation from the lake, it is hoped that large amounts of rain will fall every year, thus making possible the cultivation of vast stretches of land. Lands will also be sold to the people at nominal prices so as to encourage them to settle down and to change to agriculture. As in the case of the Wadi-El-Natrun project, all the unskilled labour needed for these industries will be recruited from among the local inhabitants.

III. *The Ras-el-Hikma Project*

This project endeavours to deal with the problem of sedentarisation from a different angle. Unlike the Wadi-el-Natrun and the Quattara Depression projects which consider industrialisation and increasing the cultivated area effective meaures for settling down, the Ras-El-Hikma project tries, on the contrary, to achieve that end through improving the grazing potentialities of the Western Desert in general and the Fuka-Ras-Hikma area in particular; and also through organising the use of pasture. It has been noted that the excessive misuse of the pasture-plants and the uncontrolled grazing in the semi-desert area have caused aridity and have, consequently, led to nomadic life in search for grass. Therefore, if pasture-grasses could be developed and grazing could be organised, it would then be easy to render the herders to a form of sedentary life in which they can practise animal husbandry in certain specific areas all the year round, without any need for nomadism or for seasonal movements. It is thought that the execution of this project will lead to the increase in animal production as well as to the interest in intensive agriculture; a feature which hardly exists among the nomads and the semi-nomads. This project,, however, like all the other projects contemplated for the Western Desert, takes into consideration the fact that the whole area extending along the coast was very fertile and densely populated in the past. Since there is no evidnce of any major changes affecting the climatic conditions or the amount of rainfall, then it is assumed that the apparent aridity of the soil and the nomadic way of life prevailing in the desert were due merely to negligence on the part of the people.

The area of Fuka and Ras-el-Hikma has been chosen for the execution of the project for the following reasons :

a) It is midway between Alexandria and the village of Sallum on the Egyptian-Libyan borders.

in agriculture, either as paid labour on the governmental research farm where fruits and vegetables are grown, or as private cultivators of small patches of barley for their private consumption. Paid jobs in the factory or in the extraction industry and on the farm are very tempting and inviting to the young men. It is understood that the reclaimed lands will be sold in due time to the people, and it is also hoped that the development of these farms, which will be dedicated, according to the project, to the growing of fruits and vegetables, will lead to the introduction of the canned food industry. Thus the ultimate end of the project is to enhance sedentary life by introducing new industries which depend mainly on the agricultural products of the area. The distribution of the arable lands will serve as a supplementary means to attain that end.

II. *The Qattara Depression Project*

This project, which is still under consideration, was not originally planned for the sole purpose of enforcing sedentary life upon the inhabitants of the area, although it will achieve this result in the end. The project was primarily planned with the definite aim of the industrialisation of the zone, besides enlarging the area of the cultivated land there. From what is already known about it, it seems that the starting point in it will be the digging of a long canal to connect the Mediterranean at the village of El-'Alamain and the Depression which lies some 10 kilometres to the south of the coast. The Depression is situated in the middle of the distance between Alexandria and Mersa Matrouh, covering a total area of about 200,000 square kilometres. The lowest point in the Depression lies some 134 metres below sea level. The digging of the canal will be carried out with the intention of transforming a part of the Depression into a large lake covering an area of about 14,000 square kilometres. It is expected that the sea water will rush towards the Depression at such a force of 600 cubic feet per second. The force of the rushing water can then be used in turning factories in the area, and in generating electric power necessary for the industries which will be established there. It will certainly take a very long time for the lake to be filled up with water. Experts estimate, for example, that it will take some 40 years before the water reachs 70 metres below sea-level, and about 150 years before it reaches the 50 metres height below sea-level. Some 1,300 years should pass before the Depression itself is completely filled up with salt deposits as a result of evaporation.

while its average width is about 10 kilometres; its southern end is 80 kilometres far from Cairo, and its northern end is about 85 kilometres far from Alexandria A Number of shallow lakes cover about the half of the total area of the depression. Some of these lakes become completely dry during rhe summer. The *Wadi* is known as a rich source of salt and natroon (carbonate of sodium). Also a certain reed called *halfa* grows wildly there and is used by the inhabitants in making rough primitive mats for their own use. Some of the mat production, however, finds limited markets in certain parts of the Delta. The Depression has always been regarded as a grazing ground for sheep and goats, that only 25 *feddans* were under the polugh in 1952.

According to the project, the extraction of salt and natroon, which has been the monopoly of the Alexandria Salt and Soda Company until June 1952, was put under governmental supervision. Because of the high cost of the extraction, work is carried out for only a short season each year and then workers are diverted to agriculture and to work on the reclaimed lands. To exploit the wasted and neglected arable lands in the Depression, subterranean water was tapped in a number of places. By the end of 1954, some 400 *feddans* were brought under the polugh; by the end of 1955 about 800 *feddans* were under cultivation; and by the end of 1957 more than 1,000 *feddans* were actually cultivated by the inhabitants of the area. Serious efforts were made to introduce the cultivation of fruits and vegetables. On the other hand, much attention was paid to the question of improving the production of animals through different methods of breeding, and encouraging the inhabitants to change over to the improved breeds which excel the local animals. This was met at first with much reluctance and resistance, but there are signs that the people are beginning to estimate the benefits of owning the improved breeds. Moreover, a factory for manufacturing carpets and rugs was established by the Government. It gets a considerable proportion of the raw wool for the industry from local resources, whereas its relatively small production finds readay maket in the larger cities in the Delta.

The point of particular interest here is that all the unskilled labour employed in both the carpet industry and in the extraction of salt and natroon are recruited from the local inhabitants. These workers have become so accustomed to settled life that when the season of extraction is over and work is temporarily suspended, they do not go back to herding the animals, but they rather prefer to get themselves engaged

b) Nomads and semi-nomads suffer much from the harsh conditions of life prevailing in the deserts, and are frequently exposed to famine as a result of the failure of rain. It has already been said that such conditions usually compel the people to migration and put certain strains on the economy of the Delta in Egypt.

c) The continual movements of the herdsmen, especially the camel herdsmen, make it difficult for the Government to put the clans under control. The nomadic groups are actually a real source of unrest and of perpetual menace in the desert. They organise raids against hostile clans; they smuggle goods across the Egyptian-Libyan frontiers on the one hand and acrosss the Syrian-Iraqi frontires on the other and they give refuge and protection to criminals and help them to cross the borders and escape punishment.

d) The abolishing of nomadism may entail the amalgmation of the pastoral communities on the one hand and the rural and urban communities on the other into one solid and integral whole, thus removing the present rift which separates the two sides from one another.

Therefore much attention has been paid in the last few years, both in Egypt and in Syria, to the question of settling the nomads. A number of plans and schemes have been drawn to this effect, i.e. to create new sedentary agricultural communities instead of the actual nomadic and semi-nomadic groups of the desert. All these contemplated projects intend to increase the cultivated area, to improve the pastures by introducing new pasture-plants of higher nutritive value where agriculture cannot thrive, to tap the unused resources, to polish the existing primitive crafts and to establish new industries. The question of water is considered the corner-stone in all these projects especially the projects which are executed in the Western Desert. In the following sections, we shall give a brief account of the main projects suggested by the concerned authorities in both Egypt and Syria.

A. *IN EGYPT*

I. *The Wadi-el-Natrun Project.*

Wadi-el-Natrun is an extended depression which lies some 22 metres below sea level and generally extends from the north-west to the south-east. The length of the depression is about 60 kilometres

vating it for ten successive years without interruption. The clans do not fail to refer to that law of 1916 whenever the need arises to support their claim of possessing the land on which they live or which they are exploiting in the form of fields or grazing ground. On the other hand, the land which is definitely regarded as owned by the State could be easily bought by the individuals at nominal prices, which could be paid on long terms. These measures have been taken to encourage private ownership of land and, consequently ,to encourage the Bedouins to sedentary life which depends on agriculture. These efforts did not meet much success at first, but soon after 1950 when the growing of cotton was introduced for the first time in the Gezira, the clans became very anxious to prove their ownership of extensive areas of fertile lands in that region. It may be significant to say that the two main clans inhabiting the area of Gezira and Euphrates, i.e. the clans of Shammar and Jeboor, both of which are considered nomadic clans, claim the ownership of not less than 2 million donems each.

Grazing grounds are similarly distributed among the clans according to traditional and well-established rules, that each clan actually gets enough pasture for its animals. Therefore, pasture lands are not subject to conflict or dispute on the side of the different clans. Even in the Gezira region where vast areas of land have been cultivated, there are still enough grazing grounds for the rearing of large numbers of animals owned by the nomadic clans of Shammar and Jeboor, at least during the wet season. Conflict on pasture land may, however, flare up between two clans in really bad years.

VI. SCHEMES FOR SETTLING NAMADS

Rightly or wrongly, nomadism and semi-nomadism are generally regarded, both in Egypt and in Syria, as an impediment to development and that they represent a deteriorated phase which complies no more with the actualities of modern life. Therefore, the general trend now in both Egypt and Syria is to abolish it completely. The following reasons are given for adopting that view :

a) Nomadism and semi-nomadism are wasteful and destructive. Vast stretches of land which can be reclaimed at little cost and cultivated intensively are simply left for grazing without any serious attempt to make better use of them.

we shall refer in due course. The same principles apply to the grazing grounds, but with less rigidity.

This system of using the lands of the Western Desert is thought to go back to Mohammed Ali who divided the land between the different Bedouin clans, then inhabiting the desert. The lands conceded in this way to each clan was partitioned in turn among the lineages and then among the families of the clan. Not all the lineages were given equal areas of land, and the basis of this partition is not known.

The boundaries of the arable land associated with each kin-group is defined by tradition so that a man knows not only the boundaries of the land of his own kin-group, but also those of the lands associated with other groups as well. Disputes may arise about the boundaries of the neighbouring fields, but these are usually settled quickly either by going back to the old documents which show the traditional distribution of these lands among the clans, or by referring to the leaders of both groups or other older men who are known generally by the word *'Awaref* or "those who know", or else by taking the oath. In this latter case, the oath should be made or uttered by 20 persons on each side. Since the people think that perjury entails grave results and that a perjurer will certainly suffer severe agony, illness and perhaps blindness, the people do not swear the oath unless they are positively sure of their claims.

Taxes are paid to the Government for using the land. Taxes are estimated on the crops and so they differ from one year to another according to the yield. A four-member committee on which both the Government and the people are represented visit the fields while the the grain is still standing on the stalks and estimate the amount of the expected crop. One-tenth of the yield is paid as tax.

B. The same principles concerning land tenure, or rather the usufruct of the arable lands, prevail in Syria. The correspondence between certain clans or tribes and specific areas of land is more clear here than it is in the Western Desert, and this may be due to the vast stretches of land which separate the different clans one from the other. In 1916, however, individual members of bedouin clans were allowed to claim for the ownership of any specific areas of land which they had reclaimed, under the condition that they could prove they were culti-

Religious chiefs also can contribute heavily to the advent of new economic ways and techniques. The people have much confidence in them and are quite ready to accept their advice and views, not only on questions of religion, but also on ordinary problems of everyday life. In fact the Imams have played in the very recent past a leading role in introducing the cultivation of olive trees and almond trees in the Western Desrert when the people showed much reluctance and resistance to the efforts made by the Government to introduce them. Through their repeated speeches and advices, the Imams could enlighten the people about the benefits they were likely to get from that cultivation. Now, the cultivation of olives is thriving in some parts of the desert, partly due to their efforts.

V. THE PROBLEMS OF LAND

A. It has already been said that the land in the Western Desert is generally regarded, at least by the Government, as the exclusive property of the State with the right of usufruct granted to the people. This does not mean that the land is exploited jointly by all members of one community, or that a man can cultivate any part of the land that he may like to; for actually there is a certain correlation between the right of usufruct and the distribution of the clans on the one hand, and the inner segmentation of the clan on the other. Land is not an object of ownership in itself, and wealth is not spoken of in terms of land. In spite of the wide dispersal of its members, each clan and consequently each clan-segment is attached to a certain area and has always been associated with it for generations. Thus, despite the distinction between ownership and usufruct, the two are practically welded together, and although the people know that they do not own the land, they still defend the boundaries of the area with which their lineage has always been associated. The clan whose name is associated with a certain area not only has the right of usufruct to that particular area, but this right is also vested in it to the exclusion of the other clans. Within this total area, each clan-segment has the right to a portion of land to the exclusion of all the other segments, at least from the theoretical point of view. Thus, the right of usufruct mounts almost to be a form of ownership of the land. Nevertheless, an individual member of the clan cannot proclaim a certain patch within that total area as the subject of his exclusive exploitation. He usually cultivates different patches within that total area as the need may arise; but he cannot cultivate a patch in an area associated with another clan except under certain conditions to which

the ordinary clansmen as mere serfs who can only work on the land for their food and clothes, besides a certain proportion of the crop. This is represented more strongly in the Syrian desert than in the Western Desert. Most of the Syrian chiefs play the role of the absentee landlords. They live a luxurious life in the large cities, leaving the duties of herding and cultivating the land to the "peasants". Thus, the chiefs of the Rowalla live in their palaces in Damascus, while the chiefs of the Jeboor live at Qamashli, etc. Under these circumstances, we should not expect them to encourage economic development which may deprive them from their actual privileges.

The feudal system, in the sense of the type of tribal organisation and system of chiftainship found in Syria, does not exist in the Western Desert. Clans are less numerous and less rich. They have already become more settled; pure nomadism has no place here except perhaps in the far south of the desert. The absence of large cities, apart from Alexandria, enforces the chiefs to be tied down to their native homeland. Therefore, the native chiefs in the Western Desert do not display much dismay about development programmes. Some of them are, indeed, very keen on such schemes for they will actually lose nothing because they have nothing to lose. The better-off chiefs usually live in the eastern parts of the desert where they have their own large gardens of fruits, and figs in particular. They have abandoned the life of herding animals and have lost the values of pastoral life; their power has been much curtailed. Their contacts with Alexandria and with the more sophisticated circles have helped towards changing their outlook. Some of them encourage or even invite development and may suggest certain practical projets which may prove to be useful to the whole area.

However, all the chiefs play in fact an important role in economic change through the new methods which they apply in exploiting their lands and which ordinary people may like to imitate. Furthermore, they can, by their personal prestige, convince their own people to accept new development projects, besides giving much good advice to the development boards concerning these projects. Much of the resistance and dismay which they show with regards to schemes for economic change is due to the fact that they are usually overlooked by the concerned authorities in this respect. An effective means for introducing new ways of living in the Western Desert may be through encouraging the more progressive chiefs to adopt these ways. Then the ordinary people will most likely follow their lead without much hestitation.

a) The right to plan for the movements and migrations according to the season and to the availability of pasture;

b) The right to settle disputes which arise among members of their respective clans or clan segments. Among the nomadic tribes the word of the chief is law;

c) The right to declare war and to conclude peace with other clans;

d) Collecting taxes on behalf of the Government from his clansmen. A chief usually collects more money than the sum imposed by the Government; this surplus of money is kept by him to be spent in due time on matters of hospitality and other social obligations.

Sometimes, the Government may appoint as chief a different person from that on whom the clan have agreed. In such cases the clan would have two chiefs instead of one; i.e. the traditional chief and the official chief who is generally met with much resistance from the people. His orders are usually defied unless approved at first by the traditional chief. Such a situation has arisen in a few cases in Syria, but never in the Western Desert, at least as far I know. An example of this is what happened recently among the Shammar El-Khrossa clans when they chose their present chief, Sheikh Maizer El-'Abd El-Mohsen, but the Government appointed Sheikh Mesh'al Pacha al-Fares as chief. Sheikh Mesh'al was met with much reluctance from the people and at one time it seemed that the clan was on the brink of internal conflict and bloody feuds. The Government had finally to accept the view of the clan and Sheikh Mesh'al was relieved from his office.

The Role of Chiefs in Economic Change

It is difficult to decide to what extent the political chiefs are willing to help in the execution of economic development schemes. Such development would entail the raising of the standard of living for the ordinary man and most probably to his economic independance. This may encourage the ordinary clansman to defy the authority of native chiefs. Therefore, projects of economic development are generally resisted by the native chiefs and more particularly by the chiefs of the nomadic clans, especially in Syria, who actually live and behave as feudal lords. For in spite of the fact that the land is owned by the State and that every clansman has the right to exploit it for his own benefit, the chiefs consider themselves the "sole" owners of the land and regard

more clear in the Western Desert than it is among the Syrian Bedouins and the nomadic clans in particular. The factors which have led to such a situation can be summed up as follows;

a) The growing desire of the disputants to settle their disputes privately or through the good offices of the ritual chiefs. This tendency is clearer in the smaller villages and localities than in the larger towns (Mersa Matrouh, for example).

b) The prejudice felt against the chiefs because of their obvious connections with the Administration. This prejudice is also more apparent among the more settled groupings in both the Western and Syrian Deserts.

c The restrictions imposed by the Administration on the chiefs with regards to their exercising coercion have rendered the whole system of chieftainship, especially in the sedentary communities, almost non-effective.

d) The propagation of modern education in the Western Desert and migration to the Nile Valley for work have made the younger generation less willing to submit to the authority of the chiefs.

For all these reasons, the disputants tend to overlook the native political chiefs and to bring their causes in front of the ritual chiefs. In fact, the political chiefs are generally regarded as the representatives and agents of the Administration. They are expected to execute the orders and regulations issued by the local administrators. In the Western Desert, chiefs cannot exercise the obligations and duties of their office except after their appointment is ratified by the Administration, or more precisely, by the Frontiers Department. The appointment of the chiefs of the nomadic clans in Syria had, in the past, to be ratified by the French Higher Commissioner, and still should be ratified now by the Ministre of Interior who holds the right to dismiss any of them on the grounds of abusing his power or challenging the Administration or at the request of his own clansmen. But on the whole, the chiefs of the nomadic groups still retain much of their traditional authority and power over the members of their clans and lineages. The power of the chiefs is waning in the sedentary communities and more particularly in the Western Desert of Egypt. Taking all this into consideration, we can sum up the functions of the political chiefs, and more particularly those of the nomadic clans, in the following poins :

honest and disinterested persons, to whom the disputants can carry their disputes. In a few cases, the political chief may hold the religious office as well. But the general rule is that the latter office is held by a different person who may even belong to another lineage. Religious chiefs are thought, on the whole, to be better arbitrators than the political chiefs.

Although the religious or the ritual office is not hereditary, certain families and clans in the Western Desert are famous for providing a large number of these men of religion. The Morabiteen clans on the whole, and more particularly the Habbooni lineage (who like to conider themselves as a branch of Awlad Ali) are considered a religious group in this sense. This enhances their prestige among the Awlad Ali, although they are only clients to them as it has been said. However, in looking into disputes, the ritual chiefs cannot in fact give any final or executive judgment as do the political chiefs; they can only give advice to the disputants who usually accept them willingly.

B. As far as I know, there is no one single clan or one specific lineage in the Syrian Desert which provides ritual chiefs in the manner found in the Western Desert of Egypt. The two religious functionaries, i.e. the Imam and the Maazoon, are found in the Syrian clans and have the same functions and enjoy the same authority. The Maazoon may be semetimes called the Qadi, i.e. judge.

The Relations Between the Native Chiefs and the Administration

The position of chiefs is not an easy one; it involves contradictory situations and conflicting attitudes which emerge mainly from the duality of affiliation implied by the nature of chieftainship now. A chief has to act as a member of his community and at the same time as a representative of the Administration. He has thus to reconcile the demands of the two sides. However, the native chiefs do their best to solve all the problems which rise in their respective communities without reference to the adminstrative authorities who, on their part, and especially in the Western Desert, try to evade interference except when the chiefs fail to reach a solution or when the situation proves to be explosive.

In any case, the political authority of the native chiefs is now deteriorating and their prestige is suffering badly. This is, perhaps,

Above the supreme chief of the clan there is no other traditional chief in the Western Desert. Complicated cases which cannot be solved by him are referred to the Administration, but this very seldom happens. In so far as the system of traditional chiefs is concerned, the clan can be regarded as the largest autonomous political unit. All disputes within the clan are regaded as private and domestic affairs.

B. The system of chieftainship in Syria follows the same organisation, with the sole exception that all the clans which constitute one tribe recoginse the headmanship of one "tribal chief". In each tribe, there is one dominant or chiefly clan in which this office is vested. This is more apparent in the nomadic tribes than it is in the semi-nomadic groups. The best example to illustrate this tribal organisation is the case of the Rowalla clans who recognise the supremacy of the Sh'alan clan. The Present tribal chief of this cluster is the famous Sheikh Fawwaz Sha'alan. This organisation may be due to the fact that the nomadic clans of Syria have been, until very recently, a warlike people who have been involved in continuous raids and wars with each other. Their military life has obliged them to organise themselves under one chief and to accept his authority. The dominat clan, in this case, does not only outnumber the other clans, but it must surpass them in matters of wealth, nobility and honourable traditions. The Awlad Sha'alan have certain kinship relationships with the Royal Family in Saudi Arabia.

Ritual Chiefs

A. Besides the political authority practised by the local chiefs and by the chief of the clan, there exists another category of chiefs who hold a different and perhaps a more effective kind of power, i.e. the religious power. The role of these chiefs, however, is not confined to the performance of the religious rites, for they also play a very important role in settling disputes and, consequently, in keeping the social equilibrium. The most important of these functionaries in the Western Desert are the Imam and the Maazoon. The primary function of the Imam is to lead prayers, especially the Friday prayers, while the function of the Maazoon is nearer to that of a marriage registrar. Both functionaries are expected to be well-read in the Koran, in the traditions of the Prophet and in Islamic literature in general. Being mainly men of religion, they are looked at with confidence and are regarded as wise,

lineages of the same clan in long and bitter strife. But owing to the sense of kinship solidarity the Bedouins do their best to avoid being involved in such internal strife and conflict. The desire to keep the social equilibrium and to evade potential hostilities within the clan is a guarantee against such challenge and competition. On the other hand, the political office is held for life unless its occupant demits it or is removed by the general decision of the lineage or by the Administration for one reason or another. The important thing that we should notice here is that whereas chieftainship in the Nile Valley is held on a purely territorial basis, i.e. on the basis of the village, it is held in the Western Desert on a kinship basis.

Local chiefs are responsible for keeping peace and harmony and settling the disputes that may rise among the members of their respective clans who are living in the respective localities. But when a dispute flares up between members of two different clans, a different procedure is followed. We shall come back to this point later when we speak about the Bedouin customary law. All that we want to say here is that local chiefs obtain their power and authority from the clan chief, who is regarded as the supreme chief of the whole clan with all its segments and lineages and who, also, belongs to the dominant lineage in the clan. He is the most authoritarian of all chiefs. His word is law, he is usually well informed in the customary law and in the traditional ways and patterns of behaviour that should prevail within the clan. He must also have wide knowledge of the history of the clan, the previous ancestors and their wars and victories and achievements, of the economic interests and possessions of the clan as a whole and of each segment independently, etc. He is thus the last reference in the questions of law and of action as well. He looks into disputes which occur between the different segments or lineages of the clan especially when these are living in different localities or when a dispute is too grave to be left to the secondary chiefs or mayors. He is also the last refererence in questions of wars, raids and peace with other clans. His orders are executive. Therefore, the questions of age, wisdom, knowledage, personality wealth, etc. are taken into consideration when choosing the supreme chief of the clan.

b) In herding flocks, the professional herder is given 10 per cent of the total number of the animals entrusted to his care. The offspring are regarded as the exclusive property of the original owner. The wool and milk are also given to him unless the grazing grounds are too far from the dwelling place of the owner, and in this case the herder is entitled to consume the milk. The owner also provides the herder with the necessary clothes.

IV. TRIBAL SOCIAL ORGANISATION

The System of Chiefs

A. It has already been said that clans in the Western Desert are not localised in the sense that the lineages of the same clan may be found scattered all over the desert. Thus the correlation between the territorial distribution and the clan segementation is not so rigid as it is, for example, in the case of the the Syrian clans where each clan has a certain area of land to move within its borders. Each clan has a certain dominant lineage in which the political office has traditionally been vested. Thus in any one locality whose inhabitants belong to a number of clans, one usually finds an equal number of chiefs who represent these clans and who belong to the respective dominant lineages. The inhabitants of that locality follow, from the political point of view, their respective chiefs. The word omda which is originally used for the village headman in the Nile Valley is also used here invariably to refer to all those Bedouin chiefs. Chieftainship is hereditary in the same lineage (which we call the dominant lineage); i.e. the political office does not shift to other lineages except for very exceptional reasons. But this does not entail that it is necessarily vested in the same line or in the same family ; it may actually shift between the families of the dominant clan but without any challenge from the other lineages of the clan. In other words, the succession to mayoralty does not follow a certain rigid principle as long as the office is kept in the lineage. There is a general tendency to give the office to the eldest son of the previous mayor, but this is not an absolute rule. The most suitable person in that particular branch of the dominant lineage living in each particular village or locality is likely to be chosen for the office. The elders of the different homesteads in that branch choose the person whom they think suitable to be local chief, and their decision should be accepted by all members of the clan who live in that locality. Competiton for political power and authority is likely to involve the

cultivation to look after, or from certain parts of the Delta and more particularly from the village of Idku near Alexandria. Some peasants may also be brought from Siwa Oasis for that purpose. The more important lineages may even abstain from doing any job or work that has connection with tilling the land. In this latter case they concede the rights of cultivating the land to other persons whom they call "peasants" and sometimes "tenants". But in fact, the people who are assigned to use the land in this manner are not real tenants. They do not pay any rent or substitute for their "tenancy". Instead, they exploit the land and grow the seeds which the owner himself provides. After the harvest, the owner gets back the same amount of seed he has given to the tenant and the remainder of the crop is then divided between owner and tenant in a certain proprtion. Usually two-thirds of the crop go to the owner and one third to the tenant, but sometimes the crop is divided between them in equal shares. Thus, the relation between the two parties is more like a relation between employer and employee rather than one between owner and tenant. Here, all the elements of production are offered by the owner, while the tenant contributes the necessary physical work and gets his wages in kind from the crop. When the tenant plants his own seeds, he gives 20 per cent. of the crop, after reducing from it an equal amount to what he has sown in the first place. On the other hand, the wage labour recruited for the sole purpose of helping in the harvest are given 10 or 15 per cent. of of the yield.

A similar, but less strict and less solid system is followed in the herding of livestock. The more sedentary Bedouins usually trust their animals to the care of a *kalldf*, or herder, who tends them and in return he is entitled to a certain part of the animals and their offspring. The share given to the herder varies from case to case, but he is invariably entitled to all the dung and all the milk if the animals are grazing far away from the settlement where their owner lives. He is not considered responsible for the death of the animals.

B. The same system of partnership prevails in Syria :

a) Peasants are given up to 40 per cent. of the yield if the owner of the land provides the seeds and the necessary tools besides the land and water. The tenant retains up to 80 per cent. of the crop if he uses his own seeds and cattle and tools.

especially at El-Dab'aa. In spite of the fact that the catch is always more abundant in the winter than in summer, the dry season encourages the drift of a comparatively large number of men to jobs especially at Mersa Matrouh, which is an important summer resort, where they can sell their meagre catch at a higher price to holiday makers. A considerable number of young men also get temporary jobs during the summer months in the restaurnts, cafés and hotels at Mersa Matrouh, while a limited number work as drivers and coachmen of the horse cabs which are virtually the only means of transport preferred by the holiday makers for their promenades and movements in the town.

B. Apparently the only drift to temporary jobs in Syria is that which takes place during the harvest season when large numbers of peasants go to the Gezira to help gathering the crops. But only a comparatively small number of Bedouins take part in this sort of work, for all agricultural work is still looked down on by most of the nomadic folk. It has already been said that the more settled Bedouins avoid, as much as they can, working in their own fields and they usually concede the right of exploiting their lands to the "big farmers". Most of the labour employed in the Gezira during the harvest is recruited from the Aleppo region.

Wages

A. Apart from the paid jobs in which some of the Bedouins of the Western Desert are temporarily engaged, such as roadmaking, serving in resturants and cafés, etc., the inhabitants of the desert are usually paid in kind for their services. These services are related mainly to animal husbandry or to the cultivation of barley. Payments for both kinds of services are more or less stable and are generally determined by custom, according to a traditional and strict system of partnership, which allows for the partition of the crops between the "owner" of the land and the "peasant" on the one hand, and the division of the produce of animals between the shepherd and the owner of the animals on the other.

Although the common practice in the Western Desert is that the land which belongs to a certain kin-group should be cultivated by the members of that group, the need for extra labour may rise especially at the harvest season. This labour is usually recruited either from the desert itself, or from among the poorer lineages and clans who do not have much

Natrun also, oil pressing at Burg-el-Arab, sponge-extraction from the sea in the Matrouh area, etc. Foreign oil companies which are still surveying the desert and carrying out their exploration testing employ a large number of workers from among the local inhabitants. Unfortunately, we do not have any figures to show the exact number of workers engaged in these different industries, but there is a general and noticeable drift of manpower from pastoralism to these more settled occupations. A number of projects which envisage the possibility of establishing new industries in certain centres in the desert are still under consideration. We shall give account of these projects in due course.

B. The Syrian Bedouins practice similar handicrafts to those found in the Egyptian Western Dersert. Apart from the intensive efforts made by some American and German oil companies to explore the sites of oil fields in the desert, no industrial activities or projects for industrialisation are carried out. Some success has already been achieved in the petroleum industry. A number of wells have been drilled in different parts of the desert especially in the Dereck area, but oil has not yet been exploited on commercial terms. No workers from the local inhabitants are employed in the petroleum industry, but it seems that a considerable percentage of the unskilled labour will be recruited from among the Bedouins when the wells are put into use for commercial purposes.

Seasonal Employment

A. The scarcity of rain in the Westren Desert, the fact that pastoralism does not occupy all able-bodied persons at all times and the desire to get some more secure source of income, all allow for the engagement in temporary paid jobs. This usually takes place outside the season of cultivation which is at the same time the season of grazing. As we have already noted, barley is sown after the first showers in November and the young men move southwards to the grazing-grounds leaving their elders to look after the fields, then they begin to move towards the north when the dry season advances. It is during this season, when most of the people cluster in the northern zone, that seasonal employment takes place if work is available. The most important seasonal jobs in which young men get themselves engaged are fishing, road-making and unskilled labour in the rug factory and salt and natroon industry at Wadi-el-Natrun. Fishing, however, is an occupation which is practised all the year round by a very small number of skilled fishermen

towns. Few small shops are found in the main centres where clans usually cluster for most part of the year. The Syrian Bedouins still bear much despise and contempt to trading, and in a number of cases (e.g. in the village of Raqqa) all the shopkeepers are strangers who come from outside the area. The pastoral and nomadic values are still vivid and very highly esteemed. But trading in livestock is looked at differently; it has strong connection with these pastoral values. It is not demeaning to trade in stock. On the contrary, this trade comprises an important item in the national economy of Syria, and the exports of stock raised by the Bedouins forms a comparatively high proportion of the external trade. Available records show, for example, that 385.815 heads of stock were exported in 1951; 469.000 heads were exported in 1952, and 537.000 heads were exported in 1953. These figures represent 6.9 per cent., 6.5 per cent. and 6.1 per cent. of the total value of exports in the respective years.

Crafts and Industries

A Bedouins as a rule bear no respect to manual work, but the more sedentary groups in the Western Desert do not mind getting themselves engaged in the new industries which have recently been established in certain centres. A number of crafts, however, are actually practised by the Bedouin women. Thus, rugs and the cloth of the wet season's tents are woven by them from sheep wool; mats are made of a certain reed which grows wild and extensively in different parts of the desert, especially in the Wadi-el-Natrun area; olive oil is pressed in a very primitive way for private consumption, etc. But all these crafts are practised to meet the personal and private needs only. They are not carried out for any commercial or trading purposes. Perhaps only the mats are sent, in insignificant quantities, to certain small towns of the Delta. Where olive groves thrive, the crude oil which is generally pressed in larger quantities, is sent either to Alexandria or to Bur-el-Arab to be clarified.

But besides these simple handicrafts which are practised mainly by nomads and semi-nomads, certain other industries have recently been introduced in the desert. All the unskilled labour necessary for these industries are recruited from the more settled inhabitants. The more important of these industries are : the gypsum industry at Gharbaniat (about 6.000 tons per year), the extraction of salt and natroon (carbonate of sodium) from Wadi-Natrun, the rug industry at Wadi-el-

Trading in fruits (especially figs) and in vegetables (especially tomatoes) is carried out on a much limited scale and is confined to certain seasons. The village of El-'Amriya is the most important centre for this trade. Traders from Alexandria go to that village in the respective harvest seasons to conclude their purchases of the different crops. It is a common practice that those traders provide the private producers with all their needs of cash money (and sometiems of goods as well) during the year to secure for themselves the yield of their cultivation. Here also, no reliable estimates of the value of trade is available. However, trading in figs ranks first and the fig crop in average years is roughly estimated to be round L.E. 200.000. The value of the other crops such as tomatoes. olives, almonds, etc. may not be more than a few thousand pounds. Barley is grown mainly for private consumption.

So much for trade with Alexandria . As far as fixed trade is concerned, it is easy to notice that such trade is quite flourishing in the settlements constructed along the railway line where the people are becoming settled in increasing numbers. Such important centres as Mersa Matrouh. Sallum, El-Dab'aa, El-Hammam, El-'Amriya, etc., have a large number of shops; but even in the less important settlements there may be found one shop at least. The number of shops corresponds with the degree of sedentarisation and settled life. Though small in size, most of these shops are general stores where all the modest needs of the inhabitants. especially sugar, tea and cloth, are sold. Canned food is a new advent in these shops and it is usually consumed by the Government officials, most of whom come from the Nile Valley.

Although we have no records to show the volume of trade and the transaction of goods carried out through these shops round the year, it can easily be said that this volume fluctuates according to seasons. In any case, the purchasing power of the inhabitants is very poor. Therefore, the shopkeepers are obliged to follow the credit system which enables the clients to pay for their purchases after the barley harvest.

B. Our data concerning trade and commercial transactions among the Syrian clans is even more meagre and scanty. The conditions which have led in the Western Desert to the establishment of permanent settlements along the railway and the main traffic route and, consequently, to the emergence of flourishing trade centres do not exist in the Syrian Desert.. Therefore, the few modest needs which Bedouins require (e.g. coffee, sugar, soap, etc.) can only be fulfilled at the large

another in the course of their wide movements, thus facilitating in an indirect way commercial transactions. Now this function has fallen to disuse after the advent of railway and motor transport in the desert. However, the semi-nomadic groups of the Western Desert of Egypt still play an important role in trading with the Delta. Trade and the exchange of goods were limited to certain seasons in the past; i.e. to the season of lambing and the harvest seasons and sometimes to some religious seasons and occasions such as Ramadan and the two Bairams. These transactions have increased recently and are taking place during the whole year though with some seasonal fluctuations. The most important item exported from the desert to the Delta is livestock, and more particularly sheep and goats. Besides the animals raised by the inhabitants themselves, the Western Desret is a good market for the Libyan animals which are imported in large numbers every year from Cyrenaica. The village of El-Hammam is the most important centre for the marketing of livestock. Because of its nearness to Alexandria, butchers and stock-traders from the city go to the market on marketing days for their purchases. El-Hammam is actually the first organised market which traders from Libya come across on their way to Alexandria and the Delta. Unfortunately, we do not have any records showing the sales effected at that important market. The following figures, however, show the number of sheep sent by rail to El-Hammam; no figures are available concerning the animals transported by lorries to that market. Animals transported by lorries are much more than those transported by railway.

	1955	1956	1957	1958
January	—	—	7	100
February	—	737	250	1.046
March	—	3.540	681	6.401
April	—	5.585	1.362	9.215
May	—	4.061	5.179	5.316
June	—	2.154	8.600	231
July	795	362	1.996	—
August	364	236	1.067	—
September	628	684	551	—
October	206	513	378	—
November	11	—	4	—
December	—	57	—	—

Bedouins who grow barley mainly for their own consumption, wheat and maize are grown on a comparatively large scale, especially in the Gezira region, and a considerable proportion of the crop is actually sent to the markerts of the larger towns and cities. On the other hand, horticulture which is so much thriving in certain parts of the Western Desert, is almost entirely absent from the scene in the Syrian Desert. The people are not interested in fruit or in vegetable cultivation. Yet cotton is grown in certain parts of the Gezira where the Bedouins have settled down and are leading a more or less sedentary life. It is not, however, the Bedouins who grow the plant by themselves, for they have neither the knowledge nor the experience necessary for this kind of more advanced cultivation. They rather concede the right of exploiting their lands to what they call the "big farmers" who come from the city, and more particularly from Aleppo, and get in return a certain percentage of the yield. They do not take any part in the cultivation of cotton, not even as ordinary workers on the land, partly because of lack of experience as has already been said, and partly because they despise all peasantry work. In a few cases, the chief of the clan or of the clan-segment may play the role of the "big farmer". He is thus entitled to exploit the lands of his clansmen as well as their services for a certain proportion of the yield. But usually the necessary peasants and workers are recruited from Aleppo.

Cultivation ,on the whole, flourishes in the northern parts where more favourable conditions prevail and where the people have been encouraged by these conditions to settle down and to change to sedentary occupations. There is little chance for the Rowalla clans of the south, for example, or for the Shammar clans of the Hasaka zone to change to such a permanent sedentary life because of the aridity of the land, the comparative scarcity of rain and the rarity and salinity of the underground water in the areas where they live. But generally speaking, there are better agricultural prospects in the Syrian Desert than in the Western Desert, and the Syrian Bedouin has much more chance to practice extensive cultivation, especially in the Gezira, if due care is given to the water resources.

Trading

A. Trading is not an important feature in the life of the Bedouins as a whole, although in the past the nomadic groups used to carry goods from one district to another or even from one country to

Seeding usually takes place after the first showers in November; yet the period between October and December can generally be regarded as the sowing season. Not very much care, if any, is given to the fields or to the plant. The harvest season usually extends from the second half of April to the first half of May. The people are never sure of the crops and in most years they get poor return. The failure of the crop may be so acute that whole lineages may find themselves obliged to migrate, with their flocks, to the Delta. In such critical years, grain and flour are urgently sent by the Government from the Delta so as to evade the dangers of famine. As far as this is concerned, the semi-nomadic clans of the Western Desert represent a real burden on the national economy of the country.

The semi-nomadic groups which have recently become sedentary and have settled down in the easten parts of the desert are taking much interest in horticulture and in the growing of fruit trees, especially fig trees, as well as in the growing of tomatoes and vegetables. El-'Amriya is regarded as the most important centre for producing figsand it seems that all the fig crop finds ready market at Alexandria and the other cities of the Delta. In 1953 there were about 3.488 acres of fig trees in that region. The average number of trees per acre is 120 trees and thus there should have been some 418.560 fig trees in that region alone. The growing of olive trees is a recent innovation in the Western Desert although the inhabitants of the Oases have known it since immemorial times. The Burg-el-Arab region is the most important centre for the cultivation and the growing of olives. The official figures show that some 250 acres are planted with olive trees. The average number of olive trees per acre is 80 trees, and thus there should be about 20.000 trees in that region yielding about 2.000.000 lbs. of olives per year. Much less care is given to the growing of other fruit trees such as orange trees, almond trees and date palms, but there is increasing interest in the cultivation of almonds especially at the Ras-el-Hikma and Matrouh regions. In any case, the inhabitants of the western parts are less interested in the growing of fruits and vegetables than the inhabitants of the eastern parts. There is no douht that the nearness to the markets in Alexandria and the facility of transport by railway have encouraged the dwellers of the eastern regions to change to horticulture and, consequently, to settled life.

B. Wheat and maize are the staple crops in the Syrian Desert; the people hardly grow any large amounts of barley. Unlike the Egyptian

and goats. Camels are regarded by the Rowalla as constituting the most important item of one's wealth. This does not mean that they do not care for sheep or that they do not keep them. It only means that because of the harsh physical conditions and the arid desert and the scarcity of rain in their regions they have to roam widely for search of pasture. Their Journeys may take them to as far as Saudi Arabia. The camel is the only animal which can endure such a long and exhausting trip. The number of camels also tend to increase among the more nomadic sections of the Shammar clans who are allowed in bad years to graze their flocks in Iraqi lands.

The only available statistics about livestock are the following figures which show the number of animals kept by the semi-nomadic clans of the Gezira region in 1955 and 1956 :

	sheep	*Goats*	*Cows*	*Oxen*	*Camels*	*Donkeys*
1955	622.000	220.000	26.000	16.000	11.000	14.000
1956	629.000	225.000	28.000	17.000	8.000	15.000

From these figures we can see that there is a sharp fall in the number of camels and a remarkable increase in the number of all the other species of livestock, and goats in particular. Camels cannot comply with the requirements of the sedentary or semi-nomadic life.

Cultivation

A. Cultivation, in the Western Desert of Egypt, is also affected by the erratic nature of rain and the scarcity of the underground water in most places. As has already been said, the land suitable for cultivation lies along the sea coast but the cultivated area varies from year to year according to the rainfall. In bad years, the cultivated area may be reduced to a comparatively narrow stripe of only a few miles in breadth.

Land is not owned by the people; it belongs to the State with the right of usufruct conceded to the people. Barley is the staple crop and most of the people hardly use any other cereal in making their bread. Barley straw is also used as fodder for animals. The variety of braley which is grown in the Western Desert has the privillege of having a compartively short growing season; something between 75 and 90 days. It can also stand dronght if the rains fail to come in time.

Whatever may be the case, it seems that the nomadic raising of livestock is the best mode of living the inhabitants of the desert can lead under the existing conditions with such unreliable rainfall. Low rainfall may entail the complete destruction of the cultivation of a person but never all his animals. Stock raising, however, is supplemented by agriculture and some other occupations, and there is an unmistakeable drift now to those more sedentary occupations. There is a remarkable decline in pastoral nomadism in favavour of agriculture and trade, especially in the eastern parts which are nearer to the Delta and its markets. People there depend mainly on horticulture, and the raising of livestock is not very much liked because of the possible damage that sheep and, more particularly goats, can do to their plants and trees.

B. The raising of livestock is practised in Syria on a much larger scale than it is in the Western Desert. Animals are reared in much larger numbers and it is common to come across herds of some 600 to 800 sheep and goats, especially in the Hassaka and the Gezira regions. Besides sheep, goats, camels and donkeys, the more sedentary clans, especially in the Gezira region, take much interest in the raising of cows. But sheep and goats rank first; they are kept in much larger numbers than other kinds of stock. Grazing conditions are, on the whole, much more favourable than those prevailing in the Egyptian Desert. Grazing plants and grasses cover vast stretches of land and thrive abundantly in most years because of the relative abundance of rain; but exceptionally dry years have similar drastic effects on both the herds and the pasture plants.

The best grazing lands are found at Deir-el-Zor and its vicinity; but bad years and exceptionally dry seasons usually compel the people to move to the Gezira region which is generally regarded as an agricultural area. The actual existence of a number of rivers there allows for sufficient fodder for the famine-stricken animals coming from Deir-el-Zor. The occasional shortage of pasture and herbage may also compel the herdsmen to cross the borders to Iraq. Other excellent grazing-lands are found at Hama and Homs where grass thrives in good years; but here also the decline in the amount of rainfall leads to the death of large numbers of animals. Similar conditions prevail in the Aleppo region.

With the exception of the Rowalla clans who are mainly camel-herdsmen, the Syrian clans are deeply interested in the raising of sheep

lated by the division of the year into the two major seasons — the dry season and the wet season. The wet season is the season of plenty in which the animals are replenished; the dry season is the period of starvation during which the flocks are fed mainly on straw. Any movements of animals that may take place in this season are carried out on a very limited scale. In exceptionally bad years the people are compelled to dispose of their animals, or at least a large part of the flocks. Sometimes they may send them away to their friends and relatives who may be living near vegetation. In bad years the shepherds find it necessary to cross the frontiers to Cyrenaica for pasture. The grazing grounds are traditionally divided among the clan and the lineages, in the sense that each lineage has definite rights in specific grazing areas to the exclusion of all other lineages. This exclusiveness, however, is not strictly followed in bad years when the people feel that they must co-operate and help the needy and the distressed.

The size of the herds varies widely from place to place according to the availability of pasture plants and herbage. Most of the herds comprise goats and sheep which are dominant in number. Camels are usually herded separately, and in any case one does not come across large herds of camels except perhaps further to the south. In fact, sheep also graze in small flocks especially in the eastern part of the desert where most of the herds comprise of from 5 to 30 or 40 animals. The size of the herds tends to become larger in the western parts, and one often comes across herds of 300 sheep or more. In terms of popularity, sheep come first and the people show more interest in them than they do with regards to other animals. In some districts, the number of sheep is larger than the number of all the other animals put together. Goats rank second to sheep. The number of camels tends now to decrease since their importance as a means of transport has declined after the advent of the railway and the construction of motor roads. This is more apparent in the eastern part of the desert where the people have become more settled. According to Weheba, there were some 15.000 sheep in Eastern Mariut in 1953, about 13.500 goats and only 3.300 camels. Donkeys are also kept by the Bedouins and more particularly by the settled clans. They serve as load, riding and draught animals and are mainly used in agricultural work, especially in ploughing. Therefore, donkeys are never kept in large numbers. A family so seldom keeps more than one or two donkeys, but on the whole, the distribution of livestock tends to be more sparse in the eastern parts than in the western parts of the desert.

onion with some salt, or a piece of cob-web and some olive oil are put on the wound. Next day the patient goes in the morning to the hospital to get his wound cleaned and dressed again. Cases of ophthalmia are also put under the careful supervison of the doctor who gives eye-drops and medicine which the patient never fails to use according to prescription, but at the same time, the sick eye is treated with the warm blood of a newly killed rabbit or by applying a piece of raw and fresh meat to it.

III. OCCUPATIONS

Stock Raising

A. The rearing of animals in the Western Desert is subject to the unreliability of rain and its erratic nature. For the growth of pasture plants is affected not only by the infertility of the soil but also, and to a larger extent, by the amount of rain falling in any specific year. Low rainfall entails acute shortage in pasture and herbage, and leads to the death of animals of both starvation and thirst. Statisites indicate that two of every five years have rain failure.

Grazing lands extend generally to the south of the cultivated northern stripe; i.e. in the middle zone where the infertility of the soil and the meagreness of the rainfall put limitation on cultivation. Herbage may grow also in the fallow patches within the barley land. The southern boundary of the grazing grounds depends mainly on the the extent of rainfall inland. Pasture plants comprise a wide variety of bushes, scrub and many other species of grasses most of which have a very short life cycle, but a few of them are annuals. In any case, most of these plants persist between December and May, then the land turns during the summer into arid hard desert with only a few dispersed patches of dry grass. The grazing season *per excellence* extends therefore between November and April, during which period barley stands on the fields. After the first showers of November, barley is sown and the young men move with their flocks to the patures leaving to the older people the task of looking after the fields. As the dry season advances, the flocks are moved northwards to the cultivated lands so as to be nearer to fodder and to the waterholes which stand usually very near to the coastal zone. During this time, animals live mainly on barley straw and very little drying grass. However, the movements of the flocks are rhythmic and regu-

ments and hemorroids. In the absence of reliable statistics, local physicians estimate that about 40 per cent. of the adult population in the Western Desert and about 25 per cent. of the total population in the Syrian Desert have T.B. More than 70 per cent. of the adult population in both deserts have got piles as a result of the lack of vegetables and fruits in their diet. Gastric diseases are very common, but they are more prevalent and more fatal among children.

b) Diseases which are caused by the lack of cleanliness such as skin illness, ophthalmia, diarrhoea, etc. Measles could also be included in this group. It is widespread among both childern, and grown-ups. Venereal diseases are also very common, Local authorities say that they are more common than T.B. and it is estimated, for example, that more than 80 per cent of the adult male population in the Syrian Desert have syphilis. Promiscuous sexual intercourse among the Bedouins must be regarded as responsible for the widespread of venereal diseases. Since women are not allowed to be examined by male physicians, it is impossible to know exactly how far venereal diseases and other illnesses are prevalent among the Bedouins.

In general, the Bedouins of both deserts do not go to the doctor unless something is very wrong. They have much more faith in their folk medicines and home remedies such as cupping, massage, cicatrization, using a large varity of herbs, etc. Modern hospitals, medical practices and medical doctors are regarded with much suspicion, especially by the nomads who may overlook them completely. Perhaps the wide dispersal of the nomadic groups and the difficulty to convey medical services to them in their remote and mobile dwellings are responsible for this suspicion. But even the more sedentary groups who live in villages and towns where hospitals are found have not yet abandoned their traditional remedies. They rather try to get the best of both kinds of medicine. To give a few examples : A scorpion stings a man. The doctor, if availblable, is immediately called to give the patient the anti-scorpion serum and any other medicines that may be useful. The instructions of the doctor are followed strictly and literally, but at the same time and as soon as the doctor disappears, the wound is burnt by fire and a piece of dry ass-dung is put on it to "suck out" the poison. Wounds are carefully cleaned and treated with medicines and dressed in the hospital by the doctor in the morning, but later in the day the bandages are taken off and a roasted

important regulation of religion or because they have committed a sin or a crime. With such beliefs in the background, it is very difficult to introduce effective hygienic measures.

The situation is further aggravated by the fact that the few hospitals and hygienic centres established at widely dispersed localites and villages in both deserts do not have sufficient number of beds for the patients. The necessary and essential medicines are also lacking. Aspirins and D.D.T. are the items found in abundance in most of the hygienic centres. Moreover, the hygienic workers, the physicians and the staff of these centres are generally overworked. The hospital at El-Dab'aa in the Western Desert, for example, has only one physician who acts as hygienic officer at the same time. He has to look after the hygienic situation, to treat diseases, to look after critical cases of child-birth, etc., in a very wide area which stretches to more than 100 kilometres along the coast. He has no ready means of transport to use in his visits and inspection. Thus, he has either to hire a taxi when he can find one, or to use the police car in cases of emregency. All this puts severe checks on the medical services and render them uneffective. The result is that the physician actually contends himself to first-aid and sends the more complicated and fatal cases to Alexandria, some 160 kilometres away from El-Dab'aa. With the exception of the hospital at Mersa Matrouh, all the hospitals of the Western Desert suffer from the same shortage and defects. The same could be said about the hygienic situation and the hospitals among the nomadic and semi-nomadic groups in Syria. Hospitals in the Syrian Desert are not better equipped or better staffed than those in the Western Desert of Egypt and so, they cannot offer adequate medical service to the people. For example, the Raqqa region, with its area of about 400.000 sq. kms. and a population of about 126.000 (of whom 35,000 are nomads), has only one hospital or rather a public clinic with one physician and one male-nurse. Severe cases are transferred to hospitals at Aleppo, about 200 kilometres from Raqqa town. There is no one single pharmacy in the whole region and all medicine has thus to be brought from Aleppo.

The main diseases in both the Western Desert and the Syrian Desert can be classified into two categories :

a) Diseases which are caused by the lack of well balanced nutrition and adequate diet and hy the absence of suitable hygienic habits with regards to food, drink and habitation. The most important of these diseases are tuberculosis, gastric troubles, stomach ail-

such a small number for the schools, and much resistance is displayed by some nomadic clans, more particularly by the Rowalla clans.

These limitations and difficulties have rendered the schools and the type of education offered to the boys ineffective in the life of the nomadic clans, and it has been realised that it is impossible under the current conditions to achieve the main aim of this system of schooling, i. e. the breaking down of the traditional tribal organisation. Nevertheless, the period spent in the secondary school away from home is thought to be long enough to influence the students and to change much of their precious habits, values, patterns of behaviour and modes of thought. But in spite of this, it cannot be said that education has succeeded in erasing tribal feelings and sentiments or in abolishing tribal hostilities.

Hygiene

The hygienic situation is regarded with much dismay by the few physicians who are stationed at the local hospitals and clinics in both deserts. This is due mainly to the lack of adequate systems of hospitalisation and the lack of faith in medicine on the part of the people, rather than to the actual spread of disease. In fact, there are no localised diseases in the strict sense of the word, and the wide dispersal of the nomadic groups prevent indeed from the spread of epidemics. Outbreaks of typhoid or typhus may occur in a certain year, but these usually take the form of sporadic cases which could be dealt with successfully were the general conditions of the hospitals favourable and adequate means and medicines available. Hospitals are found only in the larger villages and towns in both the Egyptian and Syrian deserts, but on the whole they are understaffed and poorly equipped. Very little effort, if any, is made by the local medical and hygienic authorities to provide the people with hygienic culture or to change their concepts of cleanliness and dirt or to teach them new hygienic habits with regards to better housing, better ventilation and the destruction of noxious insects and vermin, or to encourage the people to bore holes for latrines, etc. The people themselves do not show any real interest in acquiring new hygienic habits. They accept illness with complete submission; for illnesee is God-sent and no hygienic measure can cope with it. Infectious diseases are regareded as a communal punishment for sin. Less dangerous diseases and troubles are generally attributed to witheraft and to the evil eye. It is also thought that disease can occur as a result of the misdeeds of others; thus, sons may suffer because their parents have failed to observe a certain

education and they preferred for their children to follow the pure theoretical education provided by the ordinary public schools, which might lead in the end to getting a post in one of the governmental departments. Therefore, the school was moved to 'Amiriya in the summer of 1957 so as to be located in a better agricultural area with encouraging agricultural prospects, as well as to be nearer to Alexandria from which a considerable number of the students are still recruited. It is also said that the school did not meet the due success at Mersa Matrouh for the lack of a fixed policy with regards to the future of its students and because its curricula were not adapted to the particular nature of the area. Indeed, the other types of education suffer from the same defect.

B. The Clans' Department in Syria has tried hard to introduce modern education among the nomadic clans, but financial difficulties have put severe limitations to these efforts. The original plan was to establish primary schools at the more important centres in which the nomadic groups usually cluster for the longer period of the year and to recruit pupils from these clans. Education, food and residence were planned to be offered by the Clans' Department itself so as to encourage attendance. Because of the financial difficulties, only five schools were established in five different centres : the school of Domair for the Rowalla clans; the school of Ma,arra (near Aleppo) for the Hadeedieen and the Mawali clans ; the school of Tudmor (Palmyr) for the Beni-Khaled, the Sbe'aa and the 'Emoor clans; the School of Raqqa for the Fed'aan and the 'Afadla clans; and the school of Hassaka for the Shammar, the Jeboor and some other less important clans which live in the Gezira region. The boys are expected to spend five years at school, during which time they read the same subjects taught in the ordinary primary school but with more care given to the local environment and physical conditions. Agricultural subjects were introduced as well in recent years. After finishing their primary education the young boys are sent to intermediary then to secondary schools in the large towns and more particularly to Damascus. Pupils are recruited from thier respective clans by force, in the sense that the clans living in each of these five centres are obliged to provide the Clans' Department with a certain number of boys at the beginning of each academic year. The "Clans' Schools", as they are called, are five-class schools; and each class has 30 boys. Thus, each school has only 150 pupils at any specific time, and the number of pupils recruited every year does not exceed 30 boys in each centre. The Clans' Department, however, finds many difficulties in recruiting

Education

It is difficult to speak about the existence of any regular education among the nomadic groups in both Egypt and Syria. The nature and conditions of their life, their frequent movements and non-attachment to any specific locality prevent from establishing any effective and systematic education or a solid system of schooling among them. All that a boy can get under the prevailing unfavourable conditions is the knowledge of some passages of the Koran; and apart from a few persons, the whole nomadic population in both deserts can be regarded as completely illiterate. Yet education is spreading widely, on the other hand, among the more sedentarised groups and clans especially in Egypt. Serious and continuous efforts are also made in Syria to introduce primary education and to establish primary schools in certain desert points which are frequented by the nomads, on the assumption that education is the best, though perhaps not the shortest, way for breaking down the tribal organisation and erasing the nomadic mode of livelihood.

A. In the Western Desert of Egypt, primary schools are found in all the larger villages along the railway line. There are 11 primary schools in the whole area, attended by 2.383 pupils of both sexes. (1) Education at that satage is compulsory for children between 6 and 14 years of age. There is one intermediary school (169 pupils) and one secondary school (59 pupils) at Mersa Matrouh. There is also an agricultural school at 'Amriya. The average age of the pupils in all stages is higher than that of their mates at the respective schools in the Delta. The age of 18 or 19 for example, is very common among the first-year students at the secondary school, while the average age of students at that stage in the schools of Alexandria and other parts of the Delta is 15 years. The subjects taught at these schools are exactly the same as those taught in the schools of the Delta.

The agricultural school was established at first in 1944 at Mersa Matrouh to encourage boys, after finishing their primary education, to get agricultural training and paractical instruction in craftsmanship as well. But from the very beginning, it was clear that the school would not meet much success. Only 66 pupils attended the first year, and these came, strangely enough from Alexandria and its vicinity. The inhabitants of the area did not show any interest in that sort of

1. These figures were obtained in the summer of 1958.

B. The Syrian Bedouins live on equally simple food because of their relative poverty and the difficulty of transporting huge amounts of food with them on their long trips. But on the whole, they consume larger quantities of meat in their every-day life than do the Egyptian Bedouins. This is due, perhaps, to the fact that they have more extensive and richer grazing grounds and consequently larger flocks. Also dates play a more important role in their diet especially in winter when they eat them boiled in milk. The nomadic clans which live in the eastern parts of Syria, such as Shammar and the Jebboor clans, bring considerable amounts of dates from Iraq when they cross the borders in bad years for pasture. Again, they have more inclination to wheat and maize than to barley. Wheat, more particularly, plays in their diet the same role played by barley in the diet of the Egyptian Bedouins.

Milk plays a major role in the diet of both the Egyptian and the Syrian Bedouins. It occupies a main principal place in their food epecially in spring when the animals are replenished and milk becomes more abundant. In fact, it represents the main item in their diet for some five months i.e. during the wet season trips. Tea and coffee are also consumed in considerable quantities in both deserts. The Egyptian Bedouins are more keen on tea. They themselves allege that a man may spend on tea more than he does on all other items of food put together. The tea which they drink is a very strong and sticky liquid which they get by boiling together a large amount of tea and sugar for a long time. Tea is usually drunk in small glasses and is served at all hours of the day. The Syrians are much more keen on coffee and they spend quite a lot of money and time on it. A cup of strong coffee and a piece of hard bread make an ideal breakfast for most of them. The pots and utensils necessary for making coffee are the most conspicuous piece of furniture in the tent. Special care and consideration are given to the selection of coffee beans, their roasting and grinding just before making coffee. Coffee is also served in small cups, and only a little of it is offered at a time, but one is expected to drink at least three cups of it. Some clans would consider it an insult if the guest refuses to drink the coffee offered to him. Even strangers who are not accustomed to strong coffee are expected to drink once to show good will. Drugs and spirits are not known among the nomads and semi-nomads in both deserts, but the more wealthy of the sedentary population may drink date wine. Imported European spirits are consumed in enormous quantities by the wealthy tribal chiefs, especially in Syria .

The interior of the *beit* or the tent is divided into two sections by a curtain so as to seclude the womenfolk of the tent who are always given the inner section called *mairam* to live in and to retire to it when there are men guests. In the more settled groups, this curtain may be made of hard reeds which must, in any case, be higher than the ordinary man so as to prevent intruders from looking at the *hareem* or the female members of the household. This reed curtain is called the *zerb*, and it may be covered, among the more wealthy people, by docorated woollen cloth. Some nomads compile their luggage and grain-sacks in the middle of the tent to play the role of the curtain or the *zerb*.

Food :

A. The food of the ordinary Bedouin is generally very simple, consisting in most cases of nothing more than a piece of very hard bread dipped in tea or milk or butter or oil. Contrary to the common idea about the inhabitants of the deserts, the Bedouins of the Western Desert, or rather the more mobile or nomadic section of the population, do not regard dates as a principal item in their diet. It is not easy for the nomads to take with them *all* their needs of dates throughout their long journeys and their frequent movements. Moreover, date-palms are not grown in large numbers in the Western Desert except in Siwa Oasis. Large quantities of the *Siwi* dates are actually consumed by the more settled population along the coast. Meat also does not play a leading item in their food. It is not consumed in considerable quantities except perhaps on the occasion of feasts and religious cermonies. In ordinary life, an animal is seldom killed; for animals and sheep are not kept for the sake of their meat; they are rather reared for their economic as well as their social values. Vegetables and fruits are consumed in very small quantities by the more sedentary groups, but they are almost entirely absent from the food of the nomadic population. Rice is regarded as a delicacy, especially if sauce is added to it. The most important item in the Bedouin diet is cereals, mainly barley and little maize and wheat. Barley is grown on a large scale and represents an important and permanent feature in all their meals. Besides making their bread of barley, a certain delicious porridge which is eaten when still very hot is made of it. The inhabitants of the Matrouh area eat roasted barley after adding salt to it. Very little fish is consumed by the groups which live near the sea coast, but the Bedouins in general do not regard fish as an essential element in their food.

El Dabaa district for instance) or the modern means of communication (as is the case in the southern tracts) the tent is predominant. And finally, where semi-nomads seek the service and amenities of railway villages and hamlets, tents cluster near by during the dry season varying from 30-200 tents" (Wahcba; *Eastern Mariut*; pp. 118-119). Generally speaking, where the number of permanent stone houses and shacks decreases the number of tents increases and *vice versa*.

B. The same pattern of housing prevails, more or less in Syria but with more apparent inclination to living in tents. The only exception is the Gezira area where the Bedouins have become more sedentary and tend to live in permanent dwellings. The semi-nomadic clans cluster in large numbers constituting what they call *Hilla*, or *Hwa-a*, or *Naj'e*, or *Dawwar*; all of which words mean village or hamlet. These mobile hamlets may contain more than 100 tents at a time, but it is not necessary for the whole clan to live in the same hamlet. Most of the tents are made of goat hair and are used all the year round in spite of the fact that they become very hot in summer. The more wealthy people usually make their summer tents of special cotton cloth, while winter tents may be made of camel hair or of pure sheep wool.

All the members of one family, whether it is an elementary or a polygynous family, usually live in one and the same tent. It is only the chief who may have more than one tent for his wives, children, servants and clients. Also the size of the tent and the number of the supporting posts correspond with the status of its occupants. A large tent may be lifted up on as many as seven poles and it may cover some 60-100 sq. metres On the other hand, the smallest tent is that lifted up on only one pole erected in its middle. These very small tents are usually occupied either by widows or by very old lonely people or sometimes by clients and other persons who take refuge in that clan from their enemies. The only exception to this is the Rowalla clans which prefer to erect their tents, in most cases, on a single pole regardless of wealth or rank or status. However, any change in the number of poles of a tent is generally taken as an indicator of a corresponding change in the wealth of its occupants.. The size of the tent, on the other hand, corresponds with the tendency to sedentary life. The tents of the semi-nomads who inhabit the Euphrates area, for example, are much larger than the tents of the nomadic clans who live in the Badiya. The clans of the Euphrates do not need, in any case, to move so frequently or so widely as do the more nomadic groups.

over, a number of stationary tents have been erected near the railway stations and are occupied by the former semi-nomads who are working in paid jobs and who have not yet had the chance of building a shack or a stone house.

The tent is the only mobile dwelling in the desert. Most tents are of relatively small size and are made of rugs or sack (summer tents) or of goat hair (winter tents). Tents are generally erected according to the direction of the wind; the side facing the wind is always closed but they open the opposite side.

Permanent dwellings concentrate mainly near railway stations and along the northern cultivated stripe. The rest of the area is occupied by mobile tents. The two main centres of concentration of permanent dwellings are the 'Amriya area and the Matrouh area, the first being the principal fig-producing zone in the desert; the second being the seat of the local government of the Western Desert as well as an important trade centre. The number of permanent dwellings drop sharply in all other points. Tent clusters, on the other hand, do not follow any definite plan and are only temporary and are influenced by the seasonal changes. They tend to cluster near the railway villages during the dry season and some of these clusters may contain up to 200 tents or more. By the advance of the wet season these clusters tend to break up and disperse widely over the grazing grounds to the south of the coastal zone. One does not usually see more than 8-10 tents in any one place.

It could be said, however, that where better lands and better conditions for settling down are available the number of tents become smaller as is the case at 'Amriya and Mersa Matrouh where the people can easily find more permanent and more reliable sources of income. According to Weheba, there are three factors that seem to have largely given rise to these distributional features. "First, distance from the civilising influences propagated mainly by modern means of communications; secondly, and this is a corrollary of the first, how far the inhabitants of a particular district or locality have taken to sedentary occupations; thirdly, the attraction of railway service villages and hamlets to tent dwellers. Where people live in closer contact with the Nile Valley and live more by sedentary occupations, as in the fig-producing coastal zone and El-Amyria, the mobile dwelling gives way to the static. Where people live far away either from the Delta (in the

water. The wells in the north of the area yield in general much more water than the southern wells, but the total output is meagre on the whole, The *Hamad*, on the other hand, is known as "the region of the *Khabbary*" i.e. the not very deep holes which become filled with rain water during the wet season. Unlike the wells, the *Khabbary* are natural reservoirs; i.e. they are not dug by man.

Rain, however, plays a major role in the life of the Syrian clans. Where rain is more abundant, the people tend to be more settled and more pro perous, while the low rainfall imposes drastic limitations to human activities.

Therefore, any development projects and sedentarisation schemes planned for either desert should give much consideration to the question of water and its availability. In fact, most of the contemplated projects, to which we shall refer later, envisage the possibility of better exploitation of the actual water supplies as well as tapping all the potential resources.

II. CONDITIONS OF LIFE

Habitation

A. Bedouin dwellings in the Western Desert of Egypt fall in two types : premanent dwellings and mobile dwellings. In the permanent dwellings further distinction could be made between the stone houses which are usually built of limestone, and the shacks which are usually made of war debris. The walls of the stone houses are usually covered with plaster and sometimes are whitewashed; the roofs are flat in most cases, and because of the scarcity and high cost of wood, the window shutters and doors are generally very small. In fact, many houses have no window shutters and somtimes no doors at all. Windows and doors do not open to the north on account of the strong northerly winds. Most of the houses are of two or three rooms only which are used for sleeping and receiving guests; domestic functions, cooking, baking and grinding corn are carried out in the courtyard which is used at the same time to shelter the animals at night. Shacks on the other hand are built in a very rudimentary way, and living in them can he regarded as the first step towards living in more permanent dwellings for they are usually replaced in time by stone houses. Shacks do not have windows and their sloping roofs are usually covered with earth so as to prevent rain water from penetrating. More-

subterranean sources, the high percentage of dissolved salts in the underground water, and the shortness of the wet season. Because of the scantity of the subterranean water, rain is by far the main and the most important source of water. But it is an unreliable source because of the variability of the rainfall and the large amounts of rain-water which is lost by evaporation and seepage in the sand. The situation is further aggravated by the low cultural and technical standards of the people who fail to make the best use of the available resources. This unreliability and the erratic nature of rain have drastic effects on the economic and social life of the people as it will be seen in due course.

To compensate the loss in rain water, artesian wells have to be drilled so as to tap the subterranean water. A large number of wells have already been sunk in the past 50 years especially along the coast, and more particularly in the fig-producing area in the eastern part of the desert, between El-Dab'aa and El-Hammam. Wells tend to concentrate in general within a few miles of the coast and are more numerous in the east than in the west. The wells near the coast are usually more shallow (less than 30ft. deep) than those to the south (over 100ft. deep). In most cases water is extracted by means of rope and bucket, but sometimes wells are provided with wind pumps as it is the case in El-'Amriya, Burg-el-Arab and Ras-el-Hikma. Unfortunately, not all the functioning wells yield potable water or even water suitable for irrigation. The water of a large number of the artesian wells is saline and can only be used for domestic purposes. Certain experiments are now taking place at Ras-el-Hikma and Fuka to know whether this saline water can be used in the irrigation of pasture-lands.

Lastly, a water pipeline was constructed during the Second World War to carry fresh water, mainly for drinking, from the Nile (the Nubaria Canal) to as far as Mersa Matrouh and then by train to Sallum on the borders.

B. A similar situation occurs in the Syrian Desert, although certain places in the semi-desert area are more lucky than any thing in the Egyptian Desert with regards to rain. This semi-desert area which lies to the north of the immaginary line extending between Damascus and Abou-Kamal is a "region of wells". Most of the wells there do not go deeper than 15-20 metres, but a few of them may reach some 60-70 metres in depth. Here also, not all the functioning wells yield potable

REGION	*CLAN*	*NUMBER*
	El Ehsena	4.200
	Sab'e Beteinat	6.180
	Sab'e Beteinat Abdou	8.000
	Bani Khaled	7.980
	'Emoor	4.000
	Saleeb	600
	Hadeedieen	35.000
Aleppo	Bou-Khamees	6.500
	Lohhaib	2.500
	Wahb	5.000
	Shammar El-Khrossa	15.000
	Shammar El-Zor	10.000
		141.000

This means that the nomadic population in 1951 were 141.000. (Compare this with the figure given on page 4. Both figures were provided by the same Department).

The semi-nomadic clans are estimated at about 200.000 people. They tend to cluster round the water-points especially in the Hassaka and the Gezira regions where are found some important rivers such as the Euphrates, the Gagh-Gagh, the Beleekh, and the Khahoor. In any case, there is a general tendency among the clans to lead a settled life where water is found in abundance to enable them to cultivate the land, which means that the water situation is the main factor in determining sedentary or nomadic life. Thus the abundance of rain and river water can be regarded as the main factor which had led to the sedentarisation of the Tai and the 'Egeidat clans of Dair-el-Zor, and the Fed'aan clans of the Radd area. Whatever might be the case, it should be said that any distinction between nomadic and semi-nomadic or even sedentary clans in Syria is an artificial and arbitrary one; for all the clans do practice both ways of life, but with more bias towards the one or the other. The same clans which are considered from the official point of view as "sedentary" are compelled to nomadism in bad years.

Water Supply

A. The problem of water is, as has already been said, a crucial one in the Western Desert of Egypt, because of the meagreness of the

It has been said that the Morabiteen clans are mere clients to the powerful and warlike Awlad Ali, but it is generally thought that they lived in the Western Desert a long time before the Awlad Ali came from the west. It may be that they themselves came from Libyan origin although one theory states that they are the descendants of the original Berber inhabitants of the desert. In any case they like to attach themselves to the Awlad Ali not as clients but rather as a branch or segment, thus alleging that they have also descended from 'Akkar. The most important clans of the Morabiteen are Fawakher, Qot'aan Shawa'er, Sheheibat, Taraki, 'Alawna, Awlad Nejm: and Sawame'e.

Clans and lineages in the Western Desert are not localised. For in spite of the natural tendency of kinsmen to cluster together and to live near each other, the members of the same clan-segment may be widely dispersed, while the inhabitants of any locality usually belong to different clans.

B. The distinction between nomadic and semi-nomadic clans and their distribution in Syria is even more difficult than it is in Eygpt. The intereference of the successive governments in reclassifying the clans by issuing laws according to which clans were arbitrarily considered semi-nomadic or even sedentary adds to this difficulty. The following table shows, however, the number and distribution of the nomadic clans in Syria according to the estimates of the Clan Department in 1951.

REGION	*CLAN*	*NUMBER*
	Rowalla	15.000
	Ashag'a-a	2.000
	Sawalma	1.000
Damascus	'Abdallah	900
	Weld Ali	2.500
	Bedoor	600
	Ghaith	1.500
	Na eer Nejd	450
	Masa'eed	3.000
	Sharafat	1.400
	'Admat	1.500
Seuda-a	Shanabelah	1.700
	Sardeya	1.000
	El-Hassa	3.500

Distribution and Origin

A. Most of the inhabitants of the Western Desert belong to the Awlad Ali clans who came originally from Libya . A few less important and less numerous clans, the Morabiteen clans, also live there as clients to the stronger and more powerful Awlad Ali. All the Awlad Ali descended from a certain 'Akkar ben Sa'ada or 'Akkar el-Sherif, who lived at Jebel el-Akhdar in Cyrenaica in the fifth century. They themselves distinguish between two major segments : "The whites" and "The Reds". Each segment is segmented in turn into smaller sub-clans and lineages with distinct autonomous personalities. Clan segmentation takes place as a result of the increasing number of the members of the kin-group to such an extent that the social relations become so confused that it is thought wiser to bifurcate into independent segments, or as a result of inner disputes and conflicts. There is a good deal of ambiguity and complication with regard to the question of segmentation. It is not very clear, for example, whether a certain kin-group makes a clan or a sub-clan or a mere lineage. It is also very difficult to know exactly the segments of a specific clan, or which segments belong to which clan. The most important of the larger kin groups, to all of which the word "clan" will be invariably used, are shown in the following list. This list has been collected after such laborious efforts and investigation, but I shall not be surprised if some inaccuracies occur in it.

THE REDS	THE WHITES	SENEINA	GEMI'AT
'Eshcibat	Sanaqra	Qateefa	Qwassem
Kemeilat	Afrad	Sammallus	Shatloor
Mawalek	'Agarma	Farawa	'Awassa
Quanashat	Awlad Kharoof	Mahafeez	Nawaba
	Qareedat	Garara	Awlad Soleiman
	Menaffa	'Agana	Farawra
	'Azayem	Shawalha	Bakakra
	Mawamna	etc.	Mawassa
	Manawra		etc.
	El-Hahoon		
	Geheihat		
	Sarahna		
	Ze'airat		
	'Awamma		
	etc.		

Number and Type

A. The Bedouins of the Western Desert numbered 68,161 in 1947. Only 23,444, i.e. less than half of the total population, are livestock herdsmen (mainly shepherds). The rest have different jobs such as agriculture, fishing, stone-cutting and trading with the Delta. It cannot be said, however, that nomadism or livestock raising is the exclusive monopoly of a certain specific sector of the population, for almost all the inhabitants own sheep, whereas those whom we call herdsmen do practise agriculture at a certain time of the year. In fact all sectors of the population display much interest in livestock or rather in sheep, which are regarded as the most important and most highly esteemed item of wealth. Pastoral values are still ranking very high in spite of the recent obvious drift to other professions. But it should be noted that pure nomadism is not practised except by very small bands of camel-herdsmen who usually live in the southern parts of the desert. The majority of the herdsmen are shepherds whose movements are much more limited, in terms of space, than those of the real nomads. They also have their permanent settlements to which they retire, when the grazing season is over, to cultivate their fields.

B. The nomadic population of Syria are estimated to be about 150,000. There are also some 200,000 people who are classified by the Tribal Law of 1951 as either full sedentary or half-nomadic. The Land Reform Law of 1958 which was enacted to regulate land holding to the Region [1] "abolished" the "state of nomadism", so as to encourage the Bedouin clans to settle down in specific localities and to practise agriculture. But from a more realistic point of view, the Syrian Bedouins can be divided into three main divisions : (a) The full nomads or the camel-herdsmen, generally called "the people of the camel" or "the people of the camel-hair". They usually roam deep in the heart of the desert and their trips may carry them across the borders to the neighbouring countries. The Rowalla is the best example of the nomadic clans in the Syrian Region. (b) The half-nomads or the semi-nomads, usually called *Ahl-el-Ghanam* i.e. "people of the sheep". They practise some agriculture as well, and therefore they lead a semi-settled life. Their movements are only seasonal and do not carry them to very far places except in exceptionally bad years. (c) The full sedentary clans, usually referred to as *felaleeh* or peasants, who have settled down in permanent dwellings and have given up almost entirely to agriculture. They may own animals especially sheep, but they trust them to professional shepherds.

(1) Syria was then part of the United Arab Republic.

nearly disappears at Sallum on the borders. Vegetation grows there because of the falling of rain and the existence of a number of artesian wells along the zone. (b) The middle region which lies south of the coastal zone, is a high plateau with some depressions, the most important of which is the Qattara Depression. (c) The rest of the area, i.e. the most southern region, is real arid desert. The coastal zone is the only really inhabited part of the Western Desert, and beyond it there is hardly any prospect for cultivation.

The climate of the area presents a transitional stage between the Mediterranean climate which prevails in the north and the sub-tropical dry climate in the south. The summer is usually cloudless and very warm, tending to grow hotter in the south, while the wet season, usually extending from November to March, is generally mild especially to the north. Rain, in the form of heavy showers of short duration, begins to fall early in November, but January is generally considered the wettest month of the year. The area which really enjoys the rainfall does not extend in fact to more than 50 kilometres to the south and in most years rain does not reach the inland except very occasionally. Rain also has a very erratic nature; it varies widely and sharply from year to year and from one place to another; it may come quite suddenly taking the form of torrents which sweeps everything away as it very often happens in the Sallum area.

B. The *Syrian Desert* covers some two-thirds of the whole area of the country, but most of it can be classified as semi-desert which is actually exposed to rain during the wet season. Only the further parts to the east of the inland, known as the *Hamad*, are really arid and uncultivatable due to the scarcity of rain and subsurface water. The *Hamad* covers about 20 per cent. of the total area inhabited by the nomadic and semi-nomadic clans of Syria. The amount of rainfall is also variable. It reaches some 250 mms. in the semi-desert areas which separate the northern plains from the south, but it never surpasses the 100 mms. level in the *Hamad* area. Rainfall may decline sharply in bad years thus causing droughts and deaths of animals, as it happened in 1951 and 1958. Most of the rain falls in autumn and winter; spring and summer are generally hot and dry. A considerable amount of water is lost by the summer heat, and some authorities state that about one-forth of the total amount of rain is lost by evaporation, but this loss can easily be compensated for by tapping subterranean water and by better utilisation of the water of streams and rivers.

desert. It has been easier to contact the Egyptian clans, for they usually, and more particularly during the dry season, cluster in the narrow coastal zone and along the railway line and seldom move very deep in the desert. However, some twenty days were devoted to the clans of the Gezira region, most of which were spent at Hassaka and the nearabouts.

In choosing these three communities for a more detailed investigation, it was taken into consideration not only the availability of clans during that specific period of time during which the study was carried out, but also the possibilities and the potentialities which these centres might offer towards the fulfilment and the execution of any intended sedentarisation projects The three communities are excellent examples of what can be done if it is wanted to establish sedentary communities to replace the nomadic and semi-nomadic aggregates of the desert.

Apart from the shortness of the period spent in the field, some other difficulties were faced. The scantity, sometimes the non-existence, of means of transport imposed certain checks on my contacts. This difficulty was overcome, however, to some extent, in the Gezira region due to the kind courtesy of Col. Adeeb Qadi Ariha of the Clans Dept. at El-Hassaka, who kindly offered vehicle and guide, thus enabling me to contact the Shammar and the Jeboor clans. The absence of reliable statistics has also been a real obstacle. All official figures quoted here should be taken with much caution; they are only very approximative.

I. THE GENERAL SETTING

The Area

A. The *Western Desert of Egypt* can be divided from the geographical point of view into three main divisions with outstanding different characteristics : (a) the coastal zone or the green stripe known as the *Dera'a Bahari* which consists mainly of the fertile and cultivated lands along the Mediterranean from the west of Alexandria to the Egyptian - Libyan frontiers. Bounded on the north by the sea, it stretches some 20 to 50 kilometres to the south, reaching its widest at eastern Mariut, but becoming narrower towards the west until it

THE NOMADIC AND THE SEMI-NOMADIC TRIBAL POPULATIONS OF THE EGYPTIAN WESTERN DESERT AND THE SYRIAN DESERT

By

A. M. ABOU-ZEID

INTRODUCTION

This study is based on data gathered during two field trips carried out in the Western Desert of Egypt and the Syrian Desert during the summer of 1958 at the request of the International Labour Office. Each trip took some eight weeks, and it was requested that the study should follow the lines of anthropological field research and use the methods and techniques of social anthropology. The I.L.O. provided me with a long list of problems and questions to investigate, but because of the short period spent in the field it was practically impossible to cover all the points included in that list. It is hoped however that the unanswered problems as well as the wide gaps which may be found in this preliminary survey will be dealt with in subsequent and more lengthy trips.

Anthropological field studies are usually carried out in more defined and smaller communities so as to reach a more intensive investigation. A full anthropological investigation takes usually two years, and in any case one should not stay in the field less than a whole year. Therefore, it was planned for these initial trips to make a general survey of the whole area, and to carry out at the same time some more intensive inquiries in a few more defined communities. The Mariut and Matrouh regions in Egypt and the Gezira region in Syria were selected for that inquiry. It was more difficult to carry out research of anthropological nature in Syria because of the wide dispersal of the clans in the vast stretches of the

حملة لويس التاسع الصليبية على سورية

(١٢٥٠ – ١٢٥٤ م)

للدكتور يوزيف نسيم يوسف

ملخص :

أقام الملك الفرنسي لويس التاسع في بلاد الشام، بعد حملته الفاشلة على مصر، أربع سنوات كاملة، وهو يناضل نضالا عنيفاً لتحقيق هدفه الرئيسي في الاستيلاء على البيت المقدس. ولهذا الموضوع أهمية كبيرة، فهو يلقي ضوءاً على العلاقات بين الغرب الأوروبي والشرقين الأوسط والأقصى، في فترة مر عليها المؤرخون مروراً سريعاً. ولذلك يتحتم على المتصدي له الجمع بين العلم بأصوله ومصادره الشرقية والغربية، العربية واللاتينية والبيزنطية، المطبوع منها والخطي، على قدم المساواة، سعياً وراء الحقيقة التاريخية المطلقة. وقد خلصنا من دراساتنا إلى رأي جديد، وخلاصته أن لويس التاسع قد قام بثلاث حملات صليبية، كان مسرح أولاها مصر، وثانيتها سورية، وثالثتها شمال افريقية، وإن كان لكل حملة طابعها الخاص وصفاتها المميزة لها – وذلك خلافاً لما أجمع عليه المؤرخون من أنه لم يقم الا بحملتين صليبيتين فقط، هما حملتا مصر وتونس.

بعد هزيمة لويس على ضفاف النيل توجه إلى عكا، عاصمة مملكة اللاتين بالشرق منذ استيلاء الصالح نجم الدين أيوب على بيت المقدس سنة ١١٤٤. وكان عليه بعد وصوله إلى الساحل السوري أن يفعل شيئاً يعوض خسارته الشديدة في مصر. لذلك وضع لنفسه برنامجاً هدفه مواصلة الحرب والكفاح ضد العرب في الشرق عسى أن يحقق للمسيحية الغربية نصراً قبل أن يعود إلى بلاده، بعد أن وجد الظروف السياسية في الشرقين الأوسط والأقصى مواتية لتحقيق هذا الهدف. فالمستعمرات الفرنجية في سورية في حالة ضعف ظاهر، والخلاف قائم بين الممالك في مصر وأمراء بني أيوب

فى الشام بعد ثورة المماليك البحرية ، والعداء قديم مستحكم بين السنيين والشيعة الاسماعيلية ، والآمال تداعب اللاتين فى كسب التتار إلى جانبهم واستخدامهم فى صراعهم ضد العرب ، ولويس من ناحيته يأمل فى اثارة الغرب للقيام بحملة عسكرية جديدة .

على هذا الأساس وضع ملك الفرنسيين خطة مرسومة واضحة ، بدت خيوطها الأولى قبل مغادرته مصر ، وأخذت تتكامل أطرافها بعد وصوله إلى الساحل السورى ، إلى أن تبلورت ونضجت واتخذت الوضع الذى نحن بصدده . ولويس وإن كان قد اخفق فى القيام بحملة عسكرية ، الا أنه لم يستسلم لليأس ، بل استغل الظروف المحيطة به استغلالا ينم عن مكر ودهاء . فنراه يحاول الوقيعة بين المماليك فى مصر والأيوبيين فى الشام ، ويسعى لانشاء جبهة شيعية لاتينية تقف فى وجه السنيين فى الشرق الأوسط ، ويتجه بنظره إلى الشرق الأقصى موطن التتار آملا تكوين كتلة كاثوليكية تتارية ضد الاسلام. ولكن مجهوداته السياسية والدبلوماسية لم تسفر عن أية نتيجة ايجابية حاسمة فى هذه الميادين . ومع ذلك فان مشروعاته الاصلاحية العديدة فى معاقل الفرنج المتبقية لهم بالشرق ، ساعدت على الابقاء على دولة الغزاة حوالى نصف قرن بعد مغادرة لويس سورية إلى الغرب .

تلك هى الخطوط الرئيسية العريضة لسياسة الملك الفرنسى فى سورية التى التقت كلها عند هدف واحد ، هو الهدف الذى من أجله قامت الحركة الصليبية فى ختام القرن الحادى عشر الميلادى . وهذا ما يدفعنا إلى القول بأن نشاط لويس التاسع فى سورية يعتبر فى الواقع حملة صليبية قائمة بذاتها ، لها كيانها ومقوماتها ، شأنها فى ذلك شأن غيرها من الحملات الأخرى المعروفة فى تاريخ هذه الحركة . ولكنها تمتاز عنها بأنها حملة سياسية دبلوماسية أكثر منها حربية عسكرية ، حملة قوامها السياسة والدبلوماسية والدهاء ، وهدفها النهائى أورشليم والأراضى المقدسة ـ تحقيقاً لأطماع اللاتين التوسعية الاستعمارية فى المنطقة العربية تحت قناع زائف من الدعاية الدينية .

III. SECONDARY SOURCES

(a) Oriental

Joseph N. Youssef, Louis IX in the Middle East-Palestine's Case During the Period of the Crusades. Cairo, 1959.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : لويس التاسع في الشرق الأوسط – قضية فلسطين في عصر الحروب الصليبية . القاهرة ١٩٥٩ .

Joseph N. Youssef, Louis IX's Defeat on the Nile Banks. Cairo, 1960.

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) : هزيمة لويس التاسع على ضفاف النيل . القاهرة ١٩٦٠ .

(b) Western

Atiya, A. S., The Crusade in the Later Middle Ages. London, 1938.

————————, Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Bray, A., The Good St. Louis and his Times. London, 1870.

Brehier, L., L'Eglise et l'Orient au Moyen Age : Les Croisades. Paris, 1928.

Conder, C.R., The Latin Kingdom of Jerusalem (1099-1291). London, 1897.

Davis, H. W. C., England under the Normans and Angevins (1066-1272). London, 1928.

d'Ohsson, C., Histoire des Mongols, depuis Tchinguiz-khan jusqu'à Timour bey ou Tamerlan. 4 vols. Amsterdam, 1852.

Grousset, R., Histoire des Croisades. 3 vols. Paris, 1948.

————————, The Sum of History. Trans. by A. & H. Temple Patterson. Oxford, 1951.

Guizot, M., Saint Louis and Calvin. London, 1869.

Iorga, N., Brève Histoire des Croisades et de leurs fondations en Terre Sainte. Paris, 1924.

Miller, W., Mediaeval Rome from Hildebrand to Clement VIII (1073-1600). London, 1901.

Stevenson, W., The Crusaders in the East. Cambridge, 1907.

Al-Makrīzī, Taki al-Dīn (d. A.H. 854/A.D. 1442)

al-Sulūk li-Ma'rifat Duwal al-Mulūk. 2 vols. in 6 parts. Cairo, 1934-1958.

المقريزى (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م) تقى الدين :

السلوك لمعرفة دول الملوك – جزءان كل فى ثلاثة اقسام – القاهرة ١٩٣٤–١٩٥٨ .

(*b*) *Western*

Annales de Terre Sainte (1095—1291), publiées par R. Röhricht et G. Raynaud, cf. A.O.L., II. II. pp. 429-461.

Beaulieu, Geoffrol de, Vita et sancta conversatio piae memoriae, Ludovici noni regis Francorum. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 1—27.

Chartres, Guillaume de, De vita et actibus inclytae recordationis regis Francorum Ludovici et de miraculis quae ad ejus sanctitatis declarationem contigerunt. Ed. Hist. de Fr., XX, pp. 27-41.

d'Avesnes, Baudion, Extraits de la Chronique attribuée a Baudoin d'Avesnes. Ed. Hist de Fr., XXI, pp. 159-181.

Eracles, L'Estoire de Eracles Empereur et la Conqueste de la Terre d'Outremer. Ed. R.H.C. — H. Occ., II. Paris, 1859. pp. 1 — 481.

Joinville, Jean de, Histoire de Saint Louis. Texte original du XIVe Siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne par M. Natalis de Wailly. Paris, 1874.

Louis IX, Ludovici regis de captitione et liberatione sua epistola. Ed. G.D.F.I, pp. 1196-1200.

Matthew of Westminster, *The Flowers of History*. 2 vols. London, 1853.

Nangis, Guillaume de, Vita Sancti Ludovici regis franciae. Ed. Hist. de Fr., XX. pp. 321-465.

Paris, Matthew, *English History from the year* 1235 *to* 1273. Trans. from the Latin by J.A.Giles. 2 vols. London, 1852-3.

Rothelin, Continuation de Guillaume de Tyr dite du manuscrit de Rothelin (1229-1261). Ed. R.H.C.—H. Occ., II. Paris, 1859. pp. 469-639.

St.-Pathus, Guillaume de, Vie de Saint Louis. Ed. Hist. de Fr., XX. pp. 58-121.

Wiegler, P., The Infidel Emperor and his Struggles against the Pope. Trans. by B. W. Downs. London, 1930.

العينى (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١م) بدر الدين :

عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان – ٢٤ ج فى ١٩ مجلدا – دار الكتب المصرية – رقم ١٥٨٤ تاريخ . « تصوير شمس » .

Ibn Ehādur, Muhamed B. Muhamed (9th C. A.H./15th.C. A.D.)

Fetūh al-Nasr fi Tarīkh Mulūk Masr. Cairo — Dar al-Kotob — No. 4977 H.

ابن بهادر (عاش فى القرن ٩هـ / القرن ١٥ م) محمد بن محمد :

فتوح النصر فى تاريخ ملوك مصر – دارالكتب المصرية – رقم ٤٩٧٧ تاريخ .

II. ORIGINAL SOURCES

(a) Oriental

Abu'l-Fidā', Ismā'il B. 'Ali B. Mahmud (d. A.H.732/A.D.1331)

al-Mukhtasar fi Akhbār al-Bashar. 4 vols. Istanbul, 1286 A.H.

ابو الفداء (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م) اسماعيل بن على بن محمود :

المختصر فى اخبار البشر – ٤ ج – استانة ١٢٨٦هـ .

Al-'Aini, Badr-al-Din (d. A.H. 855/A.D. 1451)

Extracts from "'Iqd al-Jumān fi Tarīkh Ahl al-Zamān. Ed. R.H.C. — H. Or., II, *i*. Paris, 1887. (pp. 181-250).

العينى (ت ٨٥٥هـ/١٤٥١ م) بدرالدين :

منتخبات من عقد الجمان فى تاريخ اهل الزمان – مجموعة مؤرخى الحروب الصليبية (المؤرخون الشرقيون) – ج٢ قسم ١ – باريس ١٨٨٧ (ص ١٨١ – ٢٥٠) .

Ibn al-Djawzi, Sibt (d. A. H. 654/A.D. 1247)

Mir'āt al-Zamān fi Ta' rikh al A'yān. Vol. VIII. Chicago, 1907 .

ابن الجوزى «سبط» (ت ٦٥٤هـ/١٢٥٧ م) :

مرآة الزمان فى تاريخ الاعيان – جـ٨ – شيكاجو ١٩٠٧ « طبع زنكوغراف » .

Ibn Kathīr, Abu'l-Fidā' Ismā'īl (d. A.H. 774/A.D. 1373)

al-Bidāya wal-Nihāya fi al-Tarīkh. 14 vols. Cairo — 1351-1358 A.H.

ابن كثير (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٣م) ابوالفداء اسماعيل :

البداية والنهاية فى التاريخ – ١٤ ج – القاهرة ١٣٥١ – ١٣٥٨هـ.

BIBLIOGRAPHY

ABBREVIATIONS

A.O.L. Les Archives de L'Orient Latin. 2vols. Paris, 1881, 1884.

G.D.F. Bongars, J. (ed.), Gesta Dei per Francos. 2 vols. Hanover, 1612.

Hist. de Fr. Bouquet, M. (ed.), Recueil des Historiens des Gaules et de la France. 24 vols. Paris, 1738-1904.

R.H.C.-H. Occ. Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Occidentaux. 5 tomes. Paris, 1844-1895.

R.H.C.-H. Or. Recueil des Historiens des Croisades — Historiens Orientaux. 5 tomes. Paris, 1872-1906.

I. ORIENTAL MANUSCRIPTS

Ibn Wāsil, Djamāl al-Dīn (d. A.H. 697/A.D. 1298)

Mufarridj al-Kurūb fi Akhbār Banī Aiyūb. 2 vols. Alexandria University Library — No. 64 Manus.

ابن واصل (ت ٦٩٧/١٢٩٨م) جمال الدين :

مفرج الكروب في اخبار بني ايوب — ٢ ج — مكتبة جامعة الاسكندرية — رقم ٦٤ مخطوط « تصوير شمس » .

Abū Shāma, 'Abd al-Rahmān B. Isma'īl (d. A.H. 665/ A.D. 1267)

Dhail al-Rawdatain fi Akhbār al-Dawlatain. 2 vols. Cairo — Dar al-Kotob — No. 993 H.

ابوشامة (٦٦٥هـ/١٢٦٧م) عبد الرحمن بن اسماعيل :

الذيل على الروضتين في اخبار الدولتين — ٢ ج — دار الكتب المصرية — رقم ٩٩٣تاريخ . « تصوير شمس » .

Al-'Ainī, Badr-al-Dīn (d. A.H. 855/A.D. 1451)

'Iqd al-Jumān fi Tarīkh Ahl al-Zamān. 23 vols. in 69 parts. Cairo—Dar al-Kotob — No. 1584 H.

All the ancient and recent historians agree :

1. That a crusade is a struggle between the Christian West and the Islamic East.

2. That it aims at capturing Jerusalem from the Moslems, and maintaining the Latin colonies in the East, so that they might serve as a base for their aims.

The crusade of Louis IX on Syria fulfilled these two conditions. Its main object was to occupy Jerusalem and keep the frankish provinces. Besides, it was a struggle between the Western Christians and the Eastern Moslems.

It is true that Louis's crusade was not a military strife, like the other ones. But it was a political and diplomatic strife, aiming at the same target. It reminds us of Frederic II's crusade in 1228 A.D., which ended in capturing Jerusalem for the Latins without bloodshed. Instead of using instruments of war, Louis applied diplomatic means in order to achieve his aim of expansion and colonisation in the territories of the Islamic Middle East [1].

1. Atiya, op. cit., 18. I discussed this new opinion in detail in my book "Louis IX in the Middle East", 340-53. I wish to take this opportunity of thanking Professor G. W. Coopland, Emeritus Professor of Medieval History, University of Liverpool, for having read my account of my sources and main conclusions in the matter of Louis's sojourn in Syria, to which he added many helpful remarks.

Keep their colonies during the half century that followed Louis's departure in 1254 A.D.

The scheme of the French King, Louis IX, came to an end when he heard of the death of his mother, Blanche of Castile, who ruled France during his absence in the East. He held a council in Sidon, in which he decided to return to the West[1]. In April 1254 A.D., he embarked from Acre, and reached his capital in September of the same year, after an absence of six years in Egypt and Syria [2].

Thus, Louis IX spent four years in Syria, during which time he tried to maintain the Latin Kingdom in the East and capture Jerusalem. Therefore, he drew up an ingenious many sided plan, with a view to realizing his aim. He first attempted to raise a military campaign which proved unsuccessful. His failure did not prevent him from exchanging embassies and establishing diplomatic relations with the Moslems, Mongols and Christians.

On these grounds, we may claim that Louis's endeavours in Syria constitute by themselves a crusade of a particular and definite nature. It is distinguished from other crusades by being a diplomatic, political and reconstructive, rather than a military invasion.

We may also conclude from these facts a new opinion in the history of the Crusades; namely that Louis IX led, not two crusades as is generally acknowledged by historians, but three, the first against Egypt, the second against Syria, and the third against North Africa. The crusade of Louis IX on Syria can be considered among the main campaigns known in the history of this movement. It is a stage in the long chain of the clash between East and West, and an era in this crusading and universal movement [3]. It brought the Islamic East in cotact with the Christian West, and had its serious effects on the course of events, not only in the Middle Ages, but also in modern times.

In order to understand this new theory, we must form a clear idea of the nature of a crusade.

---

1. Nangis, XX, 389.
2. Joinville, 338 sqq.; Emeles, II, 441.
3. Atiya, Crusade, Commerce and Culture, 19, 23 sqq.

Ismaelians with regards to the political strife between the French King and the Moslems of Egypt and Syria.[1]

It is notable that this stage sheds light on a vague epoch in the history of Christian-Ismaelian relations. We have gone through the Islamic sources, original and secondary, printed and in manuscript, but found nothing concerning the embassies between Louis IX and the Assassins of Syria. But, fortunately, the work of Joinville,[2] is considered authoritative on this point; while Rothelin[3] referred to it in few unimportant lines.

Louis's scheme in Syria extended to the Far East, the nation of the Mongols. His policy towards the Monogols aimed at winning them to the side of the Western Christians, and using them in his struggle against Islam.[4] This situation was, in fact, a continuation of the Popes' general policy.[5] Louis contacted them while he was in Cyprus, and during his stay in Palestine. André de Longjumeau was the chief of the first embassy,[6] and Guillaume de Rubruck was the head of the second[7]. But his messengers met with no success in their attempts. Though Louis's plan to form a Christian-Mongolian block aginst the Moslems proved fruitless, yet it helped to direct the interest of the West towards the Far East.

But this does not mean that the duty of the French King in the Holy Land was finished. He also paid attention to the Latin Kingdom in the East. He fortified the coastal cities, and tried to unite the Franks and their provinces, so as to be able to withstand the assaults of the Arabs[8]. As a result of this reformation, the Franks were able to

---

1. Cf. my book, "Louis IX in the Middle East", 233-4.

2. Joinville, 246-54.

3. Rothelin, II, 624.

4. Joinville, 74; Matt. Paris, II, 319; cf. Iorga, 165; Guizot, 90.

5. Atiya, Crusade in the Later Middle Ages, 233-41 & notes.

6. Joinville, 74, 258-270; cf. Rothelin, II, 569-71; Guill. de Nangis, XX, 36.

7. Atiya, op. cit., 243-6; d'Ohsson, Hist. des Mongols, II, 284-98, 303-10.

8. Beaulieu, XX, 16; Saint-Pathus, XX, 68; Nangis, XX, 385; Joinville, 306-8, 318, 336; Eracles, II, 440-1; d'Avesnes, XXI, 170.

in February 1251 A.D., in which the Ayoubites met with a great failure.[1] He then signed a treaty with the Emirs of Egypt in May 1252 A. D., which is called the "Treaty of Cesare", after the city of that name. We have no official documents, Moslem or Christian, to include the terms of this important treaty. We have, therefore, to depend on the references to it that occur in some of the original Western sources, especially Joinville, Rothelin, and Matthew Paris.[2] As for the Eastern authorities, only three of them, Al-'Aini, Ibn kathir, and Ibn Bhadur, give brief mention to it.[3] It is noticeable that it was the political situation in the middle East that determined the policy of Louis.

But, the peace between the Emirs of Egypt and Syria in April 1253 A.D., due to the interference of the Abaside Khalif, was a blow to Louis's hopes.[4] With the end of the struggle, the Mamelouks began to establish their authority in Egypt, while the Ayoubites of Syria were now able to war against Louis and the Latin colonies in the East. There were many skirmishes near Jaffa, Acre, and Sidon, in which the Arabs were victorious, and many of the Franks died in the field of battle. The French King waged a counter crusade against the Islamic city Banias, but it came to no result. Although none of these battles was decisive, yet they annoyed the Latins, and proved the weakness of their provinces. These battles help to shed light on the relations between the Moslems and the Crusaders during a dark period almost completely neglected by historians.[5]

Louis, then, tried to establish good relations with the Ismaelians of Syria, against the Sunnis in the Middle East. He negotiated with the Old Man of the Mountain, the chief of this Shiaite sect. But the negotiations yielded no treaty. It only guaranteed the neutrality of the

---

1. Ibn Wasil, II, 381 B-384 A; Ibn al-Djawzi, VIII, 519; Al-'Aini, XVIII, ii, 323-6; cf. Rothelin, II, 624-5; Eracles, II, 440; Matt. Paris, II, 482.

2. Joinville, 282-4; Rothelin, II, 628-9; Matt. Paris, II, 502-4.

3. Al-'Aini, XVIII, ii, 344; Ibn Kathir, XIII, 184; Ibn Bhadur, 170.

4. Concerning this point see: Al-'Aini, XVIII, ii, 339, Al-Makrizi, I, ii, 382-5; Joinville, 294.

5. For further details see: Annales, II, ii, 445; Eracles, II, 440-1; Joinville, 296-302, 310-8.

The attitude of both the Papacy and the Empire towards Louis during his stay in Syria is also important. Pope Innocent IV did not assist Louis, but did his best to hinder his attempts for another crusade, so that he might employ the crusaders in his struggle against the empire, according to Matt. Paris's opinion in his "Historia Anglorum".[1] And Matt. Paris's record concerning this matter is important, because he was contemporanious with Innocent's papacy, and above all he helonged to the order of the church.

In the meantime, the emperor Frederic II, the pope's rival, played a double rôle. On the one hand he assisted Louis, because he was a Christian and on good terms with him.[2] On the other hand he did his best to establish good relations with the Egyptian authorities, being an intimate friend of El-Kāmel Mohammed and his son El-Sāleh Aiyoub, so much so that Abu'l-Fidā', the Moslem historian, considered him more of a moslem than a Christian[3], while the Christians considered him a semi Christian or a half Moslem.[4] Concerning this point, we find good material in the original sources, especially the works of Joinville, Ibn Wāsil, Al-'Ainī, and Abu'l-Fidā'.

Louis's failure to raise a military crusade did not prevent him from benefitting from the political situation in the Islamic East. For the welfare of his crusading cause, the French King exploited the disputes between the Emirs of Egypt and those of Syria, after the revolution of the Mamelouks.[5] Each of the two opposed parties tried to win him to its side; but he kept neutral without adopting any definite policy,[6] until he decided to side with Egypt after the decisive battle of Al-'Abbasa

---

1. Matt. Paris, II, 388, 462-3, 498; cf. Bray, 263; Miller, Med. Rome, 75; Davis, England, 434.

2. Matt. Paris, II, 404, 426-7; Matt. of Westminster, II, 311,319; Wiegler, 261; cf. Al-'Ainī, R.H.C.-H.Or., II, i, 199-200.

3. Abu'l-Fidā', III, 148; cf. Al-'Ainī, op. cit., 199.

4. Conder, Latin Kingdom of Jerusalem, 346.

5. Matt. Paris, II, 460; Epistola Ludovici, I, 1199; Guill. de Nangis, XX, 383; Baudoin d'Avesnes, XXI, 169. Cf. also : Ibn Wāsil, II, 375 sqq.; Al-'Ainī, XVIII, ii, 319 sqq.; Al-Makrizī, Al-sulūk, I, ii, 367 sqq.

6. Joinville, 242, 254-6; Rothelin, II, 620 sq.; Guill. de Chartres, XX, 31; Guill. de Saint-Pathus, XX, 95-6.

After his defeat in Egypt in 1250 A.D.,[1] Louis voyaged to Acre, the capital of the Latin Colony in the Islamic East since the fall of Jerusalem, with a view to pursuing the campaign against the Moslems, particularly after he had found that the political situation in the middle and far East encouraging. Truly, the Latin provinces were in a feeble state, but the disputes between the Emirs of Egypt and Syria during that period, and the traditional hostility between the Sunnis and the Shiaites, gave Louis a golden chance.[2] Besides, the French King was waiting for the news of the embassy which he had sent to the Mongols during his stay in Cyprus before his campaign on Egypt.[3] All these presuaded him to stay in Palestine, and to make attempts to raise a new crusade against Islam. But his attemps proved unsuccessful, because the situation of the Christian West and the Latin East did not enable them to levy an army for a new crusade.[4]

We must also refer to the Acre council, which was held to discuss whether to return to the West or stay in the East. This council had great importance. The French king declared in it his decision to stay in Syria to defend it and realize his aim. In this council he outlined his crusading policy during his stay in the Holy Land. Joinville's record concerning this council is of great importance, because he was an eye-witness. He also expressed his idea to Louis regarding the campaign, and recorded it in his work together with the various opinions of the other crusaders who took part in the council.[5]

This leads us to another point. Before Louis took any decision concerning his policy in Syria, he used to hold a council to discuss the problems with his counsellors. He would then declare his decision, which generally agreed with the view of the majority. Unless the latter's view opposed his aim, as it happened in the Acre council, then he would carry out his decision. From this, we may conclude that Louis adopted a system which was much in advance of the age.

---

1. Cf. my book "Louis's Defeat on the Nile Banks. Cairo, 1960".

2. Matt. Paris, II, 460; Epistola Ludovici, I, 1199; Guill. de Nangis, XX, 383. Cf. also : Ibn Wāsil, II, 373B-374B; Ibn Al-Djawzī, VIII, 518; Abū Shāma, Dhail al-rawdatain, II, 207.

3. Joinville (ed. Wailly), 74.

4. Matt. Paris, I, 490, II, 65, 483, 497-8; cf. Bréhier, 226; Steveson, 331; Grousset, Crois., III, 494; idem, Sum of Hist., 178-9.

5. Joinville, 228-38; cf. Rothelin, II, 622; Epistola Ludovici, I, 1199.

THE CRUSADE OF LOUIS IX ON SYRIA

1250 — 1254 A.D.

By

JOSEPH NESSIM YOUSSEF (PH. D.)

The object of this essay is to shed light on the broad lines of the history of Louis IX, king of France, in Syria from 1250 to 1254 A.D., his achievements during that period, the plan he devised and followed to maintain the Latin Kingdom in the Holy Land, and capture Jerusalem, which had fallen in the hands of the Moslems in 1244 A. D.[1]

Louis's stay in Syria has been referred to, only in lines or parts of chapters in secondary references. We have therefore, to depend on original sources, Oriental and Occidental, printed or in manuscript. The majority of the Oriental sources have not yet been published, while most of the Latin and medieval French sources are still in their original languages.

When we come to consider the original European references, we are bound to begin with the writings of those historians and chroniclers, who were in Louis's company in Syria . Jean de Joinville, Geoffroi de Beaulieu, Guillaume de Chartres, Guillaume de Nangis and others, were then Louis's counsellors who took active part in the events of the period. On the other hand, the Oriental sources are rich in new material concerning the state of the Moslem world at the time. The most important of these are the works of Ibn Wāsil (1207 — 1298 A. D.), Sibt Ibn al-Djawzī (1186 — 1257 A.D.), and Abū Shāma (1203 — 1268 A.D.), who were contemporaries of Louis, and who give us a vivid picture of the Moslem world, and its response to and actions against Louis and the Latin West.

---

1. A book of mine appeared in Arabic, namely "Louis IX in the Middle East-Palestine's Case During the Period of the Crusades. Cairo, 1959." This book deals with the details of this plan, and the results thereof.

فيليب دى ميزيير
وهيئة فرسان آلام المسيح

للدكتور عبد الحميد صبرى محمود

القسم الأول

يعتبر فيليب دى ميزيير من أشهر دعاة الحروب الصليبية فى القرن الرابع عشر الميلادى . ولد حوالى سنة ١٣٢٧ فى قرية ميزيير من أعمال بيكاردى فى شمال فرنسا ، وكان شغوفاً بقراءة التاريخ وخاصة تاريخ الحملات الصليبية الأولى ، بالإضافة إلى قراءآته المتعددة الأخرى فى الفلسفة والدين . بدأ فيليب حياته بالعمل كجندى فى جيوش بعض الأمراء الايطاليين ، واشترك فى حملة ضد الأتراك فى سنة ١٣٤٦ . وبعد انتهاء الحملة توجه فى السنة التالية إلى جزيرة رودس ، ومن هناك إلى بيت المقدس ، حيث تولدت لديه فكرة انشاء هيئة تضم فرساناً من جميع أنحاء أوربا ، يطلق عليها اسم «فرسان آلام المسيح» ، على أن تقيم تلك الهيئة بصفة دائمة فى الأراضى المقدسة وتكون أهدافها إحياء ذكرى الآلام التى عاناها المسيح من أجل انقاذ البشرية ، واصلاح المجتمع المسيحى الغربى وانتشاله من الشرور والآثام التى استشرت فى كيانه ، ثم انتزاع بيت المقدس والأراضى المقدسة من أيدى المسلمين ، وأخيراً نشر العقيدة الكاثوليكية فى الأراضى الإسلامية .

لم يدخر فيليب جهداً لعرض فكرته هذه على ملوك وحكام أوربا ، وكان أول من استجاب لفكرته بطرس الأول دى لوزنيان ملك قبرص فقاما معاً بجهود تمخضت عن تكوين حملة استولت على الاسكندرية فى سنة ١٣٦٥ .

عرض بطرس على فيليب أن يخصص له ثلث ايرادات ومكوس المدينة لإنشاء هيئة الفرسان هذه ظناً منه أن المدينة ستظل بأيديهم إلى ما شاء الله . ولكن حدث أن قرر قواد الحملة الآخرون الانسحاب من المدينة بعد أسبوع واحد من الاستيلاء عليها ، وقد جاء هذا القرار مخيباً لآمال فيليب وفي نفس الوقت زاده اقتناعاً بضرورة تكوين هيئته ، إذ رأى أن المشتركين في الحملة لم يكن همهم من الأمر سوى الأسلاب التي غنموها من نهب المدينة . على أية حال ، وضع فيليب مشروعه الأول للهيئة حوالى سنة ١٣٦٨ ثم أضاف اليه في سنة ١٣٨٤ مشروعاً ثانياً يتضمن شرحاً لأهدافه والمزايا التي تعود على المسيحية من انشاء تلك الهيئة ، ثم اختتمه بمجموعة من القوانين والنظم التي يجب أن يهتدي بها الفرسان في حياتهم . وتحتوي المخطوطة اللاتينية المحفوظة بمكتبة مازارين بباريس على هذين المشروعين .

على أن فكرة تكوين هذه الهيئة لم تغب لحظة عن بال فيليب ، وقد حدث أن أعلنت الهدنة بين فرنسا وانجلترا ، فاعتقد فيليب أن الفرصة قد سنحت لكي يجدد دعوته ، فوضع مشروعه الأخير — بالفرنسية هذه المرة — في سنة ١٣٩٦ قبل موقعة نيكوبولس بشهور قليلة . وهذا المشروع الأخير هو موضوع المخطوطة الموجودة بمكتبة الأرسنال بباريس . وهناك مخطوطة ثالثة موجودة ضمن مجموعة أشول بمكتبة البودليان بأوكسفورد ، غير معروفة التاريخ ، ضمنها فيليب موجزاً للأسباب التي تدعو لضرورة انشاء هيئة فرسان آلام المسيح والقواعد والنظم الخاصة بها . والمخطوطات الثلاث لم تنشر بعد والكلام عنها وتحليلها وعلاقة كل منها بالأخرى هو موضوع القسم الثاني من هذا المقال .

industry, on matters domestic and foreign and addressed himself directly to those two princes on whom at times the hopes of so many were fixed—Charles VI of France and Richard II of England.

But the main theme to which Philippe de Mézières consecrated almost the last four decades of his life and around which most of his literary activity was centred, was the foundation of the new Order of Chivalry of the Passion. Already in 1384 Philippe added to his first plan of 1367-8 the so-called second redaction. Again, the establishment of peace between England and France twelve years later seemed opportune to Philippe to renew his appeal for the foundation of the Order. Thus in 1396, a few months before the battle of Nicopolis, Philippe wrote what is known as the third redaction of his treatise on the Chivalry of the Passion.[1] News of the defeat of the Christian army at Nicoplis reached Paris on Christmas eve the same year [2]. The following year Mézières wrote his last work *L'Epistle lamentable et consolatoire.*

Nothing is known of the last eight years of Philippe's life. He died in his retreat at the Convent of the Celestines in May 1405. By his last will of April 1405 he left all his possessions to that House, and was buried in the Chapel which he had built there years before. The Church of St. Denis still possesses the gilded copper plaque which was at one time fixed above his tomb. It contains the words, 'O beati patres Celestini, divini sacerdotes Dei altissimi, mementote, obsecro, mei, zelatoris vestri, Philippi, quondam cancellarii Ciprì nominati'.[3]

---

1. The sources of Philippe's new Order of the Passion are the subject of Part II of this article to be published later.

2. Atiya (A.S.), 'The Crusade of Nicopolis', London, 1934, p. 101.

3. Jorga, op. cit., p. 512 n. 2.

regularly, distributed the King's alms,[1] and accompanied him to Beauté-sur-Marne. In the autumn of the following year, he travelled with the Duke of Anjou to Avignon, and probably carried out Charles V's orders in attempting a reconciliation between the young Pierre II of Cyprus and the Genoese. After his return to Paris to report the failure of his mission, another of the numerous gaps in the record of his life occurs, and on the evidence so far available, no statement can be ventured as to his movements to the end of 1376. He was back in Paris in January, 1377, and spent the following twelve months in the city. It was perhaps at this time that he was made tutor to the Dauphin, the future Charles VI. [2]

When Pope Gregory XI died in 1378, the cardinals met in Rome on 9 April and elected Urban VI as the new pope. In September of the same year they declared the election invalid as having been made under duress and proceeded to elect Cardinal Robert of Geneva, who took the name of Clement VII and promptly returned to Avignon. Along with the rest of the world, including the King of France and the University of Paris, Mézières accepted the election of Urban VI; but on the 16th November of that year Mézières was almost certainly present at the great assembly at which Charles V gave his support and that of France to Clement VII. Philippe de Mézières stated in the *Songe du Vieil Pelerin* the reasons and the various arguments which had influenced him in this transfer of allegiance. [3]

From the opening of the Schism to the death of Charles V in 1380, Philippe was not far from the King. He was almost certainly present at his deathbed. The King's death meant a change in Philippe's position as well as in that of many of his influential friends. He himself henceforward, as he tells us, [4] withdrew to the Celestine Convent in Paris. His large literary output in the last twenty five years of his life is a reflection of the events, the hopes, the fears and the failures of those years. He wrote, with almost incredible

---

1. Jorga, op. cit., p. 423 n. 5.

2. Songe du Vieil Pelerin, I, f. 2 v. 1: '... marchander a ung Faulcon Pelerin Blank au bec et piez dorez, qu'il a norry et apprivoyse et duquel il a este premier fauleonner.'

3. ibid., f.113 v.; cf. Jorga, op. cit., p. 437.

4. Nova Religio Passionis, f. 46 v. 1: '... feci quemdam saltum, videlicet de curia regum, de valle liliorum ad montem celestinorum..'

in which the Christian princes were reproached for their indifference to the fate of the Holy Land, and the second his *Vita S. Petri Thomasii* referred to above.[1]

Finally after further negotiations or attempted negotiations with the Venetians, the end of all hopes came with the assassination of Pierre I de Lusignan on January 17, 1369, and the murder or imprisonment of his friends. This tragedy marked a turning point in Philippe's life. He ceased to be an active crusader and henceforward he was to deal with the Christian world through his writings. He lived in close seclusion for a while in Venice, and for the next two or three years almost disappears from our view.

At the beginning of 1372 Philippe left Venice for Avignon, where he pronounced a discourse on the occasion of the election of Pope Gregory XI. He remained in Avignon in close touch with the new Pope probably until early in 1373, when he was summoned to the court of France. As he rode to Paris he carried with him the knowledge derived from nearly thirty years' experience of men and cities. At the age of forty-six he was to transfer his affection and allegiance to the King of France. He had abandoned nothing of his hopes and plans, but they were to centre now in the House of Valois.

The first mention of Mézières in Paris occurs in documents of May 1373 which speak of him as King's Councillor, in which he is granted a pension of twelve hundered livres a year and the gift of two houses adjoining the Palace of St. Paul. The act of donation mentions the services that Philippe had rendered to the King in 'many and various ways'.[2] No clue appears to exist as to what these services were, or when they were rendered, but it seems permissible to deduce that May 1373 was not the time of the first meeting between King and Councillor. It is clear that Mézières continued to serve Charles V (1364-1380), as in October 1374 his name appears in the list of those chosen by King the to advise the Queen and the King's brothers in the event of a regency at the King's death.[3] He attended council meetings

---

1. This work was printed by Henschen in *Acta Sanctorum*, under 29 January.

2. Archives Nationales JJ 106, No. 102, cf. Jorga, op. cit. p. 421 n. 6: 'En consideration des bons et très agréables services que nostre bien-aimé.. Philippe de Maisières..nous a faiz..en pluseurs et diverses manières et fait encores chascun jour.'

3. Jorga, op. cit., p. 423 n. 4.

Pierre Thomas died at Famagousta on 16 January, 1366, and it was for Philippe that Thomas called on his deathbed. His *Life* of his friend and spiritual father, written in 1366, remains to this day the chief record of the career of Pierre Thomas.

The complexity of Near Eastern politics is shown in the months that followed. About the end of June, Mézières again travelled to Europe, carrying messages to Christian princes announcing his master's intention of launching another crusade and asking for aid. But to the Venetians, occupied with projects for renewed trade in the Levant, and to Pope Urban V, beginning to consider the possibilities of a return from Avignon to Rome, such letters were an acute embarrassment, and their bearer unwelcome.

Philippe, however, was undismayed by the Pope's decline to sponsor another crusade. He made his plans for a second tour of the courts. He also thought of gaining adherents for his Order of the Passion. If it was difficult to find volunteers to join the service of his King, at least the Order, if founded, would champion his master's projects. So in 1367-8 he drew his first plan for the foundation of the Order which, he was careful to point out long afterwards, had not been hastily thought of in some London or Paris tavern.[1] Meanwhile Pierre I de Lusignan carried out successful attacks on the coast of Syria, and inflicted serious damages on the Sultan of Egypt, Al-Ashraf Sha'ban (1363-76).

On his second tour of the courts, Philippe visited Castile and Aragon, and perhaps Portugal, carrying out hazardous journeys,[2] which for extent and danger may be compared with those of the Apostle Paul whom he was so found of quoting. To this period also belong, apart from his correspondence, two works of importance. One, now lost, was a *Lamentatio super Jherusalem de Negligentia Christianorum*,[3]

---

1. Chevalerie de la Passion, f. 13 v.: 'Et ce soit dit a la doubtance de Dieu et grant reverence, amour et aucune enformacion des vaillans chevaliers du temps present, qui ont devocion a la sainte Chevalerie du benoit Filz de Dieu et ne sont pas du temps cy-dessus recite, afin qu'ilz aient clere congnoissance que ladicte Chevalerie n'a pas esté trouvee de nouvel ne songie en la taverne a Paris ou a Londres.'

2. Jorga, op. cit., p. 346.

3. Philippe made reference to this lost work in his Nova Religio Passionis, f. 20 r. 2: '... quia memini me in Libello Lamentacionis Jherusalem de negligencia Christianorum latius scripsisse, and in La Chevalerie de la Passion, f. 53 v. '... car il me souvient que en un petit volume intitule la lamentation de Jherusalem de la negligence des crestiens j'en ay escript assez largement.'

too that he journeyed north, though whether in company with his royal master or not is doubtful. Probably it was also in this year that Philippe made a visit to the Scandinavian countries.

On his return to Venice at the end of 1364, he found disappointment again. The rebellion in Crete had occupied the Venetians, and crusaders assembled in Venice had made the long delays an excuse to return to their homes. Further complications arose from the quarrel between the Genoese and the Prince Regent of Cyprus, and Philippe may have accompanied Pierre Thomas to Genoa early in 1365.

However, the main outcome of the tremendous efforts of the three personalities — Pierre I, our author and Pierre Thomas — culminated in the crusade against Alexandria in 1365. The city was captured and sacked to the amazement of the Western world. Pierre de Lusignan in the presence of his barons, knights and the Pope's legate, offered Philippe one third of the revenues of the city for the foundation of the new Order of Chivalry of the Passion.[1] But the singleness of purpose of the King, of Pierre Thomas and of Philippe de Mézières found no reflection in their followers. The campaign ended in the withdrawal of the Christian host after days of senseless slaughter and pillage. The whole episode must have added to Philippe's store of experience. It was clear to him that the crusaders who took part in the attack on Alexandria were motivated by greed rather than devotion to the cause; knights and warriors of the new Order, therefore, were to take no heed of the booty acquired from the enemy, because it would be distributed among them, each according to his merit, by wise and honest members of a council according to the holy Rule of the Order.[2]

---

1. Chevalerie de la Passion, f. 17 r.: '.. le vaillant roy Pierre de Lizingnen ledit vendredi au vespre, a grant repos et a grant joye estant en son hostel en Alixandre, appelle la douane, en presence du benoit legat du pape de Romme et de ses barons et chevaliers, plainement donna, pour le commencement de la Chevalerie mectre sus, la tierce partie de toute la cite d'Alixandre..'

2. ibid. f. 89 r. '.. nos chevaliers et combatans au pillage et aus despoulles des anemis comment qu'il soit arester ne porront en laissant leurs baniers sur paine de tres grief coulpe, mais ceux qui par les presidens seront ordenes et non autres requelleront les despoulles apres la victoire sans regart et avarice. Et tout sera requelli a l'utilite de la chose publique de nostre sainte Chevalerie, laquelle despoulle et proie des anemis en l'ost et a repos sera divisee et departie, et aucune fois non, par certains esleus du conseil, sages et prodommes et sans avarice, as combatans du crucifix, selonc le merite de chascun, tenant la sainte regle ..'

the courts of Europe,[1] usually with the object of gaining converts to the plan of a crusade of which his King should be the leader. In the years 1361-4, when Pierre I was touring Europe[2] to seek support for the crusade, Philippe and Pierre Thomas, after a stay in Avignon in which they won over Urban V to their cause, visited Milan, Bologna, Venice and other Italian cities, exhorting, preaching, settling local differences, and more often than ever they were disappointed at the lukewarm reception given to their main mission.[3] In 1363 Philippe and Pierre Thomas were deputed to arbitrate in the old quarrel between Bernabo Visconti, the tyrant of Lombardy, and the Church.[4] This was a delicate business and brought Philippe into the full stream of Italian politics, and what French envoys had failed to do was now achieved by Philippe and Pierre Thomas. An obstacle to the crusade had been removed and Philippe was free to preach the movement in the towns now restored by Bernabo to the Church.

The year 1364 was a full one for Mézières. We know of his presence in Venice, without whose aid in ships no crusade was possible, and in Milan, where he addresses a letter to Amadeus of Savoy, imploring him not to postpone the crusade.[5] It was in this year

---

1. Chevalerie de la Passion, f. 17 v. : 'le povre Ardant Desir pour celle mesme cause,.. avec le dit roy et sans sa presence, especial messagier de sa magnanimite royale, par XV ans ou environ continuelment ne fist autre chose que d'aler d'orient en occident, de midi en septentrion, a pape Urbain et a pape Grigoire, aux roys desses diz et a pluseurs autre, aux grans princes et communes de la crestiente Catholique ..'

2. ibid. ff. 16 v.—17. r. : 'Encores le vaillant roy, en pourchassant le saint passage et la saiinte Chevalerie, en propre personne visita Charles, roy de Behaigne et Empereur de Romme, le vaillant roy de Hongrie, le roy do Poliane, les roys de France, Jehan et Charles, le roy Edouart d'Angleterre, et aussi comme toutes les régions d'Ocident, en demandant partout aide. Et principalment il fut a la présence du benoit pape Urbain quint..'

3. Ibid., f. 17 v. : '.. Ardant Desir, a grant travail et perilz sans nombre et du corps et de l'ame, une foiz triste, l'autre foiz en joye, une foiz conforte, et cent foiz desconforte, l'une foiz honnouré et pluseurs foiz degabe ..'

4. On the whole episode of the war between the Church and the tyrant of Lombardy, vide Jorga, op. cit., pp. 206 - 229.

5. Jorga, op. cit., p. 241.

Philippe may have left Cyprus for the West some time in 1349. We are uncertain as to his movements in the next few years. In 1354 he appeared at Pontorson in Normandy, serving under Arnoul d'Audrehem, marchal of France.

Pierre I was crowned King of Cyprus on his father's abdication in 1358, and in April 1360 was crowned King of Jerusalem. This marked an important stage in Philippe's life. At the age of thirty three he returned to Cyprus to resume his connection with Pierre and at the same time to meet one of the most extraordinary figures of the fourteenth century, the Carmelite Pierre Thomas. He was as zealous for the crusade as was Philippe himself, and in May 1359 was appointed by Innocent VI (1352-62) Legate to the East and commander of the forces which were then setting out to the help of Constantinople, and it was he who crowned Pierre as King of Jerusalem at Nicosia. Three men of character were met and the times were opportune. Philippe's position was made official by his appointment as Chancellor of Cyprus, an office which he held until Pierre I was assassinated in 1369.

Philippe was now placed in a region which was the link between East and West. His relations with traders, Saracens and Cypriot knights who fought against the Muslim under Hugues IV and his predecessors proved very useful. They provided him with ample and precise information about the conditions in Egypt, Syria, Turkey and about the Tatars.[1]. Emissaries from the rulers of Egypt and other princes of Islam, as well as from the world of the West, came to the island on missions of peace or war. Ships laden with the produce of the East sailed into the ports of Cyprus; crusading expeditions used the island as their last base for attacks on Asia Minor and Syria. All this and much more furnished the store of recollection and experience on which Philippe was to draw in his later period of literary activity.

It must be admitted, however, that our Chancellor seems to have spent much of his time away from Cyprus. He visited most of

---

1. Epistre lamentable et consolatoire. Ed. Kervyn de Lettenhove, in Froissart, vol. XVI, Bruxelles, 1872, p. 508.

He had seen the strength of the Ottomans which they owed to their military organisation in contrast with the Christians' weakness which was due to their unruliness and insubordination. The Turkish Amirs of the coast of Asia Minor kept excellent and well disciplined troops permanently under their command. The Sultan of Egypt together with his Mamluk forces was capable of resisting the Christian armies. Tremendous efforts had hitherto been wasted by Christians to liberate the Holy Land from Muslim hands. But this task, in Philippe's view, was not a difficult one. If the chivalry of the West had failed to unite for this cause on account of their selfishness and worldly glory, if Armenia and Cyprus were incapable of undertaking this mission, and if the older Orders of chivalry had lost their former zeal, there was still a way to build up a Christian army in an unprecedented manner which should be worthy of its name. A new Order of chivalry, well organised, sufficient in number, and free from all worldly preoccupations and vices [1] should be founded to bring knights back into ways pleasing to God and lead a reorganised and regenerated Christendom to the delivery of the Holy Land.[2]

After his visit to the Holy Land, Philippe sailed to Cyprus where relations with the Lusignans were established. Hugues IV (1324-1359) showed some interest in the idea of a crusade considered as a defensive measure. But it was his second son, Pierre the Count of Tripoli, some two years younger than Mézières himself, who was to share to the full his fervour for action in the East. On the death of his elder brother, Guy, in 1346, Pierre was assured of succeeding his father to the throne of Cyprus. This fact prompted him to think of ways and means which would enable him later on to reconquer the Holy Land. He founded his Order of the Sword which included knights from France, Spain, Rome, Lombardy, Germany and Sardinia.[3]

---

1. Nova Religio Passionis, f. 16 r. 2: 'Manifesta sunt etenim tria peccata principalia in Christianos diu dominancia, videlicet superbia, avaricia et luxuria'.

2. Ibid., ff. 8 v.2 — 9 r. 2 : members of this Order were to observe: 'votum obediencie sancte .., votum pauperitatis spiritus,..sacramentum castitatis.., nostra sancta religio aliud votum quodam est summe perfectionis habebit.'

3. The fourteenth century was marked by the foundation of many orders of chivalry in Europe; cf. Iorga, op. cit., pp. 83-85.

Land and to listen to the stories of pilgrims who had returned thence. He also heard stories about the East where many of his compatriots had become rich and powerful.

In 1345, at the age of nineteen or so, he left his village to begin a career of astonishing variety with a few months' service under Lucchino Visconti (+ 1349) in Lombardy. Later in the same year he was among the followers of King Andrew of Naples when that monarch was assassinated. Philippe's experience of war and of living among undisciplined and unruly 'gens d'armes' must have left an impression of horror on him. He speaks of 'fatigue, hunger, night watches, innumerable wounds, poverty, ambush, danger of losing one's life on sea or on land, and a thousand other ways of death which is the apanage of this vain military profession.' [1] He blames himself for not distinguishing between just and unjust war; the former is the kind of war to be fought in defence of one's country, one's faith, in defence of the Church, widows, orphans or in defence of justice and equity.[2]

It is certain that Philippe fought under the Dauphin, Humbert II, in the battle of Smyrna in 1346, and in one of the following battles against the Turks he was knighted.[3] His experience on this expedition brought disillusionment, and with it the beginning of a resolution to devote himself to the cause of the crusade. After the campaign of Smyrna was over, Philippe accompanied Humbert II to Rhodes, and from there made his way to Jerusalem in 1347. It was in the Church of the Hoy Sepulchre that the idea was born in him of founding a new Order of Chivalry to replace the older Orders.

---

1. Oratio Tragedica, Bibl. Mazarine MS. 1651, f. 155: 'Labores, jejunia, vigilias, vulnera plurima, paupertates, insidia et mortis pericula in mari et in via, et mille mortes apparentes, tali vane milicie aderentes', cf. Jorga, op. cit, p. 65 n. 9.

2. ibid. ff. 154 v.—155: 'prout tu, veterane, aliquando fecisti, non ventillando prius utrum bellum justum indictum fuerit, videlicet pro republica, pro fide, pro ecclesia, pro viduis et orphanis, pro equitate et justicia'; cf. Jorga, op. cit, p. 65 n. 3.

3. Chevalerie de la Passion de Jesus Christ, Bibl. Arsenal MS. 2251 f. 13 v.: 'le Dauphin de Vienne lors estant a La Sulure (Smyrna) et assez tost apres en une autre chevauchie et envaie des Turs le jeune et povre Ardant Desir avoit la pris l'Ordre de chevalerie duquel il n'estoit pas digne.'

PHILIPPE DE MEZIERES
AND
THE NEW ORDER OF THE PASSION

By

ABDEL HAMID HAMDY

PART I.

Philippe de Mézières, the author of the treatise known as the *Nova Religio Passionis* or *La Chevalerie de la Passion Jhesu Crist* is perhaps one of the most cultured and prolific writers of the fourteenth century in the West.[1] His works reveal a wide knowledge of ancient and contemporary philosophy, theology and history. Throughout his career, he never lost sight of his aim, nor indeed, did he spare any effort to bring about the foundation of his Order of the Passion.

For the purpose of this article, we propose to sketch briefly those aspects of Philippe de Mézières's life which relate to his plan for the foundation of this new Order.[2]

Philippe was born in the village of Mézières in that part of Picardy called Santerre about the year 1327. His family was noble but declined in fortune. Philippe tells us that he was the youngest of twelve brothers and sisters.[3] He was educated at the Canons' School at Amiens and was eager to read chronicles dealing with the Holy

---

1. For a complete list of his works, see N. Jorga, 'Philippe de Mézières', Paris, 1896, pp. VII-VIII. The ascription of the 'Somnium Viridarii' (1376) by Jorga to Philippe de Mézières is erroneous. For the literature on this point, see G.W. Coopland, 'Nicole Oresme and the Astrologers'. Harvard University Press, 1952, preface.

2. For a detailed biography of our author, see N. Jorga, op. cit., passim,

3. Nova Religio Militie Passionis Jhesu Christi pro acquisicione Sancte Civitatis Jherusalem et Terre Sancte, Bibl. Mazarine MS. 1943, f. 45 r. 2. 'Ecce Philipinus vester duodecimus suorum fratrum et sororum'.

أوهام الثراء عند الأدباء: بلزاك ولامارتين

لطفى فام

ملخص :

لقد ألفنا عند دراسة الأدباء أن نعرض لنواحى مجدهم الأدبى فحسب . ونمر مروراً سريعاً ، بل نكاد لا نكترث مما تعرضوا له فى حياتهم من صنوف الفشل وألوان الاخفاق فى تحقيق آمالهم . غير أن هذه الصدمات لا تمر بحياتهم دون أن تترك لها صدياً عميقاً فى نفوسهم لا يلبث أن ينعكس على انتاجهم الأدبى ، الأمر الذى يحتم علينا ألا نغفل هذه الأحداث حتى نتفهم أعمالهم الأدبية فهما سليما .

وقد يبدو غريباً أن نجمع بين «بلزاك» و«لامارتين» فى دراسة واحدة ، فهما يختلفان تماماً فى المظهر وفى كثير من الطباع . إلا أنه تجمع بينهما ظروف متشابهة مرت بحياة كل منهما .

فالأول — وأعنى «بلزاك» — كان يحلم بالمجد والشهرة والثراء ، تماماً مثل «لامارتين» ، فى شبابه . وطرق جميع الأبواب ليحقق حلمه هذا فأخفق ، وكان يطارده دائماً شبح الفقر وتؤرقه هموم الديون . فحاول أن يعمل كناشر ثم صاحب مطبعة ثم صحفى ثم مؤلف مسرحى . وبعد أن أعياه الفشل أنكب على كتابة القصص فلمع نجمه وجاءت قصصه دراسة صادقة للمجتمع على ضوء ما اكتسب فيه من خبرات .

وكذلك الحال مع «لامارتين» . فقد حاول أن يشتغل بالسياسة وانتخب فعلا نائباً فى البرلمان الفرنسى سنة ١٨٣٤ ثم عضواً فى حكومة الثورة سنة ١٨٤٨ وتقدم لانتخابات رئاسة الجمهورية بعدئذ فخذله مواطنوه

ومن ثم اعتزل السياسة – ولما كان مثقلا بالديون مثل « بلزاك » شرع يطرق سبل الأثراء عن طريق التجارة فأخفق ، وحاول فى رحلته الأولى إلى الشرق سنة ١٨٣٢ أن يستثمر مساحة شاسعة من الأراضى الزراعية قرب منطقة « صور » فلم يفلح ، وأعاد الكرة فى رحلته الثانية إلى تركيا سنة ١٨٥٠ ففشل وأخيراً أدرك أنه خلق أديباً – مثل « بلزاك » – لا رجل أعمال أو سياسة .

وهكذا اقتادت أوهام المجد والثراء كلا من « بلزاك » و« لامارتين » إلى فشل كشف لهما عن طبيعة استعدادهما وعبقريتهما الأدبية . كما أثر هذا الاخفاق تأثيراً عميقاً فى إنتاجهما الأدبى .

Mais, il fallait grouper des actionnaires, trouver des gens disposés à souscrire à l'opération — et les souscriptions ne venaient pas. Se méfiait-on du régime politique de l'époque? Manquait-on de confiance en Lamartine déjà très endetté ? Toujours est-il que ce fut un échec complet. Les entrepreneurs s'adressèrent donc aux Anglais qui se montrèrent, au contraire, très tentés par l'entreprise. Malheureusment, le Sultan interdit l'entreprise, reprit Burgaz-Owa et on remplaça la donation par une pension de 100.000 paistres pendant 24 ans. Cette pension n'allait pas tarder à devenir toute théorique car au bout d'un certain temps, elle ne lui sera plus payée régulièrement.

Perpétuellement traqué par ses créanciers, Lamartine se décida, en 1852, à devenir son propre éditeur. Quelques cœurs sympathiques envoyèrent des souscriptions à ses *Œuvres Complètes* et plus tard au *Cours Familier de Littérature*, mais d'autres se moquèrent cruellement de lui. Louis Veuillot attaquant ce qu'il appelle "son mercantilisme littéraire", imagine un dialogue entre lui et l'auteur des *Méditations* "Que faites-vous, Monsieur de Lamartine ?". — "Je médite ! "

L'Etat propose à Lamartine le remboursement de ses dettes. Mais, dignement, il refuse, ne voulant devoir leur liquidation qu'à son travail et à sa plume.

Il lutte, travaille jour et nuit, essaie de lancer une loterie nationale avec le concours de ses amis mâconnais, vend à vil prix Monceau puis Milly et termine sa vie dans une sombre misère qui n'a jamais manqué de noblesse ni de dignité.

Toute sa vie, il fut victime de sa nature généreuse et rêveuse, victime d'illusions dans lesquelles il se complaisait. N'a-t-il pas écrit, dans *le Tailleur des pierres de Saint-Point* :

"Le brouillard est aux montagnes, ce que l'illusion est aux sentiments: il les agrandit".

Toutes ces faiblesses dont furent victimes Lamartine aussi bien que Balzac n'excluent pas la grandeur.

Et cela nous rappelle le mot d'un roi de France à un ambassadeur : "Votre maître n'est-il assez grand pour avoir quelques faiblesses?"

Lamartine, aussi bien que Balzac, étaient assez grands pour avoir quelques faiblesses.

"Ayant passé la moitié de ma vie dans les champs, je suis au courant de tous les procédés agricoles. Je voudrais donc, Sa Majesté Impériale daignant me faire don d'une propriété, y créer une ferme dont je dirigerais l'exploitation. Il faudrait aussi qu'elle contînt au moins cent cultivateurs.

"L'emplacement que je souhaiterais le plus à cet égard serait du côté d'Ismed, non loin de Marmara, ou bien dans les environs de Smyrne, car de cette façon je ne priverais pas ma femme des distractions de Constantinople".

Le Conseil des Ministres turcs, flatté de la demande du poète, lui concéda la plaine de Burgaz-Owa, à 8 ou 10 heures de cheval de Smyrne, plaine qui couvre 20.000 hectares, et qui comporte des bourgades, des villages, des champs, un fleuve et surtout des étangs où la pêche aux sangsues était particulièrement fructueuse.

Le firman, daté de 1849, lui accorda l'exploitation de ces terrains pour une durée de 25 ans et élevait le poète au rang de "Pacha Franghi". Il s'embarque en juin 1850 pour faire connaissance avec ses nouveaux Etats.

Il croyait voir son salut dans l'exploitation de son royaume par une compagnie capable d'assurer à la fois les capitaux et le rendement.

Il se mit donc à sonder des banquiers, à chercher des commanditaires en leur faisant miroiter cette entreprise comme une affaire unique.

Autant on l'admirait comme poète et comme orateur, autant on se méfiait de lui et à juste raison, comme homme d'affaires. D'ailleurs, il proposait volontiers aux banquiers et aux compagnies de sérieux avantages d'argent, mais il entendait préserver son autorité et rester le maître dans les conditions les plus absolues. Alors, on se décidait de moins en moins ! Dans le traité signé avec les banquiers, il tint à souligner qu'il était le "seul maître du pays, le seul responsable vis-à-vis de la Sublime Porte de l'Administration des villages, et, dans le cas de contestations et de difficultés entre les habitants, seul arbitre et juge souverain".

La Cie concessionnaire devait lui verser, pour la mise en marche de l'affaire, la somme de 220.000 frs. et lui assurer une rente annuelle de 3 francs par hectare, c'est-à-dire une soixantaine de mille francs.

N'ayant aucune disposition pour le commerce, il n'entendait absolument rien à la comptabilité. Par exemple, quand on feuillette des carnets où Lamartine consignait ses poèmes, on rencontre souvent de fort curieux calculs, car il apportait le plus grand soin à faire le compte de ses vers. En face du poème intitulé le *Génie*, dans les *Méditations*, on constate qu'il y a une multiplication. Douze strophes de dix vers, combien cela pouvait-il donner de vers ? Grave problème ! Il lui fallut cette opération si précieusement rédigée pour savoir que cette ode comportait 120 vers.

Avec de pareilles aptitudes, on s'attend au genre d'affaires qu'il pourra faire ! Ainsi, il achetait du vin au comptant, fort cher, et le revendait à crédit et bon marché. Excellente recette pour réussir dans le commerce !

Sa bonté de cœur, jointe à ses habitudes de patronnage et de grand seigneur le poussèrent à acheter autour de Saint-Point ou de Mâcon, toutes les vignes que des propriétaires ruinés venaient lui offrir; et il les payait sans voir et sans discuter. Il allait plus loin même, il lui arrivait d'acheter en bloc, dans le Mâconnais, des récoltes sur pied, convaincu qu'il faisait une spéculation magnifique, et qu'il en revendrait le produit facilement et avec un grand bénéfice en France et même en Amérique. Il n'en fallait pas tant pour tarir sa fortune et celle des siens.

Endetté, ruiné, il se tourne de nouveau vers l'Orient, l'Orient où il désirait "vieillir et mourir".

"Je rêve, écrit-il en 1840, de me retirer dans l'hospitalité de l'Orient. L'homme y est noble. La politesse y est à un degré de religion et de solennité. L'âme y est grave, profonde et contemplative. Ils ont à la bouche des proverbes divins. Ils parlent Job et Salomon".

Déjà, le 24 avril 1849, il avait adressé une demande au grand vizir turc Rachid Pacha :

"J'ai constaté la nécessité de m'expatrier pour gagner ma vie à l'étranger .. Ma prédilection et mon affection pour les Ottomans, connues de vieille date, et l'appréciation dûment acquise, au cours de mon voyage, de leurs qualités morales, ainsi qu'en font foi les livres où je les ai consignées avec de vifs éloges, vous sont connues. J'éprouve donc le désir d'aller m'installer parmi eux.

Outre ses libéralités multiples, Lamartine croyait avoir, tel Balzac, le génie des affaires. Il était sûr de sa capacité financière, de son génie spéculateur. Il a dit un jour, à l'un de ses amis, Grenier, et et fort sérieusement :

"Je n'ai jamais étudié que deux choses : l'économie politique et les finances".

"Il y a longtemps, dit-il à Legouvé, que je connais ma capacité comme homme pratique. Le monde ne veut pas y croire, parce que j'ai fait des vers. Encore s'ils étaient mauvais !.. C'est ce qui me perd .."

A en croire Legouvé également, Lamartine aurait dit au fils d'un de ses amis : "Jeune homme, regardez-moi bien, là au front.. et dites-vous que vous venez de voir le premier financier du monde .."

Lamartine se croyait également un grand vigneron. Son secrétaire Ch. Alexandre nous raconte que Lamartine lui a dit un jour : "Je ne suis pas poète, je suis un grand vigneron".

Il écrivait également à Girardin : "Je suis un grand administrateur de terres et de vignobles".

La renommée que l'on reconnaissait à un homme de lettres ne l'offusquait pas; mais le titre de premier viticulteur de France, accordé à un Duchâtel le taquinait :

"Ce n'est qu'un amateur, disait-il, moi, je suis un cep de nos collines".

Puisque nous sommes au chapitre des compétences, ajoutons que Lamartine avait une haute opinion de son talent d'architecte :

Un matin à Saint-Point, montrant avec complaisance à un visiteur un petit portique affreux, d'un coloris criard, formé de deux colonnes appartenant à deux styles différents, Lamartine déclare :

"Mon cher, dans 50 ans, on viendra ici en pèlerinage; mes vers seront oubliés, mais on dira : "Il faut avouer que ce gaillard-là bâtissait bien !".

Evidemment, on ne le prenait pas au sérieux, mais ces illusions l'entraînaient à entreprendre des affaires ruineuses qu'il s'obstinait à poursuivre en dépit d'échecs multipliés.

Son choix s'arrête finalement sur "la Plaine de Tyr, aujourd'hui Sourre". Nous avons eu la chance de fouiller dans les malles de Lamartine conservées au château de Saint-Point et d'y trouver, en 1949, un manuscrit autographe fort intéressant. Ce texte est intitulé :

"Documents sur un Projet de concession dans la plaine de Tyr-Sourre en Syrie, 1833."

Sur 13 feuillets de grand format s'étendent articles, clauses, projets, calculs concernant l'exploitation de 20.000 hectares pendant une période de 50 ans qui devait commencer le 1er octobre 1834. Lamartine se laisse bercer par la douce espérance d'économiser "deux cent mille francs" par an. En évaluant ce domaine à 2 millions, il pense s'assurer ainsi "quatre millions au bout de dix ans" (1).

Rêves de poète ! qui ne vont évidemment pas se réaliser. D'ailleurs, la mort de sa fille unique Julia interrompt prématurément son séjour au Liban.

Il rentre en France endetté, ruiné, ce qui ne l'empêchera pas de continuer à se montrer généreux, charitable. Aussi toute misère vraie ou fausse s'adressait-elle à Lamartine; et Mme de Lamartine avouait en 1848, à un ami, que leurs aumônes en quelques mois avaient dépassé cent mille francs. Et lorsque Lamartine n'avait pas d'argent, il trouvait le moyen d'offrir discrètement quelque chose. A titre d'exemple, je raconterai l'histoire d'un jeune poète malheureux, qui était allé lire ses poèmes de débutant à Lamartine. Celui-ci l'encourage, lui donne un mot de recommandation auprès d'un éditeur et le reconduit jusqu'à la porte. Le jeune homme le remercie timidement, relève le col de sa veste pour se protéger du froid qui l'attend dehors. En un clin d'oeil, Lamartine prend son propre pardessus, pendu à l'entrée, et le met sur les épaules de ce jeune homme qui lui dit, d'un air étonné : "Mais, ce pardessus n'est pas à moi, Monsieur de Lamartine !"

— "Il est sur vos épaules, lui répond Lamartine en souriant, donc il n'est plus à moi ! "

---

1. Voir Lotfy Fam, *Le Voyage en Orient* de Lamartine, édition critique, Paris, Nizet, 1959, in 8°, 543 p. (pp.464-473).

Trois jours après, il invite Virieu à partager ce plan de fortune agricole. Il lui écrit : "Il y a vis-à-vis de Livourne, une petite île de six lieues de tour, nommée la Pianozza, qui est inculte et n'appartient à personne. Elle est très fertile cependant; mais les Italiens n'en savent rien, ou ne s'en soucient pas. Nous en demandons la concession. Nous réunissons tout l'argent que nous avons : cela va déjà à 70.000 frs. Nous y portons des charrues, des ânes, des mulets et nous y semons du blé. Nos minimums de produits sont de cent pour cent, dès la première année, bien calculés".

Cette lettre est très significative, car elle révèle déjà son incurable légèreté dans les affaires. Calculs de visionnaire ! Mais, il réussit tout de même à décider ses amis de collège à participer à ce projet dont il sera bien entendu le chef : "Je suis le régisseur, écrit-il toujours à Virieu, et MM. Veydel et de Nansouty seront les agriculteurs". Lamartine voulait se retirer dans cette île avec ce trio de misanthropes, car il traversait alors une crise morale et se sentait terriblement désemparé après la mort de Mme Julie Charles qui datait de plus d'un an.

"Un seul être vous manque et tout est dépeuplé".

Il n'aspirait donc qu'à l'évasion et à l'oubli. Mais, Fontenay demanda des renseignements sur la Pianozza, et il reçut un rapport net et riche en chiffres, montrant qu'il faudrait une avance d'un demi-million de livres toscanes pour l'exploitation et que les bénéfices vraiment substantiels se feraient attendre une vingtaine d'années.

Pourtant, nos jeunes aventuriers, poussés par Lamartine, n'abandonnent pas leur rêve romanesque. Au début du mois de juin, ses amis Nansouty et Veydel partent pour Livourne afin de faire les démarches nécessaires sur place. Et voici une difficulté insurmontable qui surgit : les invasions algériennes et les attaques des pirates rendront leur position très périlleuse : et c'est ce qui maintenait depuis des siècles, en état d'inculture, une terre aussi fertile que celle de Pianozza.

Lamartine ne va pas abandonner si vite ses rêves féeriques de colonisation. Lorsqu'il part pour l'Orient en 1832, il est tout le temps obsédé par ce désir d'exploitation. A Rhodes, à Chypre, à Zabulon, "Combien de sites, écrit-il dans *Le Voyage en Orient*, n'ai-je pas choisis là dans ma pensée, pour y élever une maison, une forteresse agricole et y fonder une colonie avec quelques amis d'Europe".

Ce rêve commence à se réaliser lorsque la ville de Bergues le choisit comme député en janvier 1834. Lamartine, dit alors à son père : "J'ai l'instinct des masses ".

Un an après, en septembre 1835, il écrit à son ami Virieu : "Je vois se réaliser ce que j'avais toujours senti, que l'éloquence était en moi plus que la poésie, qui n'est qu'une de ses formes, et qu'elle finirait par se faire jour".

Lamartine montait, la plupart du temps, à la tribune pour défendre des idées nobles et généreuses. Qu'il s'agisse des Questions de l'Orient, des chemins de fer, de l'enseignement, de la fabrication du sucre, il était là pour prendre la défense de la paix, de la famille, de la prospérité. Il était devenu populaire, si populaire que dans les journées turbulentes de février 1848, son appartion suffisait pour calmer la foule agitée et que ses discours désarmaient les révolutionnaires et arrachaient aux émeutiers socialistes le drapeau rouge.

Après avoir sauvé son pays des troubles certains, et après avoir même exposé sa vie au danger, il ne recueillera que 18000 voix au scrutin pour la présidence de la République.

Effondrement rapide qui lui fera mesurer toute l'ingratitude humaine et regretter les efforts déployés en vain. En 1857, il écrira dans *le Cours Familier de Littérature* : "Plût à Dieu que je n'eusse jamais touché comme Musset, à ce fer chaud de la politique". Non seulement la politique le paya d'ingratitude, mais encore elle fut une entrave à sa production littéraire : "J'aurais pu être un grand poète, dit-il, mais il aurait fallu pour cela que la destinée m'eût fermé plus hermétiquement et plus obstinément toutes les carrières de la vie active".

L'homme d'affaires eut encore moins de chance que l'hmome d'action.

Lamartine a toujours poursuivi des rêves de richesse. En 1812, ayant à peine 22 ans, il songe très sérieusement à aller implanter le cotonnier dans une petite île inculte de la baie de Naples, "l'isoletta" qui était sans doute "Procida".

Sept ans après, le 15 janvier 1819, il écrit au chevalier de Fontenay, secrétaire de la Légation de France, auprès de son Altesse le Grand-Duc de Toscane, pour solliciter une concession qui lui permette d'exploiter "une petite île nommée la Pianozza", auprès de l'île d'Elbe.

Le 6 décembre 1835, il écrit à un ami, Guichard de Bienassis : "La poésie ne doit être que le délassement de nos heures de loisir, l'ornement de la vie. Mais, le pain du jour, c'est le travail et la lutte".

Et dans l'Avertissement de *Jocelyn* (1836) : "Le poète n'est pas tout l'homme, dit-il, la pensée et l'action peuvent seules se compléter l'une l'autre. C'est là l'homme". L'homme qui ne fait que cadencer ses rêves jusqu'à la fin de sa vie "serait une espèce de baladin propre à divertir les hommes sérieux".

Et dans une lettre adressée à son ami Léon d'Ouilly, le 1er décembre 1838, lettre servant de Préface aux *Recueillements Poétiques*, il dit : "la poésie n'a jamais été qu'une douzième de ma vie réelle. Je n'ai fait des vers que comme vous chantez en marchant. Cela marque le pas et donne la cadence aux mouvements du coeur et la vie. Voilà tout".

Il dira encore en 1849, dans la Préface aux *Premières Méditations*, que s'il avait fait quelques poèmes, ce n'était qu'un accident, une aventure heureuse dans [sa] vie".

Après s'être plus ou moins excusé d'avoir fait des poèmes, il devait déclarer hautement qu'il était appelé, depuis sa naissance, à la politique. Il écrit en 1835 : "J'étais né pour l'action. La poésie n'a été en moi que l'action refoulée; j'ai senti, j'ai exprimé des idées et des sentiments dans l'impuissance d'agir" (1). Et dans ses *Mémoires* : "J'étais né pour les grandes affaires d'Etat".

Même à l'âge de 73 ans, il écrit dans le *Cours Familier de Littérature* : "il y avait dans ma nature plus de l'homme d'Etat et de l'orateur politique que du chantre contemplatif de mes impressions de vingt ans".

Son désir, confie-t-il à son ami Legouvé, est d'être un Napoléon sans épée au côté! (2), car, écrit-il dans la Préface des *Méditations* (1849), "le plus beau poème du monde" ne vaut pas "un seul jour de grande action politique". Il se propose comme idéal, la vie de David : "poète au printemps de ses années, guerrier et roi au milieu, prophète à la fin".

---

1. Lamartine, *Voyage en Orient*, T. II, p. 114, éd. Gosselin & Furne, 1845.

2. E. Legouvé, *Lamartine*, conférence donnée le 16 janvier 1876, Paris, Hetzel et Cie, 1876, in 16, 40 p.

Le chantre d'Elvire aux accents immortels nous a confié ses rêves, ses rêves de 18 ans, dans une lettre écrite le 26 juillet 1808, où il précise ses désirs en deux mots : "De la gloire et de l'argent." Telle fut sa devise. Pendant toute sa vie, il ne cessera, parmi ses multiples préoccupations, de caresser et de poursuivre ces rêves.

"La gloire" est le propre de l'homme d'action, "l'argent" appartient à l'homme d'affaires mais rarement aux intellectuels.

Homme d'action et homme d'affaires, voilà deux aspects, peu connus de notre poète, que nous allons essayer de dévoiler.

L'homme d'action que fut Lamartine a connu de sublimes gloires, mais aussi les échecs les plus douloureux.

La politique le séduisait, il voulait un rôle dans les affaires publiques, "participer aux périls et aux bénéfices de la société", d'une part, et d'autre part, la politique devenait chez lui comme chez Chateaubriand, un besoin physique, "une dépense d'énergie surabondante".

Il aspirait donc à réunir les deux grandeurs, "celle de la plume et celle de l'épée"(1) Mais, il constate avec dépit que la France contemporaine avait le préjugé des hommes "spéciaux", c'est-à-dire, selon ses propres termes, "des hommes qui ne savent faire qu'une seule chose"2.

Comme il craint que ce préjugé ne le fasse "rejeter comme un intrus de toute candidature diplomatique"(3), il se mit à dénigrer la poésie et la carrière poétique. Il commence par renier "cette épithète de poète", lancée par ses ennemis, prétend-il, pour nuire à sa carrière politique (4).

---

1. Lamartine, *Cours Familier de Littérature*, T. 111, Entretien 164, p. 123, (1856-1869).

2. *Ibid.*, T.X. Entretien 58, p. 234.—Lamartine attaque violemment "ce préjugé inventé par la médiocrité pour s'en faire un rempart contre la concurrence du talent multiple".

Cf. *Voyage en Orient*, T.1, p.125. et *Chute d'un Ange*, Avertissement, VII.

3. Lamartine, *Cours Familier de Littérature*, T.X, p.234.

4. Voir son "Discours à une députation d'étudiants", dans Ch. Alexandre, *Souvenirs surLamartine*, p. 102, Paris, Charpentier, 1884, in 12, VIII-422p.

perdre, curieuses et avides du dernier dix, uniquement occupées de leurs débiteurs, toujours inquiètes sur le rabais des monnaies, enfoncées et et comme abîmées dans les contrats, les titres et les parchemins.

De tels gens ne sont ni amis ni citoyens, ni chrétiens, ni peut-être des hommes : *ils veulent* de l'argent."

Balzac ne manque pas , dans toute son oeuvre, de souligner cet amour immodéré pour l'or.

Par exemple, dans *Eugénie Grandet* (1833), l'avare dit à sa fille au sujet de cet or auquel il tient tant et qu'elle a donné si volontiers à celui qu'elle aime : "L'or est une chose chère. les plus honnêtes filles peuvent faire des fautes, donner je ne sais quoi,cela se voit chez les grands seigneurs et même chez les bourgeois; mais donner de l'or ! car vous l'avez donné à quelqu'un, hein(1)?"

Que l'avare aime l'argent c'est normal, mais, partout dans la société règne cette passion pour l'argent : Ecoutons ce cri du *Médecin de campagne* :

"Nous sommes dans le siècle des intérêts matériels et du positif. Nous sommes tous chiffrés, non d'après ce que nous valons, mais d'après ce que nous pesons. Au lieu d'avoir des croyances, nous n'avons que des intérêts."

Et ce cri, helas ! n'a pas cessé d'être vrai. Balzac constate et ne se lassera pas de répéter que "le veau d'or est toujours debout dans sa gloire éternelle". Il trouve, pour définir l'argent, des périphrases expressives comme : "le fabuleux métal", "un mirage doré", "ce vers quoi l'on rame in fatigablement", à travers tous les récifs et à travers toutes les tempêtes et en bravant pour lui la mort.

En définitive, c'est autour de cette recherche de l'or qu'il bâtit ses personnages — et c'est cela qui donne à *la Comédie Humaine* sa cohésion, sa réalité et sa force.

Comme Balzac, Lamartine a eu à se débattre contre de nombreuses difficultés qui, si elles ne sont pas toujours du même ordre, ont été toutefois suscitées par des désirs, des ambitions semblables.

---

1. Balzac, *Eugénie Grandet*, éd. Calmann-Lévy, 1878, p. 208 et sq.

le calomnier, parce qu'il prend sans partager, mais on plie s'il persiste; en un mot, on l'adore à genoux quand on n'a pas pu l'enterrer sous la boue.

"La corruption est en force, le talent est rare. Ainsi la corruption est l'arme de la médiocrité qui abonde, et vous en sentirez partout la pointe..."

L'honnête homme c'est "la vertu dans toute la fleur de sa bêtise, c'est la misère. Je vois d'ici la grimace de ces braves gens si Dieu nous faisait la mauvaise plaisanterie de s'absenter au jugement dernier. Si donc vous voulez promptement la fortune, il faut être déjà riche, ou le paraître.

"Pour s'enrichir, il s'agit ici de jouer de grands coups, autrement on carotte, et votre serviteur ! Si dans les cent professions que vous pouvez embrasser, il se rencontre dix hommes qui réussissent vite, le public les appelle des voleurs. Tirez vous conclusions. Voilà la vie telle qu'elle est. Ça n'est pas plus beau que la cuisine, ça pue tout autant, et il faut se salir les mains si l'on veut fricoter; sachez seulement vous bien débrouiller: là est toute la morale de notre époque. Si je vous parle ainsi du monde, il m'en a donné le droit, je le connais. Croyez-vous que je le blâme ? du tout. Il a toujours été ainsi. Les moralistes ne le changeront jamais. L'homme est imparfait..." [1]

On ne peut que constater la justesse des vues de Balzac, bien qu'empreintes d'un peu de cynisme en ce qui concerne le problème du succès dans la vie.

De même , on devait retrouver, dans ses romans, des traces de l'autre problème qui le tracassa toute sa vie durant: le manque d'argent.

Que dépeindra-t-il avant tout et par dessus tout chez les hommes ? Le fameux appétit de l'argent, cette ruée vers l'or, enragée et universelle.

Les phrases suivantes de la Bruyère pourraient servir d'épigraphe à presque toute l'oeuvre de Balzac.

"Il y a des âmes sales, pétries de boue et d'ordure, éprises du gain et de l'intérêt, comme les belles âmes le sont de la gloire et de la vertu, capables d'une seule volupté qui est celle d'acquérir ou de ne point

---

1. Balzac, *Le père Goriot*, éd. Calmann-Lévy, 1878, P.118 et sq.

La 9e et dernière pièce de Balzac, *Mercadet* ou *le Faiseur*, achevée en 1844, fut proposée à la Comédie Française (en 1848) qui réclama à deux reprises des remaniements. Mais, Balzac mourut le 18 août 1850, sans que son chef d'oeuvre ait vu le jour.

C'est cette pièce, *Mercadet* qui connaitra plus tard, en 1868, un si grand succès à la Comédie Française qu'on la déclarera "la plus puissante comédie du XIXe siècle", (Soulay) et "égale aux meilleures de Molière" (Sarcey).

Résultats de cette expérience :

Ces déceptions réitérées, cette longue et dure expérience au milieu d'une existence tumultueuse, tout cela ne pouvait pas être sans influence sur l'oeuvre de Balzac. En effet, celle-ci porte l'empreinte de tous ces déboires et elle est teintée de cette amertume acquise après tant d'insuccès.

Tous ces échecs devaient nécessairement pousser Balzac à se demander quel est donc l'homme (ou le type d'homme) susceptible de réussir dans la vie. Il examine cette question et nous en donne la réponse à travers les personnages de ses romans.

Evidemment, ce ne sont pas les honnêtes gens qui réussissent ou qui peuvent réussir. Ils ont trop de scrupules, ils ont trop de délicatesses et de conscience.

Les coquins ? oui, mais pas souvent, à condition qu'ils soient parfaits, car les coquins sont trop avides, trop impulsifs pour être prudents,.. ils font toujours des maladresses qui les perdent.

Ceux qui réussissent, ce sont les médiocres persévérants et c'est pour cela que Balzac fait connaître le succès dans ses romans à beaucoup d'entre eux.

Dans *le Père Goriot* (1834), par exemple, voilà le forçat évadé Vautrin, qui donne une leçon d'arrivisme au jeune étudiant, Rastignac :

"Voilà le carrefour de la vie jeune homme [..] Savez-vous comment on fait son chemin ici ? Par l'éclat du génie, ou par l'adresse de la corruption. Il faut entrer dans cette masse d'hommes comme un boulet de canon, ou s'y glisser comme une peste. *L'honnêteté ne sert à rien.* On plie sous le pouvoir du génie, on le hait, on tâche de

faire des pièces de théâtre susceptibles de lui assurer célébrité et richesse. A partir de sa 20e année jusqu'à sa mort, il fait une cinquantaine d'essais: 50 pièces seront conçues, rêvées ou ébauchées, sur lesquelles il y en aura neuf de terminées, 4 jouées de son vivant et 2 après sa mort.

La première pièce de Balzac fut une tragédie en 5 actes et en vers intitulée : *Cromwell* (1819) et on lui conseilla amicalement, et non sans raison, de la "laisser dormir".

En 1822, puis en 1837, il proposera à différents théâtres, *Le Nègre* et *l'École des Ménages* qui lui seront refusées.

La 4e tentative au théâtre connut un échec plus douloureux : il s'agit de *Vautrin*, pièce en 5 actes, écrite en 1839 et proposée en 1840 au directeur du Théâtre de la Porte Saint-Martin. Après deux refus, la censure accorda enfin son autorisation et *Vautrin* fut donnée le 14 mars à la Porte Saint-Martin : mais elle fut écoutée avec froideur, puis interdite après la première représentation. L'histoire de cette unique représentation est assez connue. L'acteur Frédérick Lemaître, interprète du rôle du forçat, s'était fait, au 4e acte, la tête du Roi Louis-Philippe en s'affublant, dit-on, d'un toupet "dynastique et pyramidal". Le duc d'Orléans qui assistait à la représentation en conçut l'indignation qu'on devine. L'interdiction fut immédiate. Balzac qui avait misé sur un succès pour renflouer ses finances fut, une fois de plus, déjoué dans ses espérances. Etant malade à cette époque, il confia ses intérêts à V. Hugo, mais rien ne s'arrangea et l'auteur de *Vautrin*, ulcéré, refusa même l'indemnité de 5000 frs que le gouvernement lui offrait. Mais, il accepta du Ministère l'autorisation de faire jouer un drame ou deux à la Porte Saint - Martin, ou à l'Odéon pendant les 4 mois de fermeture, de Mai à Août.

Donc, pour rattraper l'échec de *Vautrin* il essaya de monter sa 5e pièce : "*Richard coeur d'éponge*; mais le projet n'aboutit pas.

Alors, Balzac prépara *les Ressources de Quinola* et cette 6e tentative se solda par un nouvel échec, car la pièce quitta l'affiche après 19 représentations (1842).

Septième tentative avec *Pamela Giraud* (1843), qui eut une carrière très brève. En 1848, ce fut sa 8e pièce, *La Marâtre*, mais au bout de 6 jours, on affichait "relâche".

Mais, si sa gloire littéraire était sûre et solide, peut-être des trésors de la fortune s'ouvriraient plus facilement et plus généreusement pour lui.

Ce raisonnement le poussa à travailler pour la gloire en même temps que pour le gain : ce qui a eu le don d'exaspérer Sainte-Beuve qui,l'accusant de négociations commerciales qu'il n'a pas faites d'ailleurs, dit de lui : "Ce mélange de gloire et de gain m'importune".

En effet, si Balzac aimait le gain, il n'en aimait pas moins la gloire. Il y était même très sensible. Il se plaisait à raconter cette histoire : un jour en Russie, alors qu'une demoiselle de compagnie apportait le thé, la maîtresse de maison lui dit: "Eh bien! vous disiez donc M. de Balzac.. "Alors, la jeune fille, de saisissement, avait laissé tomber le plateau. Et Balzac, tout heureux d'ajouter : "Je sais ce que c'est que la gloire". (1)

Echec à l'Académie :

Toujours soucieux d'assurer sa gloire littéraire, il décide de poser sa candidature à l'Académie Française.

En 1839, il a fait une première tentative, mais étant encore jeune, il préféra ne pas affronter la concurrence de Victor Hugo. En 1841, il fit quelques travaux d'approche et se retira encore.

En 1857, il se présenta pour obtenir le fauteuil de Ballanche et il n'eut que deux voix : celle de V. Hugo et celle de M. de Pongerville.

En 1849, il se présenta aux deux fauteuils vacants par la mort de Chateaubriand et par celle de Vatout. Il eut deux voix à chacun des deux scrutins.

Donc, toutes ses démarches furent vaines et il n'a jamais pu faire partie de l'Académie Française.

Echec au théâtre :

A quels autres moyens pouvait-il avoir recours pour conquérir la gloire et par conséquent la fortune ? Il a essayé plusieurs fois de

---

1. Cf. Faguet, *op. cit.*, pp. 23,24.

Madame Balzac, afin de sauver son fils de la banqueroute, sacrifia toute sa fortune. Mais, il restait une lourde dette que Balzac devait traîner toute sa vie après lui.

L'imprimerie ne tarde pas d'ailleurs à faire de mauvaises affaires. Le 18 août 1828, Balzac vend à son associé Barbier "son fonds de commerce d'imprimerie, matériel, fonte, presses, mobilier industriel, marchandises, papier blanc et ses droits du brevet d'imprimeur", le tout pour la somme de 67.000 frs.

Le 1er sept. 1827, il écrit à un ami, le Général Pommereul à Fougères, pour lui annoncer qu'il renonce aux affaires et qu'il va reprendre la plume. "Depuis un mois, lui écrit-il, je travaille à des ouvrages historiques d'un haut intérêt [...] On m'a présenté, par le hasard le plus pur, un fait historique de 1798 qui a rapport à la guerre des chouans et des vendéens, lequel me fournit un ouvrage facile à exécuter."

N'ayant plus les moyens de vivre, il demande à ce Général de l'héberger. Il va donc s'installer pour quelque temps à Fougères, aigri par ses échecs, voulant oublier ses déboires financiers et ne se doutant pas qu'ainsi la France, en perdant un médiocre homme d'affaires, venait de gagner l'une de ses plus grandes gloires littéraires.

Mais, le besoin d'argent ne tarde pas à se faire ressentir, plus aigu, plus pressant ; il le crie à tous ses amis.

Le 19 décembre 1831, il envoie une lettre à son ami et ancien associé, l'éditeur Urbain Canel. Il lui dit :

"En fait d'argent [je ne cesse] de me retourner sur le gril [...] à moins que vous ne soyez comme moi sans plus d'un franc cinquante dans votre poche, donnez à ma mère les cent francs dont il est question. [...] je me pendrai faute d'argent."

Echec dans la presse

Avec l'énergie du désespoir, voulant se procurer de l'argent coûte que coûte, il va se lancer dans une autre tentative : la presse.

En 1840, il fonda la *Revue Parisienne* où il critiqua très durement Sainte-Beuve, Eugène Süe, Thiers et même Victor Hugo. *La Revue Parisienne* ne vécut que trois mois. Dépenses vaines, espoir écroulé !

amie, Mme de Berny, lui inspira la malheureuse idée de faire du commerce pour réaliser des gains rapides, afin de pouvoir ensuite se consacrer à son oeuvre littéraire en toute tranquillité et en pleine sécurité. Il faut dire tout de suite qu'il était trop honnête en affaires, comme Lamartine, et que comme Lamartine,il fut beaucoup plus exploité qu'exploiteur.

Echec comme éditeur : Il s'improvisa donc éditeur avec le peu d'argent qu'il put réunir, et surtout avec l'aide première de Mme de Berny. Faute d'expérience, il échoua complètement dans cette première tentative et s'endetta. Pour récuprer l'argent qu'il avait perdu, il fit un autre essai. En avril 1825, il s'associa avec l'éditeur Urbain Canel pour l'édition des *Oeuvres Complètes* de la Fontaine puis de Molière. Mais, il tomba malade et l'entreprise aboutit au même insuccès.

Echec comme imprimeur : Après ses divers échecs dans le domaine de l'édition, il va, sur les conseils d'un ami de sa famille, M. Dassonvillez, s'orienter vers le métier d'imprimeur, au printemps de l'année 1826. Pourquoi a-t-il préféré le métier d'imprimeur à tout autre ? Il prétend que c'est parce qu'il s'intéressait au sort d'un prote habile mais malheureux, qu'il avait connu chez un ami. Mais cette nouvelle orientation semble plutôt être le fait d'une bonne occasion qui s'est présentée au moment où il se débattait au milieu des difficultés sans nombre, à la recherche de la fortune. Son père accepte de lui verser le capital de la rente de 1500 frs qu'il lui avait accordée quelques années plus tôt, alors qu'il devait se consacrer à la littérature. Il achète pour 30000, plus 15000 frs de matériel, l'imprimerie de Jean Joseph Laurens, 17, Rue du Marais-Saint Germain, actuellement Rue Visconti. Cette imprimerie, il la décrira dans les *Illusions Perdues*. A l'époque, cette profession nécessitait l'obtention d'un brevet. Après plusieurs démarches, Balzac obtient son brevet, le 1er Juin 1826, et un mois après, il s'associe avec Barbier pour l'exploitation de ce brevet. Le 29 Juillet 1826, un premier travail sortit des presses de l'imprimerie Balzac. Il s'agissait d'un prospectus pharmaceutique sur les "Pillules anti-glaireuses de longue vie". Balzac imprima ensuite certaines oeuvres littéraires : celles de Vigny, de la Harpe, de Volney et un "recueil de morceaux choisis de littérature", *les Annales Romantiques*. C'est d'ailleurs à cette époque que remontent ses relations avec V. Hugo.

Un an après, le 15 Juillet 1827, la Société "Balzac-Barbier" crée une nouvelle Société pour l'exploitation d'une fonderie de caractères d'imprimerie. Cette nouvelle Société dont la durée était fixée à 12 années se trouva liquidée 9 mois après.

"Le premier amour d'un homme doit être le dernier d'une femme". Elle devint son amie et sa maîtresse et resta son amie tant qu'elle vécut. En 1835, elle se sépara de son mari sans pour cela se rapprocher davantage de Balzac.

Il connut son deuxième amour en 1831, lorsqu'il fit la connaissance de Mme la duchesse de Castries. Elle lui écrivit en gardant l'incognito (comme elle le fit avec Sainte-Beuve) ; il lui répondit, et la correspondance s'établit;. La duchesse finit par ôter son masque et par prier Balzac de venir la voir. C'était une femme aventurière, fantasque, coquette et en définitive disposée à n'aimer sincèrement ou passionnément qu'elle-même. Balzac fut très épris d'elle, et pour elle, il s'endetta davantage, car il était obligé de la suivre dans ses déplacements. Une des étapes de leurs voyages fut Aix-les-Bains, lieu prédestiné, semble-t-il, pour ce genre d'homme ! car on se souvient de l'aventure de Lamartine avec Elvire, Mme Julie Charles, à Aix-Les-Bains. Les passions des deux hommes devaient se trouver immortalisées l'une dans *le Lac* et l'autre dans *La Duchesse de Langeais*.

Quelques mois après, en 1843, naît un nouvel amour dans son coeur, cette fois-ci, plus durable et plus grave. Cela débuta par une liaison épistolaire, qui devint par la suite plus substantielle avec Mme Hanska, une Polonaise, de grande noblesse et de grande fortune et c'est probabalement pour cette dernière raison que Balzac s'attachera à elle : il visait la fortune de cette dame autant que sa personne.(1).

Ce n'est qu'en 1850 que cette Polonaise consentit à épouser Balzac, c'est-à-dire, au bout de relations d'amitié de 18 ans durant lesquelles il ne connut que difficultés et complications. Comme elle avait des domaines en Ukraine, l'empereur n'accorda la permission au mariage qu'à la condition qu'elle abandonnerait tous ses biens à ses enfants. Elle accepta et Balzac ne put reculer. Le 14 mars 1850, ils se marièrent; les illusions de richesse, et bientôt d'amour, s'écroulèrent. Balzac tomba malade, elle se désintéressa de lui et 5 mois après, il mourut, le 18 Août 1850.

Ces divers échecs en amour devaient l'aigrir. Il est tracassé de plus en plus par le manque d'argent et par le désir de s'enrichir. Il s'épuise au travail sans gagner assez d'argent pour vivre. Sa première

---

1. Rappelons-nous que Lamartine a fait également un mariage de raison, d'intérêt, avec une étrangère, une Anglaise fort riche : Marie-Anne Elisa Birsh.

Voici le témoignage d'un valet de Lamartine (1) :

"Le matin, personne ne pénètre dans la chambre de Monsieur avant onze heures; défense sévère de frapper à la porte; on renverrait un domestique qui se le permettrait; c'est le temps qu'il consacre au travail ...."

"Et quant il sortait faire une promenade, à cheval ou à pied, il avait toujours son carnet où il consignait ses impressions, les quelques vers inspirés, les uns par le passage d'une brise, les autres par l'harmonieuse ondulation des collines du Mâconnais."

Un autre point commun, et encore plus flagrant, entre nos deux écrivains — c'est qu'ils étaient accablés de dettes, toujours aux prises avec les soucis harcelants de mortels embarras d'argent. Ils ont constaté, chacun à leur tour, que le travail littéraire ne nourrit pas son homme. Alors, pour repousser ce cauchemar de dettes, ce monstre indestructible et toujours renaissant, ils essayaient de gagner de l'argent en se lançant dans les affaires. Et ils étaient fermement persuadés, l'un et l'autre, qu'ils avaient le génie des affaires.

Illusions d'intellectuels ! Ils allaient d'échec en echec, et ont fini par regretter de s'être lancés dans une voie qui ne correspondait ni à leur génie ni à leurs dispositions naturelles.

Balzac et Lamartine avaient aussi de commun ce pouvoir de rêver, de nourrir, avec intensité dans leur esprit, certains désirs que la vie va se charger d'annihiler chez l'un comme chez l'autre.

Balzac nous confie ses rêves dans une lettre adressée à sa soeur Laure,lorsqu'il n'avait que 21 ans: "Laure, Laure, mes deux seuls voeux, et immenses : *être célèbre, être aimé* seront-ils jamais satisfaits ? "

Echec en amour :

Et nous allons voir qu'en amour, il a connu plus d'un échec.

En 1822, il fit la connaissance de Mme de Berny; il avait alors 24 ans et elle 45 ans et 8 enfants. C'est en souvenir d'elle qu'il a dit:

1.. J'ai eu l'heureuse surprise de trouver son "journal" à Tramayes, à 4 km. de Saint-Point, en 1949. Voir L. Fam, *Lamartine, Voyage en Orient*, Paris, Nizet, in 8', 543 p. (V. pp. 505,506.)

Tous ceux qui ont connu Lamartine se sont profondément attachés à lui, à ce coeur sublime, ouvert à toute idée généreuse. Hommes et femmes admiraient la distinction naturelle de ses manières, la finesse et le charme de son caractère, la flamme et la spontanéité de sa conversation.

Le poète provençal Frédéric Mistral, ne fait que traduire ce que pensent tous ceux qui ont connu Lamartine, lorsqu'il lui dit :

"Je te salue, ô toi, le plus noble des hommes".

Divergences d'inspiration, divergences de caractère et cependant, une certaine ressemblance dans leur façon d'aborder les problèmes de la vie quotidienne.

Lamartine et Balzac avaient tous deux l'amour du travail.

Balzac était un travailleur acharné et puissant. Aussi, malgré sa constitution robuste, devait-il mourir à l'âge de 50 ans, usé par un labeur incessant. Il a écrit près de 100 ouvrages en 25 ans. Cela à travers mille entreprises et mille desseins qui tourbillonnaient sans arrêt dans sa tête, cela malgré cent voyages et des soucis incessants d'argent.

Il travaillait d'ordinaire la nuit, quelquefois jour et nuit; sans sortir, sans presque bouger de son bureau, se soutenant et malheureusement aussi, s'excitant avec d'innombrables tasses de café noir. Il écrit un minimum de 10 pages par jour et assume un minimum de 8 heures de travail par jour, chiffre énorme à bien considérer pour un travail littéraire.

Et lorsqu'il finissait un manuscrit, l'ouvrage était loin d'être achevé. Il corrigeait ou plutôt augmentait infiniment. Il lui fallait 5, 6 ou 7 épreuves d'imprimerie. Les manuscrits qu'il livrait aux typographes n'étaient pour lui qu'une maquette qu'il agrandissait, ou bien un canevas sur lequel il brodait.

De même, Lamartine travailla dur, sans répit; même malade, il ne cessa d'écrire et de produire. Vers la fin de sa vie, il a écrit encore des *Entretiens* littéraires qui furent publiés sous le titre de *Cours Familier de Littérature* et qui constituèrent 28 volumes de grand format. Tous les matins, hiver comme été, debout à 5 heures du matin, se comparant au rossignol qui aime à chanter très tôt, il s'assied près de sa cheminée jusqu'à onze heures; et ses vers harmonieux prennent forme avec les premières heures du jour.

d'idées; tantôt il se redressait sur la pointe des pieds pour suivre le vol de sa pensée jusqu'à l'infini [...] Il me jeta un regard vif, pressé gracieux, d'une extrême bienveillance. Je m'approchai pour lui serrer la main, je vis que nous nous comprenions sans phrase et tout fut dit entre nous; il était lancé, il n'avait pas le temps de s'arrêter. Je m'assis et il continua son monologue, comme si ma présence l'eût ranimé au lieu de l'interrompre.

L'attention que je donnais à sa parole me donnait le temps d'observer sa personne dans son éternelle ondulation. Il était gras, épais, carré par la base et les épaules; le cou, la poitrine, le corps, les cuisses, les membres puissants; beaucoup de l'ampleur de Mirabeau, mais nulle lourdeur; il y avait tant d'âme qu'elle portait tout cela légèrement et gaîment, comme une enveloppe souple et nullement comme un fardeau; ses bras gesticulaient avec aisance; il causait comme un orateur parle"[1].

On remarque au passage le style grandiloquent cher à Lamartine; il est évident que Lamartine était attiré par Balzac, mais il est aussi évident qu'il l'a vu à travers le prisme de son idéalisme. Nous ne pouvons donc attacher à ce portrait qu'une valeur sentimentale.

De part sa nature, Lamartine est porté à prodiguer les compliments, à jeter "à pleines mains les roses", comme le dit son secrétaire Ch. Alexandre, dans ses *Souvenirs sur Lamartine*, p. 6.

Lamartine plane toujours dans des sphères sereines si élevées qu'il ne peut voir aucune laideur sur terre. "La matière vue de si haut est comme le ciel vu d'en bas : elle se teint d'azur"[2].

A son tour, Balzac a fait de Lamartine, sous le nom de Canalis, un très beau portrait.

---

1. E. Faguet. *Balzac*, Paris, Hachette, 1913, in 16, 201 p. Voir pp. 25, 26.

2. Faguet, *Etudes sur le XIXe siècle*, Paris, Boivin, 1887 p. 86.

N'a-t'il pas écrit dans la *Chute d'un Ange* :

"Et le sage comprit que le mal n'était pas,
Et dans l'oeuvre de Dieu ne se voit que d'en bas."

(VIIIe Vision).

LES ILLUSIONS DE DEUX GENIES LITTERAIRES
BALZAC ET LAMARTINE

Par

LOTFY FAM

On peut se demander pourquoi le sujet de cet article réunit deux génies aussi différents que Lamartine et Balzac. C'est que normalement on connaît ces écrivains sous leur côté glorieux, et on ne connaît que vaguement les déboires de leur vie. Ces déceptions pourtant, ont eu des répercussions sérieuses sur leurs œuvres. Il nous a donc paru intéressant de nous immiscer dans leur vie pour en mettre en lumière un aspect quelque peu négligé.

Lamartine et Balzac ne se ressemblaient pas physiquement, autant la distinction caractérisait le premier, autant elle manquait au second.

Balzac avait des manières lourdes, brusques et sans grâce. Sa façon de s'habiller reflétait à la fois la prétention et la négligence. Au point de vue du caractère même, il ne savait faire montre d'aucune délicatesse, d'aucune attention. Cet aspect rustre explique qu'il n'eut pas de vrais amis. On l'admirait, mais on ne l'aimait guère ; ce fut le cas de Victor Hugo, celui de George Sand qui le trouvait trop rabelaisien, et celui de Théophile Gautier qui le considérait avec "une aimable et majestueuse indulgence". Il est curieux de constater que le seul portrait réellement flatteur de Balzac ait été fait par Lamartine qui le rencontra pour la 1ère fois dans le salon de M^me^ de Girardin. Voici comment il nous le présente :

"Balzac était debout devant la cheminée de ce cher salon où j'avais vu passer et poser tant d'hommes ou de femmes remarquables. Il n'était pas grand bien que le rayonnement de son visage et la mobilité de sa stature empêchassent de s'apercevoir de sa taille; mais cette taille ondoyait comme sa pensée; entre le sol et lui, il semblait y avoir de la marge; tantôt il se baissait jusqu'à terre comme pour ramasser une gerbe

الملخص

اقتبس تشوسر روايته «ترويلوس وكريسيد» من رواية بوكاتشيو «ايل فيلوستراتو». ولكنه أدخل عليها تغيراً جوهرياً، إذ أنه عالج موضوع الرواية بتبصر فلسفى لم يظهر فى كتابة الروائى الايطالى.

أن تشوسر يرى أن القدر هو الذى يتحكم دائماً فى مصير البشر وله اليد العليا فى توجيه سير الحوادث التى تتقاذفهم. فحينما يقع ترويلوس، القائد الطروادى فى حب كريسيد، الأرملة الجذابة، لم يحدث هذا الا بحكم قوة خفية دفعته إلى ذلك رغم تشدقه الدائم بازدراء الحب. وكذلك كانت كريسيد فى حبها له مصيرة وليست مخيرة والظروف هى التى دفعت الاثنين إلى مصيرهما المحتوم. ثم يسخر القدر بالمحبين فيفرقهما ويجعل كريسيد تخون حبيبها. وينهى الشاعر روايته بقوله أن الدنيا كلها رياء وخداع والحب الوحيد الذى يبقى ولا يزول هو الحب الالهى.

واهتمام تشوسر بالدور الذى يلعبه القدر فى حياة الانسان يبدو واضحاً فى قصيدة الشاعر الاسكتلندى «هنريسون» الذى كتب قصيدة يمكن اعتبارها تتمة طبيعية لمأساة «ترويلوس وكريسيد»؛ فقد نكب كريسيد بالجذام حتى يكون مرضها وما تقاسيه بسببه بمثابة جزاء لها تكفر به عن خطيئتها، ليس فى حق ترويلوس كما كان الاعتقاد الشائع، ولكن فى حق الآلهة. فالآلهة عند «هنريسون» تمثلون القدر، وقد هاجمتهم كريسيد حينما أدركت هذه الحقيقة واعتقدت أنهم السبب فى كل ما حدث لها.

بناء على هذا. واضح أن «تشوسر» ومن بعده «هنريسون» قد نقلا مأساة «ترويلوس وكريسيد» نقله كبيرة من مجرد قصة بالمعنى المفهوم فى عصر النهضة كما فعل «بوكاتشو» إلى مستوى أعلى وأكثر تعقيداً، تفاعل فيه عنصر التحليل النفسى لشخصية كريسيد وعنصر صراع الانسان مع القدر.

offends against God's holy laws" [1] This leads Douglas Duncan [2] to deduce that the decision to punish Cresseid with leprosy is therefore an "expression of the divine will" which in this case appears as "malicious and vengeful, lacking in the Christian qualities of mercy and grace". Henryson had a strict moral sense, that is true, but he was also endued with a deep humanity and these two feelings did not pull as Douglas Duncan suggests in "opposite directions" but rather worked in unison to see Cresseid ultimately saved. Henryson achieves this by making her "offend against God's holy laws" in the words of Tillyard and justice must therefore see that she is duly punished. But this punishment is the cause of bringing Troylus and Cresseid together; and although Troylus does not recognize her yet his pity is extended to her and she in return sends him the "Royal Ring" set with a "Ruhie reid" which had been a pledge of his love for her. Cresseid dies not on a note of "pessimism" [3] but rather of hope, for she has suffered sorely, has done penance and deserves therefore the grace and mercy of God. Henryson in his poem, is more merciful towards Cresseid than Chaucer himself. [4]

---

1. Dr. E.M.W. Tillyard (Five poems. 1470-1870). 1948. p. 16.

2. In his essay "Henryson's Testament of Cresseid" in Essays in Criticism Vol. XI no. 2. April 1961. p. 132-3.

3. As Douglas Duncan claims in his essay.

4. Douglas Ducan in his essay p. 129 reaches the conclusion that "The Testament" is an "anxious" and an "uncomfortable poem" which does not repose on orthodoxy but rather "questions the divine order quite premptorily" I do not agree with this opinion for the poem, to me, clearly enforces the orthodox view of life which Henryson would naturally share with his age.

ever in hir swouning cryit scho thus :
O fals Cresseid and trew Knicht Troylus [1]

She distributes her goods and dies.

What is indeed strange about "The Testament of Cresseid", is that Cresseid is punished, not for her faithlessness to Troilus, but because in secret pratory she cries out angrily on Venus and Cupid

O fals Cupide, is none to wyte bot thow,
And thy Mother, of lufe the blind Goddes,
Ye causit me alwayis understand and trow,
The seid of lufe was sawin in my face,
And ay grew grene throw your supplie and grace,
Bot now allace that seid with froist is slane,
And I fra luifferis left and all forlane. [2]

Henryson has in mind Chaucer's poem and the emphasis Chaucer lays on the part played by Fate, alias Venus and Cupid in directing the events of Criseyde's life.

He has the same pity for Criseyde that her author has and he explicitely says so,

Yit nevertheless quhat ever men deme or say
In scornfull langage of thy brukkilnes,
I sall excuse, als far furth as I may ,
Thy womanheid, thy wisdome and fairnes;
The quhill Fortoun hes put to sic distres
As hir pleisit, and nathing throw the gilt
Of the, throw wickit langage to be spilt. [3]

The question then arises, if Henryson pitied Cresseid so much, why did he make her suffer so hideous a punishment ? Dr. Tillyard says "Cupid .. and the pagan gods in their planetary function belong to the theological code and when Cresseid offends against them she

---

1. ibid, 545-6.
2. ibid, 134-140
3. ibid. 85-91.

EPILOGUE

Where Chaucer draws a merciful veil over his weak Criseyde and ends his poem by extoling divine love and depicting the inevitabiliy of fate and the helplessness of man in a world of mutability, we find other versions of Troilus and Criseyde story that give it a different ending.

The most common ending to the tale, presents Criseyde as degenerating into a common prostitute in the Greeks' camp; but Henryson, a Scottish Chaucerian writer of fables, gives a more striking ending in his "Testament of Cresseid" which begins where Chaucer left off.

A charming picture is first presented to us of an old man on a very cold night seated by the fire. He takes a drink his "spreitis to comfort" and then "to cut the winter nicht and mak it schort" he picks up a book

> Written by worthe Chaucer glorious,
> Of fair Cresseid, and worthie Troylus [1]

After perusing it to the end, he takes another book in which he learns about

> the fatal destenie
> Of fair Cresseid, that endit wretchitlie

and he proceeds to recount the "woefull end of this lustie Creisseid" [2]

Henryson turns Cresseid into a begging leper with cop and clapper who receives no pity, except from Troilus (towards whom she once had been most pitiful). He is passing by, and throws alms to the leppers. She is so disfigured that he does not recognize her, but something about her makes him think that he "hir face befoir had sene" [3] when Cresseid is told who her benefactor is, she "fell doun to the ground" and

---

1. "The Testement of Cresseid" by Robert Henryson edited by H. Harvey Wood. p. 36-42.

2. ipid 61 - 69.

3. ibid. 500.

was not deep or genuine enough. She liked him well and admired him for his excellent qualities, she was also grateful to him for his love and the protection he gave her, but when the real test came of her affection for him, she could only say

I hadde a lord, to whom I wedded was,
The whos myn herte al was; til that he deyde;
And other love, as helpe me now Pallas;
Ther in myn herte nis, ne never was [1]

C.S. Lewis claims that "Troilus and Criseyde" is "a great poem in praise of love" (2) It is a great poem indeed, but not in praise of earthly love which it depicts as transitory and at the mercy of so many outside elements, but rather as Coghill says, we see Chaucer at the close of the poem, stepping aside from the "discarded French philosophy of love and from the Italian tale of love which he had been so long in telling and gathers his poem into a great doxology." [3]

Chaucer makes the spirit of Troilus look down on "this litel spot of erthe" and he

fully gan despyse
This wrecched world and held al vanitee [4]

All indeed, is vanity, except divine love, love of him who

nil falsen no wight, der I seye
That wol his herte al hoolly on him leye.
And sin he best to love is, and most meke,
what nedeth feyned loves for to seke ?

On this note ends the poem of "Troilus and Criseyde"

---

1. Ibid. V. 975-978.
2. Allegory of Love p. 197.
3. The Poet Chaucer pp. 84-85
4. Troilus V. 1814-1817.

tonge". [1] Troilus assures Pandarus that he considers the service had done him, neither a "shame" nor a "jape" and beggs him "for the love of god, this grete empryse, perform it out; for now is moste nede."[2] He promises to be careful and he is true to his word for neither by utterance or deed does he ever betray his love for Criseyde to anyone. Indeed his manner is so perfect that Criseyde begins to think that love

al come it late

Of alle joye hadde opned hir the yate [3]

and she "thonked god she ever with him mette". Not only did she find him discreet and secret, but he is also as "a wal of steel" on which she can lean and "she was no more afered". [4]

It now only remained for Pandarus "to bringe to his hous som night, his faire nece, and Troilus y-fere" [5]. So he asks her to have supper with him at his house, she laughs at this and "gan hir faste excuse". He insists so much that she finally accepts but only after Pandarus assures her that Troilus is out of town. After supper "she took hir leve, and nedes wolde wende" but "Fortune executruce of wierdes" now takes over and Criseyde is prevented from leaving by a torrent of rain that from "hevene gan avale". [6] She reluctantly agrees to spend the night at her uncle's house. In the middle of the night, Pandarus appears in her room through a trap door and he tells her that Troilus had just arrived, (this is not true as the prince had been hiding in the house waiting for such an opportunity) and he describes to her how he is wasting for love of her begs her to have pity on him. Criseyde is at her "wittes ende" [7] and when Troilus actually comes before her and falls down on his knees in front of her she is filled with pity and her heart softens towards this knight who suffes so for her sake. She bids him sit beside her and she speaks to him in

---

1. ibid. III. 232-394
2. ibid. III. 416-417.
3. ibid. III. 468-469.
4. ibid. III. 470-483.
5. ibid. III. 514-515
6. ibid. III. 617-626.
7. ibid. III. 931.

Troilus is also to be among the guests, but he is to feign sickness so that he may be given a room apart. Everything works according to paln and only

God and Pandarus wiste al what this mente [1]

They all agree to come to Criseyde's aid and Helen innocently suggests that Troilus should also be induced to take her part. With some clever machination, Pandarus manages to take his niece who is "al innocent" of his "entente" into Troilus' chamber which is "but lyte".[2] There she beholds "his manly sorwe" which "mighte han maad an herte of stoon to rewe" meanwhile Pandarus urges her to "make of this thing an ende, or slee us bothe at ones".[3] What can a pitiful woman like Criseyde do ? She accepts his "servyse", but warns him that

A Kinges sone al-though ye be, y-wis,
Ye shul na-more have soverainetee
Of me in love, than right in that cas is;
Ne I nil forbere, if that ye doon a-mis,
To wrathen yow. [4]

Then she "him in armes took, and gan him kisse" [5]

Pandarus has succeeded in driving the "deer" into Troilus' arms, but he afterwards appears conscience-stricken at what he had done and accuses himself of becoming

Bitwixen game and ernest, swich a mene
As maken wommen un-to men to comen [6]

He has proved, as he says, a "traytor" to his niece "of vyces clene" who had never done "ais". He therefore begs Troilus to keep the matter secret and ever to remember that "firste vertu is to kepe

---

1. Ibid. II. 1561.
2. Ibid. II. 1646.
3. Ibid. III. 113-119.
4. Ibid. III. 170-174
5. Ibid. III. 182.
6. Ibid. III. 253-255.

is it harm ye liven " [1]. After that he tries to dispel her fears and to assure her that no harm is meant to her honour and he begs her to trust him, him her uncle who would "lever thou and I and he were hanged, than I sholde been his haude." Finally, when he beholds how angry she is at his proposal and when she uphraids him bitterly, he pretends to be deeply hurt and swears that he had never "mente harm or vilanye" [2] he adds that

> sith I see my lord mot nedes dye,
> And I with him, here I me shryve, and seye
> That wikkedly ye doon us bothe dye [3]

and he vows to starve himelf to death so as to die with his friend. So saying, he prepares to leave her presence. But Pandarus knows his niece full well and knows this kind of play acting will affect her. He is not disappointed, for Criseyde acts in the way he expected her to. She decides to be kind to Troilus for she had

> lever maken him good chere
> In honour, than myn emes lyf to lese[4].

Criseyde may think that it is she who is taking a decision but in reality she is like a puppet, skilfully manipulated by her uncle.

Pandarus now tries to arrange a meeting between Troilus and Ciseyde and he promises the prince that he will "the deer un-to thy howe dryve". [5] He forms an ingenious plan whereby Criseyde is to meet a party of Trojan notable at the house of Deiphebus, the favourite brother of Troilus, in order to help her against

> som men wolden doon oppressioun,
> And wrongfully have hir possessioun[6].

---

1. ibid. II. 350.
2. ibid. II. 437.
3. ibid. II. 438-441.
4. ibid. II. 471-2.
5. ibid. II. 1535.
6. ibid. II. 1418-1419.

She seems rather calculating here, and more like her Italian counterpart. Yet there is a great deal of difference between the two women. Criscida is the calculating wanton who does her own planning and is never taken by surprise; she is frank, open and knows exactly what she wants, she is the usual type of woman found in Boccaccio's tales. But Chaucer's Criseyde is much more complex because she is less sure of herself and cannot easily make up her mind. It is this indecision that makes her appear, to critics like Coghill as "an enigma" and makes him say that "one is never quite certain whether what she says and does springs from calculation or from impulse"[1] Indeed, Criseyde is a very elusive creature, or appears to be so, may be because she does not feel strongly enough about anything and is therefore susceptible to every sudden thought that comes to her mind as well as to any outside element that can influence her.

We find her reacting to the love song that Antigone sings in the garden and later when she is lying in bed, to the "lay of love" that the nightingale "ful loude sang". The dream she has, when she finally falls asleep, is very revealing. She sees an eagle, with feathers white as ivory digging his claws in her breast plucking her heart out, he then puts his heart in its place and flies away "with herte left for herte"[2]. This dream, more than anything else, shows quite clearly how love is forced upon Criseyde and how helpless she is in the hands of a superiour power.

In contrast with Criseyde's indecision and uncertainty, we have Pandarus who seems to have only one thought in his mind and one sole aim towards which he is striving regardless of anything in his way. He wishes to make Troilus happy by bringing Criseyde to his arms so he musters all his powers to that end. He finds his niece reluctant so he attempts to win her over by all sorts of tricks. He flatters her vanity by praising her for having "caught" "swich boon" as Troilus "withoute net" [3] and he tries to arouse her pity by depicting the sorry state Troilus is in and he tells her that it lies within her power "to make him live or deye"[4] but if she be without pity or compassion, "than

---

1. The Poet Chaucer p. 74.
2. Troilus II. 925-931.
3. ibid. II. 585.
4. ibid. II. 322

"of lonelinoss, of old age, of death, of love and of hostility, of everything, indeed that can be feared."[1]. This is quite true and is apparent throughout the poem. Even when she is most in need of protection she is afraid of giving way to love and we overhear her saying to herself :

allas sin I am free
Should I now love, and putte in Jupartye
My sickerness, and thrallen libertee ?
Alas, how dorste I thenken that folye ? [2]

But surely such a kind of fear is common to many people and most women in her position and circumstances would have felt the same. Criseyde is a woman in whom the instinct of fear is brought very much to the fore by the unfortunate occurences that happen to her. But the main characteristics in her nature that rule her judgement and make her act in a certain way are, I think, her kindliness and her vanity. She is extremely kind hearted and shows it in her solicitude for her uncle's safety and in the way she gives way to Troilus, out of pity. Criseyde is also a vain woman, proud of her beauty and Pandarus knows this very well for he says to her when he is trying to further Troilus' suit

Wo worth that beautee that is routhless [3]

And he reminds her that each hour that passes takes away some of her beauty and therefore "er that age thee devoure" she should

Go love, for, olde, ther wol wol wight of thee [4]

She recollects all this when she is alone in her chamber and she reminds herself furthermore that Troilus is her king's son and might harm her if she were to repulse him and she asks herself

Now were I wys, me hate to purchace,
With-outen nede, ther I may stonde in grace ? [5]

---

1. Allegory of Love p. 185.
2. Troilus II. 771-774.
3. ibid. II. 346.
4. ibid. II 393-396.
5. ibid. II. 708-714

To this he had added that it lies in Criseyde's power "to make him live or deye" [1].

Criseyde watches Troilus riding by "on his baye stede, al armed, save his heed, ful richely", the hero, the man who next his brother Hector, is the "holdere up of Troye" [2] and her thoughts make her "wex al reed" for she can hardly believe it that this is really

> he
> which that myn uncle swereth he meet he deed,
> But I on him have mercy and pitee [3]

Alone in her room she begins to debate with herself what her future course of action will be and what she is to tell her uncle if he were "for to press" Troilus "upon her". It is unlikely that Criseyde possessed, at this stage any deep feelings for Troilus. Love was entirely one sided as far as she was concerned and this is obvious when we consider her unemotional attitude when she ponders over her situation and recalls all her uncle had told her about Troilus. She knows that he is gentle, brave, worthy, handsome and in every respect all that a woman could wish for, and he had actually chosen her, he who

> able is for to have
> Of al this noble toun the thriftieste,
> To been his love.[4]

This thought fills Criseyde with pride. She knows that she is beautiful "and so men seyn in al the toun of Troye" [5] Why should it then be strange that Troilus should think the same; "what wonder is it though he of me have joye ?" [6].

This element of vanity, is one of her main characteristics. C.S. Lewis regards fear as Criseyde's "ruling passion", she is afraid, he says.

---

1. ibid, II. 322.
2. ibid. II. 644
3. ibid, II. 653-655
4. ibid II, 736-739
5. ibid, II. 748
6. ibid, II. 749.

Hope worked wonders in Troilus. He "lay tho no lenger doun"[1] but was a very lion in the field of battle. In town, he was friendly and gentle with everyone and so handsome

That ech him lovede that loked on his face.[2]

It is this glamorous Troilus whom Criseyde sees from her chamber window riding past after "having put to flight the Grekes route"[3] those same Greeks of whom she is "so ferd"[4]. He looked so "yong", so "weldy" that "it wan an heven up-on -him for to see"[5] and withall "so lyk a man of armes and a knight" that he reminded everyone of "Mars, that god is of batayle"[6] This sight would not normally have affected Criseyde in any special way. Undoubtedly, like all Trojans, she greatly admired Troilus who was second only to the mighty Hector in courage and like him was also endued with "moral vertu" and "voyde of vyces"[7] But fortune willed it that she should be deeper affected by the sight of Troilus passing by on this particular day, and more personally involved, for not only was it that

blisful Venus, wel arayed,
Sat in her seventhe hous of hevene tho,
disposed wel, and with aspectes payed,
To helpen sely Troilus of his wo[8]

but also Pandarus, her uncle had just paid her a visit and had apprised her that

The noble Troilus, so loveth thee,
That, bot ye helpe, it wol his bane be.[9]

---

1. ibid. I. 1072.
2. ibid. I. 1078.
3. ibid. II. 613
4. ibid. II. 124.
5. ibid. II. 636-7
6. ibid. II. 630.
7. ibid. II. 163-182
8. ibid. II. 680-3
9. ibid. II. 319-320

Fate, in the guise of the god of love was the cause of Troilus' passion for Criseyde. Everything that Troilus had derided and made fun of, he was now made to do and to suffer. This, says Chaucer should be a lesson to those proud folk who scorn love which "so sone" can the freedom of their hearts "to him thralle" [1].

The helplessness of Troilus in the hands of Fate is here clearly apparent; it is fate that had willed him to fall in love with Criseyde and it is fate that will make him suffer for that love.

Troilus from now on becomes a "servant" of love and in the true tradition of courtly love, he can neither eat nor sleep and his sorrow is so great that it "shewed in his hewe" [2]. But he shrinks from telling Criseyde his love and suffers in his chamber till Pandarus, his friend comes to see him and makes him admit that it is love that has laid him so low. Troilus refuses to divulge the name of his lady for, full of humility, he thinks that she "nil to noon swich wrecche as I be wonne." [3] Pandarus scolds him for being so diffident and for despairing "thus causeless". With great difficulty Pandarus makes Troilus confess that his "swete fo" is called Criseyde

And wel nigh with the word for fere he deyde [4]

Not so Pandarus, "Lord, he wase glad" [5] to hear that name, for Criseyde was his own niece and he had no doubt that he would be successful in pleading Troilus' cause with her. He promises that, "she of whom rist al thy wo, here-after may thy comfort been al-so" [6] for the wrath of the god of love is now "al apesed" and Pandarus hopes "of this to maken a good ende" [7].

---

1. ibid. 1. 232-235.
2. ibid. I. 484-487.
3. ibid. I. 777.
4. ibid. 1. 874-875
5. ibid. I. 877.
6. ibid. I. 944-5
7. ibid. 1. 973

He leaves Criseyde behind, all alone in a hostile city. Chaucer does not know whether she had any childeren or not, he "redo it nought" so he is content to "lete it goon" [1]. Alone and,

"Wel nigh out of hir wit for sorwe and fere"[2]

She seeks Hector, the noblest of the Trojans, and she falls down at his feet and begs for mercy. Hector who was "pitous of nature" seeing that she was "sorowfully bigoon" and noting how "fair a creature" she was, had her dwell "in joye" [3] with them in Troy.

It so happened that on a feast day, she went to the temple and although she was "in widewes habite black" while all the other women were "ful wel arayed" yet in beauty stood she "makeless" and never was seen "under cloude blak so bright a sterre" [4] Troilus, the king's son was also there, an unattached Troilus [5] who makes fun of the knights and squires of his company who can so easily fall in love and who suffer "wo and penaunces" when their "preye is lost". This attitude of course, made the god of love angry and forthwith he determined to make this proud prince suffer for his arrogance. He took up his bow and "hit him at the fulle" [6] so that

.... he, that now was most in pryde above,
Wex sodenly most subget un-to-love. [7]

The object of his love was none other than the beautiful widow, Criseyde. His eye "smoot" her, and "ther it stente"; [8] "Blessed be love" says Chaucer "that thus can folk converte" [9].

---

1. ibid 133.
2. bid. 108
3. ibid 114-119
4. ibid 169-175
5. So unlike Boccaccio's Troilo
6. ibid. 209.
7. ibid. 231.
8. ibid. 273
9. ibid.

citee" can come from within and things of the spirit are always available for those worthy and ready to receive them. [1] "And god, biholder and for-witer of alle thinges, dwelleth above; and the present eternitee of his sighte renneth alwey with the dyverse qualitee of oure dedes, dispensinge and ordeyninge medes to goode men, and tormens to wikked men" [2].

The ending of "Troilus and Criseyde" is very much in this vein. Chaucer advises "yonge fresshe folkes" to :

> Repeyreth hoom from worldly vanitee,
> And of your herte up-casteth the visage
> To thilke god that after his image
> You made, and thinketh al nis hut a fayre
> This world, that passeth one as floures fayre. [3]

This is the ending towards which the poem has been leading from its very first line. The wheel of Fortune turns; and Man is helpless. It is this helplessness in the hands of fate that can clearly be discerned throughout the whole poem.

Criseyde is a chaste, modest widow, faithful in her black weeds to the memory of her dead husband. Fate and Pendarus, her uncle combine to throw her into the arms of the expectant Troilus; and it is Fate once more, that drove her out of Troy into the Greek camp. She is neither very good nor very had, she is merely an ordinary woman with an ordinary woman's foihles and failings. C.S. Lewis Justly remarked that : "in happier circumstances she would have been a faithful misress, or a faithful wife, an affectionate mother, and a kindly neighbour- a happy woman and a cause of happiness to all about her". [4] But her cirumstances were far from happy. She is the daughter of Calkas, the priest who turns traitor against his own people and joins the Greeks because he

> Knew wel that Troye sholde destroyed be [5]

---

1. c.f. "Chaucer and the fifteenth century" by H.S. Bennett. pp. 27-28.
2. Boethius Book V. prose VI 328-1641.
3. Troilus and Criseyde. V. 1837-1841.
4. The Allegory of Love. p. 189
5. Troilus and Criseyde I 68

AN APPROACH TO "TROILUS AND CRISEYDE"

By

AZZA KARARAH

In the prologue to "The Legend of Good Women" the God of love accuses Chaucer of being his "mortal fo" for having

> Mad in English eek the book
> How that Crisseyde Troilus forsook [1]

The dream-queen [2] who accompanies Cupid, orders the poet to do penance for having cast a slur on women by portraying the life of faithless Criseyde. He must spend the rest of his mortal days "yeere by yere".

> In making of a glorious legende
> Of gode wommen, maidenes and wyves,
> That weren trewe in loving al hir lyves,
> And telle of false men that hem bitrayen . . [3]

A "litel penance" indeed, as Cupid remarks for one that "deserved sorer roe to smerte". [4]

But was Chaucer's "Troilus and Criseyde" really such a travesty against women ? Queen Anne of Bohemia may have thought so, but

---

1. Edition W.W. Skeat. Text 'A' 264-265

2. The dream-queen voices the opinions of Anne of Bohemia, queen of England, under the cover of allegory. Lydgate corroborates this assumption, he says "This poete wrote at Request of the quene".

3. Prologue Text 'B' 483-486.

4. Cupid seems to be very ill informed indeed. He considers "The Roman de la Rose" which Chaucer translated, as a heresy against love, which it certainly is not. He then recommends certain authors for translation, among them, he mentions "Valerye" and "Jerome" who have both as Chaucer well knows, expressed very anti feminist opinions. c.f. Nevill Coghill "The Poet Chaucer" p. 100.

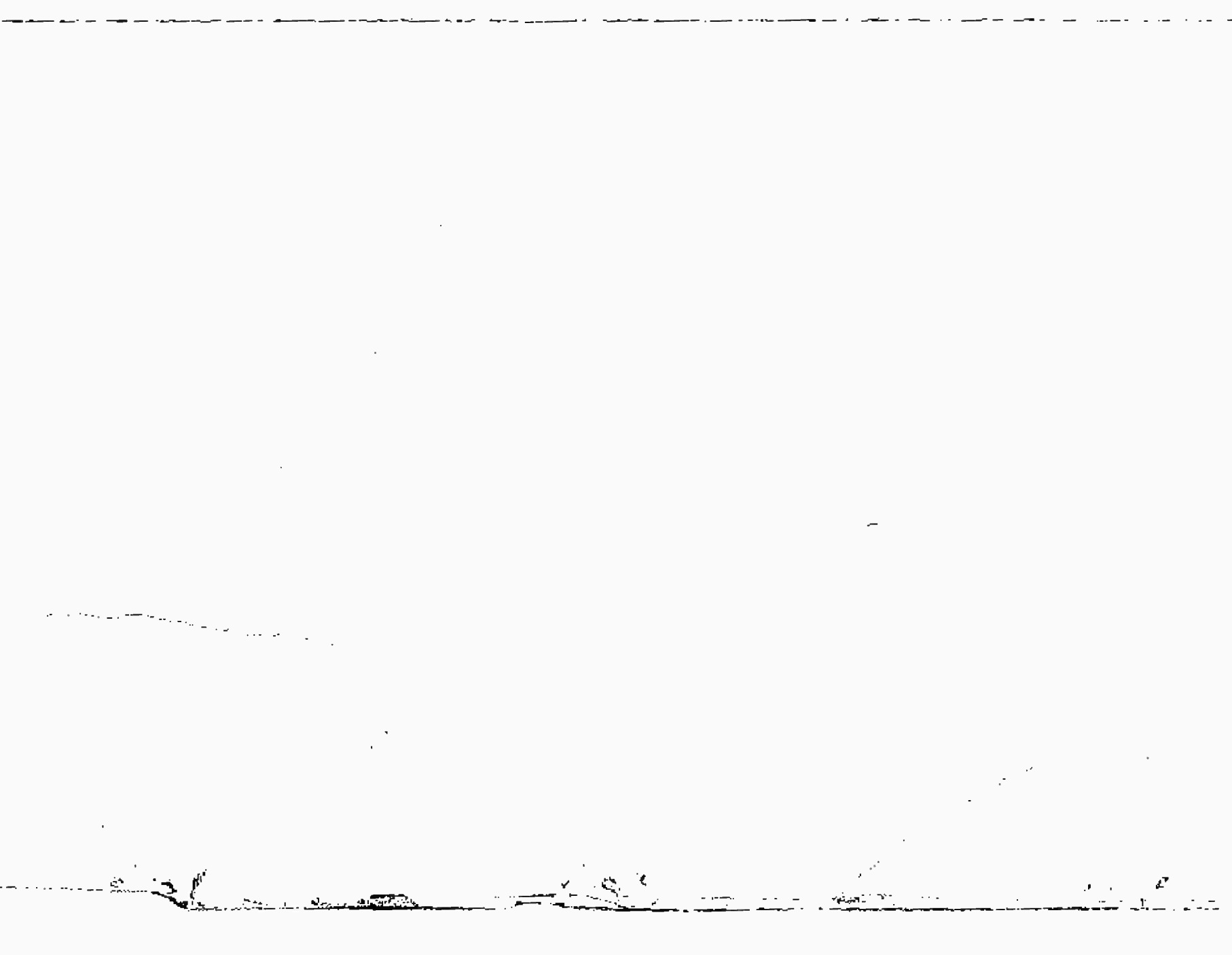

CONTENTS OF THE EUROPEAN SECTION

PAGE

1 — *AZZA KARARAH*

An Approach to "Troilus and Criseyde" 1

2 — *LOTFY FAM.*

Les Illusions de Deux Genies Litteraires Balzac et Lamartine 21

3 — *ABDEL HAMID HAMDY*

Philippe de Mezieres and The New Order of the Passion 45

4 — *JOSEPH NESSIM YOUSSEF*

The Crusade of Louis IX on Syria (1250 — 1254) A.D. 57

5 — *A. M. ABOU-ZEID*

The Nomadic and The Semi-Nomadic Tribal populations of the Egyptian Western Desert and the Syrian Desert 71

BULLETIN
OF THE FACULTY OF ARTS

Vol. XVII
1963

All requests for copies of this Bulletin should be made to the Librarian of the Faculty of Arts, Alexandria University, Shatby. Communications regarding contributions should be addressed to the Editing Board of the Bulletin.

ALEXANDRIA UNIVERSITY PRESS
1964